1



الدكتورة
إيناس حسني البهجي



بالعلم نرتقي
مركز الكتاب الأكاديمي

تاريخ

الدولة العباسية ج1

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2016/4/1939)

956.05

البهجي، ايناس حسني

تاريخ الدولة العباسية/ ايناس حسني البهجي عمان:مركز الكتاب الاكاديمي، 2016

ج1+ج2 ()ص.

ر.إ.: 2016/4/1939

الواصفات: /العباسيون//التاريخ الإسلامي

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

الطبعة الأولى 2017

ISBN978-9957-35-219-6 (ردمك)

مركز الكتاب الأكاديمي

عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري

ص . ب : 11732 عمّان (1061) الأردن

تلفاكس: 96264619511+ موبايل: 962799048009+

الموقع الإلكتروني: www.abcpub.net

A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net

تاريخ
الدولة العباسية ج1

الدكتورة
إيناس حسني البهجي



الإهـداء

إلى أمي

المقدمة

لقد دانت الدولة الأمُوية، التي حكمت الدولة العربية الإسلامية من الحاضرة دمشق، وقامت على انقاضها دولة جديدة تنتمي إلى بيت الرسول - صلى اللـه عليه وسلم - وهي الدولة العباسية، وارتفعت بنود العباسيين السوداء.

ويعتبر قيام الأسرة الجديدة نقطة تحول خطيرة في دولة الإسلام ؛وذلك أن صبغة الدولة أصبحت إسلامية عالمية بعد أن كانت عربية واستمرت الدولة العباسية في الحكم حوالي خمسة قرون، شهدت الدولة خلالها فترات من العظمة والسؤدد والأبهة، وتمتع الخلفاء أثناءها بكل مظاهر الترف والحضارة.

فالدولة العباسية أمة كانت في مقدمة الركب تستقي منها الأمم الأخرى كل معايير الحياة عندما كانت تطبق هذه القاعدة " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللـه"

وعندما ضعفت الدولة الأموية، تطلع الناس إلى رجل يعود بالأمة إلى الجادة والطريق الصحيح، يرفع عنهم الظلم، ويقيم فيهم العدل، ويرهب بهم الأعداء، فحسبوا أن أصلح الناس لهذا الأمر، رجل يكون من بنى هاشم، فكتبوا فى هذا الشأن إلى "أبي هاشم عبد اللـه بن محمد بن الحنفية بن على بن أبي طالب" أحد العلماء الثقات، وكان مقيمًا بالشام قريبًا من مركز الخلافة الأموية.. وما لبث أمر تلك المكاتبة أن وصل الخليفة الأموى "سليمان بن عبد الملك"، فخشى أبو هاشم على نفسه - وكانت قد تقدمت به السِّنّ- بطش الخليفة، فانتقل إلى "الحميمة" من أرض الشام؛ حيث يقيم عمه "عليّ السَّجَّاد بن عبد اللـه بن عباس"، وهناك حضرته منيته، فأوصى إلى "محمد بن على بن عبد اللـه بن عباس" بما كان من أمر الناس معه، ودفع إليه الكتب التي كتبوها إليه، وقال له: أنت صاحب هذا الأمر، وهو فى ولدك. ثم مات، وكان ذلك فى خلافة سليمان بن عبد الملك سنة 99هـ/ 718م.

وأخذ محمد العباسى فى تنفيذ ما أوصاه به أبوهاشم، فاتصل بالناس، واختار من بينهم دعاة يخرجون وينتشرون فى ربوع الدولة الأموية، يشهرون بها وينتقدون عيوبها، ويدعون إلى ضرورة أن يتولى أمر الخلافة رجل من آل البيت قادر على أن يملأ الأرض عدلا، ووجدت تلك الدعوة صدى عند الناس ورواجًا.

ويموت محمد بن على بن عبد الله بن عباس سنة 124هـ/742م، بعدما أوصى ابنه إبراهيم الملقب بالإمام بمواصلة المسيرة. وتأخذ الدعوة العباسية عند إبراهيم الإمام صورة أخرى غير التي كانت عليها قبل ذلك، فهي لم تكن منظمة، أما الآن فقد صار لها نظام، وقادة معلومون، من أمثال أبي سلمة الخلال على الكوفة، وأبي مسلم الخراسانى على خراسان. وما تكاد سنة 129هـ/ 747م، تقبل حتى يصدر أمر الإمام العباسى "إبراهيم بن محمد" أن يكون "أبو مسلم الخراسانى" رئيسًا للدعاة جميعًا فى خراسان وما حولها، وكلَّفه أن يجهر بالدعوة للعباسيين علنًا، وأن يعمل على جعل خراسان قاعدة للانطلاق بقواته ضد البيت الأموي.

الفصل الأول

بداية الدعوة العباسية

كان بنو أمية يجلون آل البيت، ولكن تجاوزات بعض الولاة أساءت في بعض الأحيان إليهم. وكان الوليد بن عبد الملك الخليفة يومئذ قد أقطع الحُميمة (بلدة في الأردن) لعلي بن عبد الله بن عباس فأقام واستقر بها.

بعد زيارة قام بها عبد الله بن محمد (أبو هاشم) إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك، الذي رحب به وأكرمه، شعر أبو هاشم بالمرض وأحس بدنو أجله، وأشاع الناس أن سليمان قد سمّه فعرج أبو هاشم على الحميمة ونقل ذلك إلى ابن عمه محمد بن على بن عبد الله بن عباس، وطلب منه أن يقتص من بني أمية وذلك عام 99هـ

لقي كلام أبو هاشم لابن عمه محمد موقعًا من نفسه، وكان رجلاً طموحًا وكان له أكثر من عشرين أخًا يدعمونه بالإضافة إلى أبنائه، فحمل محمد بن على الفكرة وهى: إزالة ملك بني أمية، وبدأ يعمل على تنفيذها.

اختيار المكان اختار الكوفة وخراسان نقطتي انطلاق للدعوة وهو اختيار دقيق لأسباب منها:

1. أكثر الناقمين على بني أمية من الكوفة.
2. أن خراسان تقع في مشرق الدولة وإذا اضطرت الظروف يمكن أن يفر إلى بلاد الترك المجاورة.
3. وفي خراسان صراعات عصبية بين العرب (القيسية واليمانية) يمكن الاستفادة من هذا الصراع لصالحه.

4. وخراسان دولة حديثة عهد بالإسلام، فيمكن التأثير في نفوس أهلها من منطلق العاطفة والحب لآل البيت.

5. اختار الكوفة مركزًا للدعوة ويقيم فيها ما يسمى (بكبير الدعاة أو داعي الدعاة)، وتكون خراسان هي مجال انتشار الدعوة.

تنظيم أمور الدعوة

عمد كذلك إلى السرية التامة وكان حريصًا عليها، تنتقل المعلومات من خراسان إلى الكوفة إلى الحميمة، ويتحرك الدعاة على شكل تجار أو حجاج.

أول كبير للدعاة في خراسان هو أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق) الذي اختار اثني عشر نقيبًا كلهم من قبائل عربية، وهذا يرد على الادعاء بأن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس. فكان كبير الدعاة يختار اثني عشر نقيبًا يأتمرون بأمره ولا يعرفون الإمام، ولكل نقيب سبعون عاملاً.

بدأت الدعوة تؤتي ثمارها في خراسان، وبدأ يظهر رجالها، مما جعل والي خراسان يومئذ وهو أسد بن عبد الله القسري يقبض على أبي عكرمة السراج، وعدد من أصحابه فيقتلهم سنة 107هـ

وحتى سنة 118هـ استطاع أسد بن عبد الله (كان قد عزل ثم أعيد) بخبرته أن يكشف بعض قادة التنظيم العباسي واشتد عليهم فلجأت الدعوة العباسية إلى السرية التامة من جديد.

ولأن رجال الدعوة قد عرفوا هناك كان لابد من تغيير، فتم اختيار عمار بن يزيد (خداش) داعية جديدًا في خراسان، ولكن لم يكن اختيارًا موفقًا إذ أظهر بعد ذلك الكفر وانكشف أمره، وقتل على يد أسد بن عبد الله أيضًا سنة 118هـ

شوهت أفعال خداش صورة الدعوة العباسية في أذهان الناس، ولم يثقوا في الداعية الجديد، إضافةً إلى شدة أسد بن عبد الله عليهم.

وحتى سنة 122هـ كانت الدعوة تسير ببطء فلقد ظهر عائق جديد وهو ثورة زيد بن على بن زين العابدين بالكوفة.. وكان لا بُدَّ أثناءها وبعدها من الهدوء ليعود الجو إلى حالته الطبيعية.

وفي سنة 125هـ توفي محمد بن علي وأوصى من بعده لابنه إبراهيم؛ ليقوم بمتابعة أمور الدعوة.

وجاء الفرج في سنة 125هـ بعد وفاة هشام بن عبد الملك وانشغال الدولة الأموية بصراعاتها الداخلية.. بالإضافة إلى أن الدعوة العباسية بتوجيه من إمامها قررت استغلال الصراع القبلي القائم بخراسان؛ وذلك لأن والي خراسان يومئذ كان (نصر بن سيار) مضريًّا وأكثرية العرب هناك من اليمانية فكرهوه، فاتجهت الدعوة العباسية إلى اليمانية. وأثّر هذا الصراع القبلي على أحوال الناس ومصالحهم بكافة فصائلهم (اليمانيون، المضريون، أهل العلم، الفرس، الترك)، كل هذه الأحداث ساعدت الدعوة العباسية على الانتشاط من جديد.

ظهور أبي مسلم الخراساني

وفي سنة 128هـ ظهرت شخصية قوية هو أبو مسلم الخراساني (فارسي الأصل) أحد دعاة بني العباس منذ سنوات، لمح فيه إبراهيم بن محمد الذكاء والكفاءة، فقرر أن يرسله إلى خراسان حيث أمر الدعوة في نمو مطرد.

وفي سنة 129هـ جاءت إلى أبي مسلم رسالة من الإمام تأمره بالظهور بالدعوة، ففعل، ووالي خراسان يومها مشغول بصراعات الدولة الداخلية، ولما كان يوم عيد الفطر صلى أبو مسلم بالناس.

مرحلة الاشتباك المسلح

وقع أول اشتباك بين قوة بني أمية وقوة بني العباس في خراسان، وانتصر فيها أبو مسلم على قوات نصر بن سيار، وكثر أتباع أبي مسلم فقد احتال حيلاً لطيفة في

السيطرة على الأمر فكان يرسل إلى اليمانية يستميلهم، ويكتب إلى المضرية يستميلهم بقوله: إن الإمام أوصاني بك خيراً، ولست أعدو رأيه فيك.

توترت الأحداث، وبعث مروان بن محمد في طلب إبراهيم بن محمد الإمام المقيم بالحميمة، فقيدوه وأرسلوه إلى الخليفة بدمشق فسجن.

وفي سنة 131هـ ازداد تمكن أبي مسلم من الأمر، وفر نصر بن سيار وتوفي، فدانت خراسان كلها لأبي مسلم.

وفي سنة 132هـ انتصرت قوات أبي مسلم على قوات العراق ثم توجه إلى الكوفة والتي كان قد خرج بها محمد بن خالد بن عبد الله القسري داعيًا لبني العباس.



وفي سنة 132هـ مات إبراهيم بن محمد في سجن مروان بن محمد، وأوصى بالخلافة بعده لأخيه عبد الله بن محمد (السفاح)، وبالفعل اختير السفاح أول خليفة لبني العباس في ربيع الآخر سنة 132هـ

وفي 11 من جمادى الآخرة أرسل السفاح الجيوش لمنازلة الأمويين فسحقهم، واستتب الوضع لبني العباس عدا الأندلس.

أول خلفاء بني العباس

خلافة السفاح عبدالله بن محمد العبتسي من ربيع الآخر 132هـ حتى ذي الحجة 136هـ ولد السفاح بالحميمة ونشأ بها، ثم لما أخذ مروان أخاه إبراهيم انتقل أهله إلى الكوفة فانتقل معهم، ويقال له أيضًا: المرتضى والقاسم. آلت إليه الخلافة كما رأينا واستقر بالكوفة.. بيد أنه واجه محاولات عديدة للخروج عليه، ولكنه استطاع أن

يقضي عليها جميعًا مستعينًا بأبي مسلم الخراساني وفئة من أهله وعـشيرته وكـانوا كـثرة، وكـان شـديد البطش والتنكيل بخصومه، فكان جُلُّ اعتماده على:

1. أبو مسلم الخراساني بالمشرق.
2. أخوه أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق.
3. عمه عبد الـلـه بن على بالشام ومصر.

وكان معظم ولاة السفاح من أعمامه وبنـي أعمامـه.. وعَهِـد الـسفاح مـن بعـده إلى أخيـه أبي جعفر المنصور ومن بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي. ولم تطل أيامه، فقد أصيب بالجدري فمات، ولم تستقر له الأمور بصورة تامة.

انتقال الخلافة إلى العباسيين:

الدولة العباسية أو الخلافة العباسية أو العباسيون هو الاسـم الـذي يُطلـق عـلى ثالـث خلافـة إسلامية في التاريخ، وثاني السلالات الحاكمة الإسـلامية. اسـتطاع العباسـيون أن يزيحـوا بنـي أميـة مـن دربهم ويستفردوا بالخلافة، وقد قضوا على تلك الـسلالة الحاكمـة وطـاردوا أبناءهـا حتـى قـضوا عـلى أغلبهم ولم ينج منهم إلا من لجأ إلى الأندلس، وكان من ضمنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بـن عبد الملك بن مروان بن الحكم، فاستولى على شبه الجزيرة الأيبيرية، وبقيت في عقبه لسنة 1029م.

تأسست الدولة العباسية على يد المتحدرين من سلالة أصغر أعمام نبي الإسلام محمد بن عبد الـلـه، ألا وهو العباس بن عبد المطلب، وقد اعتمد العباسيون في تأسيس دولتهم على الفـرس النـاقمين عـلى الأمـويين لاسـتبعادهم إيـاهم مـن مناصـب الدولـة والمراكـز الكـبرى، واحتفـاظ العـرب بهـا، كـذلك اسـتمال العباسـيون الـشيعة للمـساعدة عـلى زعزعـة كيـان الدولـة الأمويـة. نقـل العباسـيون عاصمة الدولة، بعد نجاح ثورتهم، من دمشق ، إلى الكوفة، ثم الأنبـار قبـل أن يقومـوا بتـشييد مدينـة بغداد لتكون عاصمة لهم، والتي ازدهرت طيلة ثـلاث قـرون مـن الـزمن، وأصـبحت أكـبر مـدن العـالم

وأجملها، وحاضرة العلوم والفنون، لكن نجمها أخذ بالأفول مع بداية غروب شمس الدولة العباسية ككل. تنوّعت الأسباب التي أدّت لانهيار الدولة العباسية، ومن أبرزها: بروز حركات شعوبية ودينية مختلفة في هذا العصر، وقد أدّت النزعة الشعوبية إلى تفضيل الشعوب غير العربية على العرب، وقام جدل طويل بين طرفيّ النزاع، وانتصر لكل فريق أبناؤه. وإلى جانب الشعوبية السياسية، تكوّنت فرق دينية متعددة عارضت الحكم العبّاسي. وكان محور الخلاف بين هذه الفرق وبين الحكام العبّاسيين هو «الخلافة» أو إمامة المسلمين. وكان لكل جماعة منهم مبادئها الخاصة ونظامها الخاص وشعاراتها وطريقتها في الدعوة إلى هذه المبادئ الهادفة لتحقيق أهدافها في إقامة الحكم الذي تريد. وجعلت هذه الفرق الناس طوائف وأحزابًا، وأصبحت المجتمعات العباسيّة ميادين تتصارع فيها الآراء وتتناقض، فوسّع ذلك من الخلاف السياسي بين مواطني الدولة العبّاسية وساعد على تصدّع الوحدة العقائدية التي هي أساس الوحدة السياسية.[3] ومن العوامل الداخلية التي شجعت على انتشار الحركات الانفصالية، اتساع رقعة الدولة العبّاسية، ذلك أن بعد العاصمة والمسافة بين أجزاء الدولة وصعوبة المواصلات في ذلك الزمن، جعلا الولاة في البلاد النائية يتجاوزون سلطاتهم ويستقلون بشؤون ولاياتهم دون أن يخشوا الجيوش القادمة من عاصمة الخلافة لإخماد حركتهم الانفصالية والتي لم تكن تصل إلا بعد فوات الأوان، ومن أبرز الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية: حركة الأدراسة وحركة الأغالبة، والحركة الفاطمية.

انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة 1258م عندما أقدم هولاكو خان التتري على نهب وحرق المدينة وقتل أغلب سكانها بما فيهم الخليفة وأبنائه. انتقل من بقي على قيد الحياة من بني العباس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد، حيث أقاموا الخلافة مجددًا في سنة 1261م، وبحلول هذا الوقت كان الخليفة قد أصبح مجرد رمز لوحدة الدولة الإسلامية دينيًا، أما في الواقع فإن سلاطين المماليك المصريين كانوا هم الحكّام

الفعليين للدولة. استمرت الخلافة العباسية قائمة حتى سنة 1519م، عندما اجتاحت الجيوش العثمانية بلاد الشام ومصر وفتحت مدنها وقلاعها، فتنازل آخر الخلفاء عن لقبه لسلطان آل عثمان، سليم الأول، فأصبح العثمانيون خلفاء المسلمين، ونقلوا مركز العاصمة من القاهرة إلى القسطنطينية.

بعد هذا العرض يصبح فى مقدورنا أن نعرف كيف تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين. لقد صدر الأمر إلى أبى مسلم بالجهر بالدعوة للعباسيين فى عهد آخر خلفاء بنى أمية "مروان بن محمد"، ولم يلبث أبو مسلم أن دخل "مرو " عاصمة خراسان، وكاد أن يستولى عليها إلا أنه لم يتمكن من ذلك هذه المرة، وهنا أسرع الوالى على خراسان من قبل بنى أمية، وهو "نصر بن سيار" يستغيث بمروان بن محمد ويطلب منه مددًا، وينبه رجال الدولة إلى الخطر المحدق فيقول:

أَرى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ نارٍ ... ويُوشِكُ أن يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ
فإن النارَ بالعودين تُذْكى ... وإن الحربَ مبدؤها كلامُ
فقلت من التعجب ليتَ شِعرى ... أيقاظ أمية أم نيام؟

ولم يهتم بنو أمية بهذا الأمر بسبب انشغالهم بصراعات أنصارهم القدماء بالشام، وانشقاق زعماء الأمويين على أنفسهم، ولم يمدُّوا واليهم على خراسان بشىء، فأدرك أبو مسلم الخراسانى أن الوالى الأموى لن يصبر طويلا، وأن "مرو" ستفتح يومًا ما قريبًا، فأخذ يجمع العرب من حوله، ثم انقضَّ بهم على "مرو" ففتحت له، وهرب واليها "نصر بن سيار" وكان ذلك سنة 130هـ/ 748م.

وواصل أبو مسلم فتوحاته، فدانت له "بلخ" و"سمرقند" و"طخارستان" و"الطبسين" وغيرها، وتمكن من بسط سيطرته ونفوذه على خراسان جميعًا، وراح يتطلع إلى غيرها، وكان كلما فتح مكانًا أخذ البيعة من أهله على كتاب الله-عز وجل-وسنة نبيه ("وللرضا من آل محمد"، أي يبايعون إمامًا مرضيًا عنه من آل البيت من غير أن يعِّيَنهُ لهم.

والواقع أن بنى أمية كانوا نيامًا فى آخر عهدهم، لا يعلمون من أمر القيادة الرئيسية لهذه الدعوة العباسية شيءًا، ولما وقع فى يد الخليفة (مروان بن محمد) كتاب من "الإمام إبراهيم العباسى" يحمل تعليماته إلى الدعاة، ويكشف عن خطتهم وتنظيمهم، كان منشغلا بتوطيد سلطانه المتزعزع وقمع الثائرين ضده، واكتفى الخليفة "مروان بن محمد" بأن أرسل إلى القائم بالأمر فى دمشق للقبض على الإمام "إبراهيم بن محمد" "بالحميمة" وإيداعه فى السجن، وتم القبض عليه وأودع السجن، فظل به حبيسًا إلى أن مات فى خلافة مروان بن محمد سنة 132هـ/750م. ولما علم "إبراهيم" بالمصير الذي ينتظره، وعلم أن أنصاره ومؤيديه قد واصلوا انتصاراتهم، وأن الكوفة قد دانت لهم وصارت فى قبضتهم أوصى لأخيه "أبي العباس" بالإمامة طالبًا منه أن يرحل إلى الكوفة ومعه أهل بيته؛ لينزل على داعى العباسيين بها وهو "أبو سلمة الخلال" فهناك يكون فى مأمن من رقابة الأمويين وسلطانهم.

مبايعة أبي العباس

وهناك فى الكوفة -بعد قليل من وصول آل العباس إليها- تمت مبايعة أبي العباس خليفة للمسلمين، وتوجه "أبو العباس" إلى مسجد الكوفة عقب مبايعته بالخلافة فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة 132هـ/ 750م، وألقى على الملأ خطبة كانت بمثابة الإعلان الرسمى عن قيام الدولة العباسية، ومما جاء فى تلك الخطبة:

وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وماتوفيقنا أهل البيت إلا بالله، فاستعدوا أيها الناس، فأنا السَّفَّاح المبيح والثائر المنيح (يقصد أنه كريم جواد) ".ومن هذه المقولة التصقت به صفة السفاح، فقيل أبو العباس السفاح، مع أنه ما قصد ذلك المعنى الذى شاع على الألسنة.

لقد أعلنها صريحة مدوية فى الآفاق بينما كان "مروان بن محمد" آخر خلفاء بنى أمية يجلس على كرسى الخلافة، فكيف تمت المواجهة بين هؤلاء وأولئك؟ وكيف تحققت الغلبة للعباسيين؟

اللقاء الحاسم بين الاموبيين والعباسيين

يالها من لحظات حاسمة فى تاريخ الأمم والشعوب، إن شمس الأمويين الغاربة تـؤذن بـالزوال، بينما شمس العباسيين فى صعود، وهذه هي الدنيا، فيوم لنا ويوم علينا، والأيام دُوَل.

وكان اللقاء الحاسم بين الأمويين والعباسيين على أحد فروع دجلـة بـالقرب مـن الموصـل وهـو "نهر الزَّاب الأعلى".فجيش العباسيين يقوده عم الخليفة، وهو "عبد اللـه بن على"، بينما يقـود جـيش الأمويين الخليفة نفسه "مروان بن محمد".

كان ذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة 132هـ/ 750م، ولم يجد "مروان" أمام جحافل العباسيين إلا أن يفر إلى "دمشق" مهزومًا أمام مطاردة "عبد اللـه بن على".

لقد راح يُطارده، فاستولى على "دمشق"، واستولى على مدن الشام واحـدة بعـد الأخـرى، وكـان استسلام دمشق العاصمة معناه سقوط دولة بنى أمية، وانتهاء عهدها كعاصمة للدولة الإسلامية، لكـن مروان قد فرّ إلى مصر وتوجه إلى صعيدها، وقرب الفيوم، عند قرية "أبوصير" أُلقِيَ القبضُ عليه، وقُتِـلَ بعدما ظل هاربًا ثمانية أشهر، يفر من مكان إلى مكان.

ومضى عهد، وأقبل عهد جديـد، وسـيظل عـام 132هــ/ 750م فاصـلا بـين عهـدين، وتاريخًـا لا يُنسى.

الفصل الثاني

العصر العباسي الأول: شباب الدولة وصعودها

أصيبت الدولة الأموية بالضعف إثر وفاة عاشر خلفائها هشام بن عبد الملك يوم 10 يناير سنة 743م، الموافق فيه 9 ربيع الأول سنة 125هـ وتعاقب من بعده أربع خلفاء هم الوليد بن يزيد الذي قتلته الأسرة الأموية لانشغاله عن الدولة وأمور السياسة ويزيد بن الوليد وإبراهيم القاسم ومروان بن محمد، وتميزت فتراتهم بانقسام داخلي حاد واستشراء الحروب الداخلية، فضلاً عن الوضع الاقتصادي المتردي ما ساهم في تقوية الجماعات والأحزاب الدينية والحركات السياسية المعارضة لحكمهم والتي كانت منتشرة بشكل أساسي في العراق وإيران، البعيدة عن حاضرة الخلافة في دمشق وأبرز تلك الأحزاب التي عارضت بني أمية الحزب القائل بأحقية سلالة علي بن أبي طالب بالخلافة والحزب القائل بأحقية سلالة عباس بن عبد المطلب عم النبي محمد بالخلافة.

كان الحزب الأول قد أطلق عدة ثورات خلال الحكم الأموي، أدت إلى مقتل العديد من مواليه وقادته، فقتل الحسين بن علي عام 680م وقتل زيد بن علي عام 740م بعد أن ثار في الكوفة. أما الحزب العباسي فقد تطور تطورًا تدريجيًا والتزم الهدوء طوال عهود القوة الأموية واستغل ضعف الاقتصاد لتفجير ثورته؛ فضلاً عن ذلك يرى الباحث عبد العزيز الدوري أن العباسيين قد استغلوا أيضًا التمييز العنصري والطبقي الذي كان يمارسه الأمويون بين العرب وغير العرب في الوظائف والضرائب والجيش، فكونوا بذلك قاعدة شعبية عريضة لدى غير العرب خصوصًا في أوساط فلاحي الريف وعمال المدن الفقراء. وذهب الدردوري وعدد آخر من الباحثين العرب والمستشرقين لاستخلاص قاعدة مفادها بأن الدعوة العباسية كانت «ثورة دينية واجتماعية واقتصادية» ويراها البعض أيضًا «ثورة الفرس ضد العرب».

ويمكن إرجاع نضوج الدعوة العباسية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وابنه إبراهيم الذي سجنه آخر الأمويين مروان بن محمد في مدينة حران إلى أن توفي عام 746م فتولى أخاه أبو العباس شؤون الحركة العباسية بناءً على دعوة أبو مسلم الخراساني؛ وقد قام أبو مسلم بإعلان قيام الدولة العباسية في خرسان وحارب نصر بن سيار الوالي الأموي فيها وانتصر عليه، ثم احتلّ مدينة مرو ومنها انتقل أبو العباس إلى الكوفة في أغسطس سنة 742م بشكل سري، وظل مختفيًا حتى 29 أكتوبر 750م، الموافق فيه 12 ربيع الأول سنة 132هـ حين بايعه أهل الكوفة بالخلافة، لتدخل عملية خلق الدولة العباسية مرحلتها الأخيرة، إذ التقى إثر ذلك الجيش الأموي بقيادة مروان بن محمد وجيش العباسيين بقيادة أبي العباس قرب نهر الزاب شمال العراق بين الموصل وأربيل، وكانت الغلبة للعباسيين، الذي أتموا فتح العراق وانتقلوا منها إلى بلاد الشام فمصر حيث طاردوا فلول الجيش الأموي وقتلوا الخليفة مروان بن محمد في معركة بوصير. وبفتحهم مصر دانت لهم سائر الأمصار التي كانت تابعة للأمويين وتأسست الدولة العباسية، ثالث مراحل تاريخ الخلافة، بعد الراشدية والأموية، وبويع أبو العباس بالخلافة ولقب بالسفّاح لكثرة سفكه الدماء،[8] خصوصًا لدى دخوله دمشق حاضرة الأمويين، إذ نهب بيوت الأسرة الأموية والمقربين منها وأحرق قصورهم ثم نبش قبور خلفائهم، ولم ينج من الأسرة الأموية سوى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي انتقل إلى المغرب ثم دخل الأندلس فاستقلّ بها مؤسسًا حكمًا أمويًا فيها. أما أبو العباس السفاح فقد نقل عاصمة الدولة من حران التي كان مروان بن محمد قد نقل إليها عاصمة الدولة الأموية، إلى الكوفة رغم أنه لم يلبث بها إلا قليلاً حتى انتقل للعيش في الأنبار، وإثر وفاته عام 754 ودفنه في الأنبار أخذت البيعة لأخيه أبي جعفر المنصور والذي كان السفاح قد عينه وليًا للعهد

كانت فترة حكم المنصور توطيدًا لدعائم الدولة الجديدة، فقضى على الثـورات المتلاحقـة التـي هددتها، وقتل أبو مسلم الخراساني مع كونه سبب حصول العباسـيين عـلى الخلافـة خوفًـا مـن امتـداد نفوذه، وقضى على ثورة المدينة المنورة التي بايع أهلها محمد بن عبد اللـه بن الحسن الملقب بالنفس الزكية بالخلافة، وقضى على ثورات شبيهة في البصرة وواسط والأهواز، كما قام بخلـع إبـن أخيـه عيـسى بن موسى من ولاية العهد بعد أن أستغله لسنوات في توطيـد حكمـه والقـضاء عـلى مخالفيـه ويـصفه الباحث عبد القادر عيّاش بالقول بأن أبو جعفر المنصور أعظم رجل من العباسيين شدة وبأسًـا ويقظـة وثباتًا، شحن الثغور والأطراق وأمن السبل وعرف بميله إلى الاقتصاد في النفقـات حتـى امـتلأت خزائنـه تاركًا لابنه المهدي ثروة جعلته ينفق في سعة ومن الأعمال العمرانية الهامة التي ارتبطـت بـه تـشييده مدينة بغداد على نهر دجلة ونقله عاصمة الخلافة إليها، وظل مقيمًا بها إلى أن توفي في 7 أكتـوبر سـنة 775م، الموافق فيه 6 ذي الحجة سنة 158هـ في قصر الخلد الذي أشـاده مقابـل نهـر دجلـة. أمـا عـلى الصعيد الديني فقد توفي خلال عهده الإمام أبو حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفـي لـدى الـسنة، وقد تلى المنصور في الخلافة ابنه محمد المهدي والذي اهتم بالخدمات الداخلية فنظم البريد والطرقات وأصلح الزراعة ونقل عن رفاه الشعب وعدالة القضاء الذي كان يرأسه بنفسه، كـما نقـل عـن المهـدي ورعه وميله للالتزام بالشريعة، والعناية بالفقراء وأصحاب الأمراض والمساجين في جميع أنحـاء الدولـة، ممهدًا بذلك بدء العصر الذهبي لسلالة آل العباس

ويتفق بعض المؤرخين على تقسيم الدولة العباسـية الى عـصرين متميـزين : عـصر عبـاسي أول يعبرون عنه بالعصر الزاهي ، ويمتد من نشأة الدولة عام 132هـ حتى أيام الخليفة الواثق بن المعتـصم سنة 232هـ وبموته انتهى العصر الذهبي للدولة العباسية ، وعصر ثان هو عـصر التـدهور والإنحـلال ، ابتدأ بخلافة المتوكل على اللـه سنة 232هـ وانتهى بسقوط الدولـة العباسـية عـلى أيـدي التتـار سـنة 656هـ .

ويعمد فريق من المؤرخين الى جعل العصور العباسية أربعة تبعا للنفوذ السياسي الذي شهدته بغداد وللأوضاع السياسية التي كانت سائدة :

- العصر العباسي الأول : دام نحوا من قرن ، امتاز بالنفوذ الفارسي ، حكمه سبعة خلفاء، وهو عصر القوة والزهو.
- العصر العباسي الثاني : دام نحوا من قرن ، امتاز بالنفوذ التركي مع الخليفة المعتصم ، وفيه كان بدء الضعف.
- العصر العباسي الثالث : دام نحوا من قرن ، امتاز بالنفوذ البديهي وهو عصر الضعف الفعلي وقيام الدويلات ومنها : الحمدانية في الموصل وحلب ، البويهية في شيراز ، الأخشيدية في الفسطاط بمصر ...الخ.
- 'العصر العباسي الرابع ': دام نحوا من قرنين ، وهو عصر الانحلال الذي انتهى بسقوط بغداد في أيدي المغول سنة 656هـ (1258م) ، كما امتاز بالنفوذ السلجوقي.

وقد أخذ العباسيون باستخدامهم الأعاجم ، بدلا من العصبية العربية التي اعتمدتها الدولة الأموية اعتمادا كليا .. واحتاج العباسيون في اصطناعهم الأعاجم الى المال ، فوقعوا تحت نفوذ الأغنياء كما أصبح الأعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد وغيرهم ، يتسابقون الى الإستئثار بالنفوذ عن طريق المال .

وحكمت الدولة العباسية زهاء خمسة قرون ساست فيها العالم .. وفي ذلك يقول الفخري صاحب الآداب السلطانية : " واعلم أن هذه الدولة من كبريات الدول ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان أخيار الناس وصلحاؤها يطيعونها تدينا ، والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة .. لقد كانت دولة كثيرة المحاسن ، جمة المكارم أسواق العالم فيها قائمة وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمة ، والخيرات فيها دارة ، والدنيا عامرة ، والحرمات مرعية ، والثغور محصنة .. ومازالت على ذلك حتى أواخرها ، فانتشر الجبر واضطرب الأمر ، وانتقلت الدولة."

العصر الذهبي (785 -847)

وفي محمد المهدي عام 785م وأخذت البيعة لابنه موسى الهادي، غير أن حكمه لم يطل إذ توفي مسموماً عام 786 مفسحًا المجال أمام أخيه هارون الذي خلع عليه والده لقب «الرشيد» في أعقاب إحدى الغزوات التي انتصر فيها على البيزنطيين، لاستلام السلطة. اهتم هارون الرشيد بالإصلاحات الداخلية فبنى المساجد الكبيرة والقصور الفخمة وفي عهده استعملت القناديل لأول مرة في إضاءة الطرقات والمساجد، وتطورت العلوم خصوصًا الفيزياء الفلكية والتقنية، وابتكرت عدد من الاختراعات كالساعة المائية. اعتنى الرشيد أيضًا بالزراعة ومأسسة نظامها، فبنت حكومته الجسور والقناطر الكبيرة وحفرت الترع والجداول الموصلة بين الأنهار، وأسس ديوانًا خاصًا للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال الإصلاحية، ومن أعماله أيضًا تشجيع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة طرق التجارة بين المدن، وقد شيّد مدينة الواقفة قرب مدينة الرقة على ضفاف الفرات لتكون مقرًا صيفيًا لحكمه، وقد نقل ابن خلكان أن الرشيد قد حجّ تسع مرّات وكان يصلي في اليوم مائة ركعة راسل الرشيد شارلمان، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وينسب المؤرخون صداقة قامت بين الرجلين وتبادل الهدايا حتى قدّم الخليفة مفتاح القدس لشارلمان. كذلك فقد اهتم هارون الرشيد بالفتوح وتوسيع رقعة الدولة خصوصًا في القوقاز وآسيا الوسطى والأناضول، وقد سجّل عهده عام 782م آخر محاولة عربية لفتح القسطنطينية، التي استمرت عصيّة على الفتح إلى أن استطاع السلطان العثماني محمد الثاني فتحها عام 1453م.

خلال بداية خلافته، اعتمد الرشيد على البرامكة وعهد إلى يحيى البرمكي بالوزارات، مانحًا إياه صلاحيات مطلقة، واستمر الوضع على ما هو عليه حتى عام 805م حين تخوّف الرشيد من امتداد نفوذهم وزيادة أموالهم وميل الناس إليهم، فصادر أموالهم وقتل قادتهم وسجن القسم الأكبر منهم ويختلف المؤرخون في تصنيف

علاقات هارون الرشيد النسائية، فبينما يجزم البعض أنه كان «زير نساء»، يرفض البعض الآخر هذه الفكرة.

توفي هارون الرشيد عام 809م في خراسان وأخذت البيعة لابنه الأمين وفقًا لوصية والده التي نصت أيضًا ان يخلف المأمون أخاه الأمين، إلا أن الخليفة الجديد سريعًا ما خلع أخاه من ولاية العهد وعين ابنه موسى الناطق بالحق وليًا للعهد، وكان المأمون آنذاك في خراسان، فلما أخذ العلم بأن أخاه قد خلعه عن ولاية العهد أخذ البيعة من أهالي خراسان وتوجه بجيش لمحاربة أخيه، وقد استمرت الحروب بينهما أربع سنوات، إلى أن استطاع المأمون محاصرة بغداد والتغلب على الأمين وقتله عام 813م، ظافرًا بالخلافة.

السفير البيزنطي البطريرك يوحنا الرابع القسطنطيني «النحوي» يقف بين إمبراطور الروم «ثيوفيلوس» (يمين) والخليفة العباسي المأمون (يسار) في سنة 829م.

تفرّد عهد المأمون بتشجيع مطلق للعلوم من فلسفة وطب ورياضيات وفلك واهتمام خاص بعلوم اليونان، وقد أسس الخليفة عام 830م جامعة بيت الحكمة في بغداد والتي كانت من كبريات جامعات عصرها، واخترع في عهده الاسطرلاب وعدد من الآلات التقنية الأخرى، وحاول العلماء قياس محيط الأرض ما يدلّ على الاعتراف بكرويتها من ناحية وتطور العلوم من ناحية ثانية؛ وقد تكون عمليات الترجمة التي رعاها هو وحاشيته وولاته، أبرز سمات عهده، إذ نقلت خلالها العلوم والآداب السريانية والفارسية واليونانية إلى العربية اكتسبت من خلاله اللغة العربية مكانة مرموقة إذ تحولت من لغة شعر وأدب فحسب إلى لغة علم وفلسفة. وكذلك فقد ساهمت عمليات الترجمة في إرساء منسوب ثقافي عالٍ في الدولة، وقد أثر الانفتاح الثقافي على المعتقدات الدينية، فقال المأمون بخلق القرآن وأجبر الناس على الحذو في هذه الصيغة،كما أعلن المعتزلة عقيدة الدولة الرسمية، ثم عهد بولاية العهد

قسطًا من الزمن لعلي الرضا الشيعي وأخذ الشعار الأخضر بدلاً من الشعار الأسود، ثم عاد إلى شعار بني العباس الأسود وعيّن أخاه وليًا للعهد. وزار المأمون مصر ودمشق والجزيرة السورية وتوفي ودفن بطرسوس شمال بلاد الشام في 10 أغسطس سنة 833م، الموافق فيه 19 رجب سنة 218هـ وأخذت البيعة لأخيه محمد المعتصم بالله الذي بنى مدينة سامراء وفتح عمورية قرب أنقرة مسقط رأس العائلة الإمبراطورية البيزنطية، واستمرت عمليات الترجمة والنهضة العلمية في عهده كما افتتحها سلفه المأمون، ولعلّ قضاءه على ثورة بابك الخرمي التي أسست دولة شاسعة في أذربيجان وجوارها منذ عهد المأمون أبرز أعماله؛ إذ إن بابك الخرمي قد مزج بين الإسلام والمجوسية وأسس دينًا هجينًا وعمد إلى إصلاحات اقتصادية واجتماعية جذرية ما ساهم في بقائه عصيًا على الدولة العباسية عشرين عامًا، إلى أن استطاع القائد التركي أفشين القضاء عليه، ومن الثورات الأخرى ثورة الزط جنوب العراق وإجلاء المعتصم إياهم إلى الأناضول

كانت والدة المعتصم تركية، لذلك فقد أحاط نفسه بالحرس التركي كما فعل أخوه المأمون مع الفرس، وكان قوام الحرس التركي بداية عهد المعتصم أربعة آلاف رجل، غير أنه استقدم المزيد من قبائلهم عامًا فعامًا ما آثار قلاقل واضطرابات في بغداد اضطر معها الخليفة لنقل عاصمته إلى سامراء، وإثر وفاته عام 842م بويع ابنه الواثق بالله واستمر في سياسة والده القائمة على استيراد القبائل التركية ومنحهم الوظاف العالية في الدولة وجعلهم قوام الجيش فعليًا، وكان الواثق قد خلع على القائد التركي أشناس لقب «السلطان» ما مهد لضعف الدولة وزوال سيطرة الخلفاء عليها، وإثر وفاته عام 847م بويع أخوه أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بالخلافة، والذي يحدد أغلب المؤرخين تاريخ خلافته بدءًا لانحطاط الدولة العباسية.

أبو العباس .. مؤسس الدولة العباسية

هو أول من جلس على عرش الدولة العباسية سنة 131 هـ وفي يوم الجمعة أقام أبـو العبـاس الخطبة على المنبر قائماً، وكان بنو أمية يخطبون قعوداً ، فحياة الناس وقالوا: " أحييت السنة يا ابن عم رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم". وختم خطبته بقوله: "أنا السفاح المبح، والثائر المبيد"، فعرف مـن ثم بالسفاح .. وقد قضى السفاح معظم عهده في محاربة قواد العـرب الـذين نـاصروا الدولـة الأمويـة، وقضى على أعقاب الأمويين، حتى أنه لم يفلت منهم إلا عبد الرحمن الداخل مع نفر من أهله .. كذلك وجه السفاح همته إلى الفتك بمن والوا عبد الرحمن الداخل وساعدوه على تأسيس دولته في الأنـدلس، فقتل أبا سلمة الخلال، وهم بقتل أبي مسلم لولا أن المنية عاجلتـه.. وكـان أبـو العبـاس جمـيلاً وسـيماً كريماً وقوراً سخياً، كثير الجباء .. وقد بقي في الخلافة أربـع سـنوات وتـسعة أشـهر ومـات بالجـدري في مدينة الأنبار التي اتخذها قاعدة لخلافته سنة 131 هـ وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة.

خلفاء العصر العباسي الأول

تولى أبو جعفر المنصور الخلافة (شقيقه) ويعد المنصور المؤسس الحقيقـي للدولـة العباسـية لأنه أحكم الرابطة بين القوة الزمنية والسلطة الدينية .. ومن أهم أعماله بناء بغداد وتحـصين الحـدود بينه وبين الروم .. واتخذ خالد بن برمك وزيراً له ، فبدأت عظمة البرامكة الذين قاموا بأعباء الوزارة في صدر الدولة العباسية، وكانوا من أكبر دعائم التقدم والرقي .. وكان المنصور يشرف على أعـمال الدولـة بنفسه، ويستعرض الجند، ويفتش الحصون، ويراجع الداخل والخارج، ويحاسب عماله حساباً دقيقاً.

ولما أنهكت الأعمال صحته، قصد مكة ليقضي فيها بقية حياته، فمات على بعض سـاعات منهـا، وذلك سنة 151 هـ

تولى المهدي ابنه الخلافة وقد رسخت قدم الدولة وثبتت دعائمها، وسكن الناس إلى حكمها .. وكان المهدي كريماً رحيماً، فعزم على محو كل إساءة اقترفها المنصور، فعفا عن المسجونين السياسيين، ورد إلى بني هاشم ما كان والده قد أخذه منهم، ووسع المدارس وزاد من عددها، كما وسع الحرم النبوي في المدينة المنورة، وأنشأ القصور على الطريق من بغداد إلى مكة، وسعى في توفير الماء على طول هذه الطريق، كذلك رتب البريد بين مكة والمدينة. وكان يعاصر المهدي في غرب أوروبا الإمبراطور شارلمان، فصادقه واستمرت المودة بين الدولتين إلى زمن الرشيد. أما الدولة الرومانية الشرقية فكان العداء مستحكماً بين المهدي وبينها، فقامت الحرب بينهما براً وبحراً، وانتهى الأمر بأن تقدم المهدي وابنه هارون الرشيد إلى البوسفور، فصالحته الملكة "ايريني" على دفع جزية سنوية.

وجاء بعد المهدي ابنه موسى الهادي سنة 169 هـ فلم يعمر أكثر من أربعة عشر شهراً وقد حاول أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد وينقلها إلى ابنه جعفر وبينما هو يسعى لاتمام ذلك عاجلته منيته سنة 170 هـ

الفصل الثالث

خلافة هارون الرشيد

أبو جعفر هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي (149 - 193 هـ) (766 - 806) الخليفة العباسي الخامس، من أشهر الخلفاء العباسيين. حكم بين عامي 170 هـ إلى 191 هـ (786 - 806). ولد في مدينة الري عام149 هـ (766) وتوفي عام 193 هـ (806) في مدينة طوس (مشهد اليوم).وهو أكثر الخلفاء العباسيين ذكرا في المصادر الأجنبية كالحوليات الألمانية على عهد الامبراطور شارلمان التي ذكرته باسم (Aron)، والحوليات الهندية والصينية التي ذكرته باسم (Alun)، أما المصادر العربية فقد أفاضت الكلام عنه حيث صور بالخليفة الورع المتدين الذي تسيل عبراته عند سماع الموعظة والمجاهد الذي أمضى معظم حياته بين حج وغزو، فكان يحج عاما ويغزو عاما، وانه أول خليفة عباسي قاد الغزو بنفسه، وقد نقل ابن خلكان أن الرشيد قد حجّ تسع مرّات وكان يصلي في اليوم مائة ركعة،[1] كذلك كان يصور بصورة الخليفة الحذر الذي يبث عيونه وجواسيسه بين الناس ليعرف أمورهم وأحوالهم، بل كان أحيانا يطوف بنفسه متنكرا في الأسواق والمجالس ليعرف ما يقال فيها، ويعتبر عصره العصر الإسلامي الذهبي.

لقد سار الرشيد في إدارته على نهج قويم، وأعاد إلى الخلافة مجدها الذى كان لها على عهد جده المنصور، وما كان مسرفًا ولا بخيلا، وسمى الناس أيامه "أيام العروس" لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها، وكانت دولته من أحسن الدول وأكثرها وقارًا ورونقًا وأوسعها مملكة، واتسعت الدولة الإسلامية فى عهد الرشيد، وجاءه الخير من كل مكان، وعين الرشيد يحيى بن خالد البرمكى، وجعله كبير وزرائه، وقال له: قد قلدتك أمر الدولة، وأخرجته من عنقى إليك، فاحكم فى ذلك بما ترى من

الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى. وسلَّم إليه خاتم الخلافة.

إدارة حكيمة:

أما الولايات فقد فوضها إلى أمراء جعل لهم الولاية على جميع أهلها، ينظرون فى تدبير الجيوش والأحكام، يعينون القضاة والحكام، ويجْبُون الخراج، ويقبضون الصدقات، ويقلدون العمال فيها، ويحمون الدين، ويقيمون حدوده، ويؤمُّون الناس فى صلاة الجمعة، الصلوات الأخرى أو يستخلفون عليها، فإذا كانت أقاليمهم ثغرًا متاخمًا للعدو تولوا جهاده.

وما قسمت أعمال الدولة منذ انتقالها إلى بنى العباس تقسيمها فى زمن الرشيد، ولذلك كان للخليفة وقت ليحج، ووقت ليغزو، ووقت ليصطاف فى الرقة، ويترك قصر الخلد فى بغداد.

لقد كان الرشيد على أشد ما يكون من الانتباه لكل ما صغر وكبر من شئون الملك، ومن أشد الملوك بحثًا عن أسرار رعيته، وأكثرهم بها عناية، وأحزمهم فيها أمرًا؛ لذلك فما اشتعلت فتنة فى أرجاء دولته إلا أطفأها.

وألغى الرشيد العُشْر الذى كان يؤخذ من الفلاحين والمزارعين بعد النصف، وكان رحمه الله يسدُّ كل خللٍ فى مملكته، ويهتمُّ كل الاهتمام بما يخفف عن الفلاحين. وقد ولّى الرشيد رجلا بعض أعمال الخراج، فدخل عليه يودعه، وعنده يحيى بن خالد البرمكى، وابنه جعفر، فقال الرشيد ليحيى وجعفر: أوصياه. فقال له يحيى: وفِّر وعَمِّر. وقال له جعفر: أنصف وانتصف. فقال له الرشيد: اعدل وأَحْسِن. وكتب الرشيد إلى أحد عماله: أجْرِ أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينا، واعلم أنها مدة تنتهي، وأيام تنقضى، فإما ذكر جميل، وإما خزى طويل. ومما يعد جديدًا فى تعظيم الحكم أن قاضى الرشيد "أبا يوسف" صاحب أبى حنيفة وتلميذه كان أول من

دُعى فى الإسلام قاضى القضاة (وزير العدل الآن)، وكان الرشيد لا يبخل بالمال فى سبيل الدولة، وقد خلف من المال -على كثرة بذله- مالم يخلف أحد مثله منذ كانت الخلافة.

قال ابن الأثير: كان الرشيد يطلب العمل بآثار المنصور إلا فى بذل المال، فإنه لم يُر خليفة قبله كان أعطى منه للمال، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر عنده.

هارون الرشيد هو ابن الخليفة محمد المهدي من زوجته الخيزران بنت عطاء التي كان لها نفوذ كبير في الدولة, ولد هارون في مدينة الري سنة 766 كان والده واليا على المدينة, نشأ في صباه مع أخيه موسى الهادي في بغداد وعاش في قصر الخلافة في رعاية جده عاما قبل أن تنتقل أسرته إلى قصرها الجديد قرب الرصافة في الجانب الشرقي من مدينة بغداد,[3] أشرفت على تربيته أسرة البرامكة الفارسية التي كان لها روابط وثيقة بأسرة الخلافة وعائلة المهدي, وتلقى تعليمه على يد العالم علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي عالم النحو المعروف بالكسائي الذي ظل معه حتى وفاته ثم صار أيضا معلما للأمين ابن الرشيد كما تولى تربيته وتعليمه أيضا المعلم المفضل الضبي الذي صنف للمهدي كتاب "المفضليات" [3] وفي عام 158 هـ توفي أبو جعفر المنصور وأصبح المهدي في منصب الخلافة ودفع بابنه هارون للتدرب على الفروسية والرمي وفنون القتال، وعندما أصبح هارون شابا يافعا عينه والده قائدا في الجيش الذي يضم العديد من القواد الكبار وأمراء الدولة وكان عمر هارون وقتها لا يتجاوز الخمس عشر عاما, وخرج الجيش عام 163 هـ إلى أراضي الروم وتوغل فيها وأظهر هارون براعة في قيادته وحاصر قلعة رومية اسمها "سمالوا" ثمانية وثلاثين يوما حتى انتهى الأمر بفتحها, وعاد الرشيد بالجيش سالما محملا بالغنائم فاستقبله أهل بغداد وكافأه المهدي بتوليته بلاد المغرب وأذربيجان وأرمينية[5]، لكنه اشتهر بشهرة كبيرة بين الأوساط الشعبية وذلك بعد الحملة العسكرية التي قادها ضد الامبرطورة

البيزنطية ايرين ووصل فيها إلى أبواب القسطنطينية, وفي خلال هـذا الوقـت تـزوج هـارون ابنـة عمـه زبيدة بنت جعفر والتي أنجب منها هارون ولده محمد الأمين، أما ابنه الثاني عبد اللـــه المـأمون فقـد ولد من جارية فارسية اسمها مراجل.[4] وعاد هارون مـن تلـك الغـزوة إلى بغـداد وقـد فـرح المهـدي بانتصار ابنه وأطلق عليه لقب الرشيد وأخذ له البيعـة كـولي للعهـد بعـد أخيـه الأكـبر مـوسى الهـادي فأصبح هارون الرشيد ولي العهد الثاني.

توليه الخلافة

بويع الرشيد بالخلافة في (14 ربيع الأول 170 هـ/14 سـبتمبر 786م)، بعـد وفـاة أخيـه مـوسى الهادي، وكانت الدولة العباسية حين آلت خلافتها إليه مترامية الأطراف متباعدة تمتد مـن وسـط آسـيا حتى المحيط الأطلـسي، معرضـة لظهـور الفـتن والثـورات، تحتـاج إلى قيـادة حكيمـة وحاسـمة يفـرض سلطانها الأمن والسلام، وتنهض سياستها بالبلاد، وكان الرشيد أهلاً لهذه المهمة الصعبة في وقـت كانـت فيه وسائل الاتصال صعبة، ومتابعة الأمور شاقة.

بغداد الرشيد

تولية الحكم بتولي الرشيد الحكم بدأ عصر زاهر كان واسطة العقد في تاريخ الدولـة العباسـية التي دامت أكثر من خمسة قرون، ارتقت فيـه العلـوم، وسـمت الفنـون والآداب، وعـمَّ الرخـاء ربـوع الدولة الإسلامية. ولقد أمسك هارون الرشيد بزمام هذه الدولـة وهـو في نحـو الثانيـة والعـشرين مـن عمرهِ، فأخذ بيدها إلى ما أبهر الناس من مجدها وقوتها وأزدهار حضارتها.

أصدر الرشيد عند توليه الخلافة عفوا عاما أمن كـل مـن كـان هاربـا أو مـستخفيا عـدا بعـض الزنادقة.

كما استعمل الرقة عاصمة لهُ بين عامي 799 و800

وأنشأ بما يعرف ببيت الحكمة في بغداد[8] وزودها بأعداد كبيرة من الكتب والمؤلفات من مختلف بقاع الأرض. وكانت تضم غرفًا عديدة تمتد بينها أروقة طويلة، وخُصصت بعضها للكتب، وبعضها للمحاضرات، وبعضها الآخر للناسخين والمترجمين والمجلدين. كما تمت في عهده أول ترجمة إلى العربية لأشهر كتاب علمي عرف في التاريخ وهو "كتاب الأصول (الأركان) في الهندسة والعدد لإقليدس [8]، وتطورت العلوم خصوصًا الفيزياء الفلكية والتقنية، وابتكرت عدد من الاختراعات كالساعة المائية.[1] كما أنشيء في عهده أول مصنع للورق ببغداد سنة 795 م وصار سوق الوراقين لاحقا الذي يضم مئات الحوانيت التي تبيع السلع الورقية الفاخرة مفخرة عاصمة العباسيين وكان ورق بغداد يقدر تقديرا عاليا في المنطقة حتى ان بعض المصادر البيزنطية تسمي الورق بصحف بغداد (Bagdatixon) في ربط مباشر بينه وبين مدينة بغداد

اهتم هارون الرشيد بالإصلاحات الداخلية فبنى المساجد الكبيرة والقصور الفخمة وفي عهده استعملت القناديل لأول مرة في إضاءة الطرقات والمساجد. اعتنى الرشيد أيضًا بالزراعة ومأسسة نظامها، فبنت حكومته الجسور والقناطر الكبيرة وحفرت الترع والجداول الموصلة بين الأنهار، وأسس ديوانًا خاصًا للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال الإصلاحية، ومن أعماله أيضًا تشجيع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة طرق التجارة بين المدن، وقد شيّد مدينة الواقفة قرب مدينة الرقة على ضفاف الفرات لتكون مقرًا صيفيًا لحكمه

وغدت بغداد قبلة طلاب العلم من جميع البلاد، يرحلون إليها حيث كبار الفقهاء والمحدثين والقراء واللغويين، وكانت المساجد الجامعة تحتضن دروسهم وحلقاتهم العلمية التي كان كثير منها أشبه بالمدارس العليا، من حيث غزارة العلم، ودقة التخصص، وحرية الرأى والمناقشة، وثراء الجدل والحوار. كما جذبت المدينة الأطباء والمهندسين وسائر الصناع. وكان الرشيد نفسه يميل إلى أهل الأدب والفقه

والعلم، حتى ذاع صيت الرشيد وطبق الآفاق ذكره، وأرسلت بلاد الهند والصين وأوروبا رسلها إلى بلاطهِ تخطب وده، وتطلب صداقته.

سياسة رشيدة:

وكذلك كان الرشيد حكيمًا فى سياسته كما كان حكيمًا فى إدارته، لقد بويع للرشيد عند موت أخيه الهادى، وكان أبوهما قد عقد لهما بولاية العهد معًا، ويروى أن الهادى قد حدثته نفسه بخلع الرشيد، وجمع الناس على تقليد ابنه العهد بعده، فأجابوه، وأحضر "هرثمة بن أعين"، فقيل له: تبايع يا هرثمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، يمينى مشغولة ببيعتك، ويسارى مشغولة ببيعة أخيك، فبأى يد أبايع؟ فقال الهادى لجماعة الحاضرين: شاهت وجوهكم، والله لقد صدقنى مولاى، وكذبتمونى، ونصحنى فغششتمونى، وسلم إلى الرشيد بحقه فى الولاية بعده. وكانت سياسة الرشيد سياسة رشيدة فى الداخل والخارج، غزا الروم حتى وصل إلى "إسكدار" من ضواحى "القسطنطينية" أيام ولايته العهد، وتغلغل مرة ثانية فى بلادهم وغزاهم فى خلافته بضع غزوات، وأخذ منهم "هرقلية"، وبعث إليه ملكهم بالجزية عن شعبه، واشترط عليه الرشيد ألا يعمر هرقلية، وأن يحمل إليه فى السنة ثلاثمائة ألف دينار.

تصديه للفتن والثورات الداخلية

إخماد ثورات الخوارج

ظهرت طائفة الخوارج أثناء القتال الذي جرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، واستمر خروج هذه الطائفة على خلفاء بني أمية وبني العباس, لكنهم لم يكونوا بالخطورة التي كانوا عليها في العصور السابقة أثناء عصر الرشيد لذلك سهل على الرشيد القضاء على ثوراتهم. كانت أول ثورة قام بها الخوارج قادها الفضل بن سعيد الحروري لكنه قتل بعد فترة وجيزة من خروجه. ثم الصحصح الخارجي

بالجزيرة فتصدى له والي الجزيرة لكنه انهزم أمامه وسار الصحصح إلى الموصل فقاومه عسكر المدينة بباجرمي لكنهم لم يتمكنوا منه وعاد إلى الجزيرة, فأرسل له الرشيد جيشا لحقه بدورين فقتله وقضى على ثورته. و في سنة 178 هـ خرج الوليد بن طريف التغلبي بالجزيرة فدخل إلى أرمينية وحاصر مدينة خلاط عشرين يوما فافتدوا منه أنفسهم بثلاثين ألفا. ثم سار إلى أذربيجان ثم إلى أرض حلوان وأرض السواد ثم عبر إلى غرب دجلة وقصد مدينة بلد وافتدى أهلها منه بمائة ألف, وبقي في أرض الجزيرة فأرسل اليه الرشيد قائده يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني الذي واجه الوليد وانتصر عليه وقضى على ثورته وانتهت الأزمة بمقتل الوليد. و في عام 179 هـ خرج حمزة بن أترك السجستاني وعظم أمره عام 185 هـ عندما عاث فسادا في بادغيس بخراسان فتصدى له عيسى بن علي بن عيسى وقتل الكثير من أعوانه وهرب حمزة إلى كابل. و في سنة 191 هـ خرج ثروان بن سيف في سواد العراق فتصدى له طوق بن مالك أدى إلى فرار ثروان ولم يعد له من أثر يذكر.

إنهاء الفتن الداخلية

ظهرت حركات استقلالية في دولة الخلافة ترغب في الاستقلال وتصدى لها الرشيد وقضى عليها. في سنة 178 هـ قامت طائفة من قيس وقضاعة على والي مصر فقاتلوه فبعث لهم الرشيد هرثمة بن أعين فقاتلهم حتى أذعنوا له الطاعة وأدوا ما عليهم من الخراج, كذلك أخمد هرثمة فتنة قامت في أفريقيا بقيادة عبدويه الأنباري, وكان الفضل فيها يعود ليحيى البرمكي الذي كاتب عبدوية ووعده الأمان ان استجاب له فاستسلم عبدويه ووفى له يحيى بالأمان. و ظهرت بعض الفتن في عام 176 هـ في الشام بين القبائل المضرية واليمانية ودامت المعارك بينهما دهرا طويلا فأرسل الرشيد جيشا أنهى تلك الفتنة عام 177 هـ و في عام 185 هـ خرج أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي واحتل أبيورد وطوس ونيسابور ثم هزم في مرو وخرج اليه علي بن عيسى بن ماهان وواجهه وقضى عليه عام 186 هـ

الرشيد والبرامكة:

لما ولي هارون الرشيد الخلافة عرف ليحيى فضله عليه فاستوزره وزارة تفويض وهي الوزارة التي تستغني عن تواقيع الخليفة على عكس وزارة التنفيذ التي يباشرها الخليفة بنفسه. قام يحيى البرمكي بإدارة شؤون الدولة خير قيام وكان يساعده في ذلك ولَداه الفضل وجعفر، أما الفضل فقد كان إداريا ماهرا وكانت مهارته في اخماد ثورة يحيى بن عبد الله العلوي دون أن يسفك دما كذلك كان كريما سخيا, وقد ولاه الرشيد بلاد المشرق (خراسان وطبرستان وأرمينيا وبلاد ما وراء النهر) قام الفضل هناك بأعمال انشائية عظيمة الشأن من حفر القنوات وبناء المساجد والزوايا فحسنت سيرته في تلك البلاد. أما جعفر البرمكي وهو أصغر سنا من الفضل فقد ولاه الرشيد على الجزيرة والشام ومصر وأفريقية, وكان محبوبا لدى الرشيد فاستبقاه في بغداد كي يكون قريبا منه وهذه الثقة الكبيرة التي أولاها الرشيد لجعفر البرمكي جعلت له نفوذا في الدولة.

أعطى الرشيد البرامكة سلطات واسعة وافسح لهم المجال في الاشراف على جميع مرافق الحياة العامة: في الإدارة والعلوم والفنون

نكبة البرامكة

وعلى الرغم من اهتمام المؤرخين بهذه الحادثة إلا أن أسبابها ودوافعها ظلت غامضة ومجهولة وأشار المؤرخون أمثال الطبري واليعقوبي وأبو الفداء والمسعودي أن سبب غضب الرشيد على البرامكة وسخطه عليهم أمر مختلف فيه، وقد ذكر المؤرخون العديد من الأسباب واختلفوا في تعليلها وأخذوا يرجحون بعضها على بعض.

والأقرب إلى الواقع أن نكبة البرامكة ترجع إلى حد كبير إلى ذلك الصراع الخفي الذي كان قائما بين حزبي العرب والعجم والذي ظل مستمرا بعد ذلك أيام

الأمين والمأمون. في عهد الرشيد يظهر الصراع بين العرب والعجم بوضوح حينما عهد إلى ابنه الأمين بولاية العهد من بعده سنة 175 هـ وذلك تحت تأثير الحزب العربي الممثل في زوجته زبيدة بنت جعفر وحاجبه الفضل بن الربيع، وكان الأمين في الخامسة من عمره مما يدل على أنها كانت لها دلالة خاصة وهي ضمان الخلافة للعصبية العربية، ولم يرض الجانب الفارسي وعلى رأسه البرامكة بهذا الوضع فأخذوا يسعون لدى الرشيد حتى نجحوا في جعله يعهد إلى ولده المأمون بولاية العهد بعد الأمين سنة 182 هـ على أن يتولى المأمون ولاية المشرق بعد وفاة أبيه بمعنى أن خلافة الأمين بعد وفاة والده تصبح على بلاد المشرق خلافة صورية والمعروف أن المأمون كان من أم فارسية ولهذا أيده البرامكة.و في سنة 186 هـ حج الرشيد ومعه ابناؤه الأمين والمأمون وهناك في البيت الحرام (أي الكعبة) أخذ عليهما المواثيق المؤكدة بأن يخلص كل منهما لأخيه وأن يترك الأمين للمأمون كل ما عهد اليه من بلاد المشرق، ثغورها وكورها وجندها وخراجها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشورها وبريدها، وسجل الرشيد هذه المواثيق على شكل مراسيم وعلقها في الكعبة لتزيد في قدسيتها، ويؤكد تنفيذها كما كتب منشورا عاما بهذا المعنى للآفاق. وبذلك ضمن العرب الخلافة للعربي النسب والعجم بزعامة البرامكة ضمنوا الشرق لرجل أخواله عجم.

و لم يقف الأمر عند هذا الحد بل أخذ العرب يوغرون صدر الرشيد ضد البرامكة ويحذرونه من استبدادهم بالأمر وخلعهم له وصار الرشيد يتلقى رقاعا غفلا من التوقيع تصور خطورة الحالة، أدت كثرة الدسائس إلى افزاع الرشيد وجعلته يشعر بأنه صار مغلوبا على أمره وأن البرامكة شاركوه في سلطانه بشكل أخل بتوازن الدولة وسلامتها مما اضطره إلى التخلص منهم، والعباسيون عموما كانوا حساسين من هذه الناحية السياسية ولهذا قتلوا كل من شكوا في اخلاصه.

عاقب الرشيد البرامكة جميعا وزج بهم في السجن وصادر أموالهم ومنع الشعراء من رثائهم وتوفي يحيى والفضل في السجن قبل وفاة الرشيد، أما سائر البرامكة فقد عفا عنهم الأمين بعد ذلك. و هكذا تنتهي نكبة البرامكة بانتصار العرب هذه المرة، وقد تولى الوزارة بعدهم الفضل بن الربيع نصير الحزب العربي كما تولى الرشيد أمور الحكم بنفسه حيث كان يتنقل في أرجاء دولته ويقود الجيوش ضد الثائرين وضد البيزنطيين.

ويقول المؤرخ مصطفى جواد في موقفه من البرامكة : "لعل أغرب ما وهم فيه المؤرخون فعمى عليهم سبب تدمير هارون الرشيد للبرامكة أنهم عدوا بني برمك دعاة للعلويين، والمشكلة التاريخية إذا استبهم جانب منها تشعبت فيها الظنون واختلفت الآراء واضطربت الأحكام. ولو علم المؤرخون أن البرامكة تقربوا إلى الرشيد بالسعي على العلويين والسعي بهم وتبغيضهم لوجدوا إلى سبب تلك الفتكة الهامشية سبيلا، وعلى الجلية دليلا، وعلموا أنهم إنما حق عليهم العذاب ودمرهم الله تدميرا، بل وان السبب الحقيقي وراء قضاء هارون الرشيد عليهم، هو تدبيرهم لقتل موسى بن جعفر ، وولوغهم في دماء بني علي وطلبوا الزلفى بتعذيبهم وأعلوا مراتبهم بخفض العصبية الهاشمية واجتثاث الشجرة النبوية. ولقد جرؤوا بإلحادهم وسوء سيرتهم أن جعفرهم حز رأس حبيسه العلوي عبد الله الشهيد بن الأفطس، في يوم النوروز وأهداه إلى الرشيد في طبق الهدايا، فلما رفعت المكبة من فوق الطبق ورأى الرشيد رأس بن عمه استعظم ذلك ، فقال له جعفر: ما علمت أبلغ في سرورك من حمل راس عدوك وعدو آباءك إليك. وكان الرشيد قد حبسه عند جعفر وأمره بأن يوسع عليه. وقال ذات يوم: اللهم أكفنيه على يد ولي من أوليائي وأوليائك. فلم يجد هذا الشقي الكفاية إلا بقتله صبرا لا سيف يذود به عن نفسه ولا بنو علي حوله يحوطونه ويكلآونه ولا شفيع يرد عنه بؤم الزنادقة، وهو الذي شهد وقيعة "فخ" متقلدا سيفين يذود بهما عن سيده. فلما أسر أخذه الرشيد وحبسه عند جعفر، فضاق صدره

بالحبس، وكتب إلى الرشيد رقعة يشتمه فيها شتما قبيحا فلم يلتفت الرشيد إلى ذلك، لأنه عالم بالعزة العلوية والاستبسال الهاشمي، ولم يأمر إلا بالتوسع عليه والترفيه عنه فكان من أمره مع جعفر البرمكي ما كان" .

الرشيد ولعبة الأمم

الامبراطورية البيزنطية

الأربعة ممالك الكبرى في عام 800 بعد الميلاد : الدولة العباسية وعاصمتها بغداد (أخضر) والدولة الأموية (أخضر فاتح) في الأندلس إمارة قرطبة، والكاروليجية (بنفسجي)، والدولة البيزنطية (بني).

كانت علاقة الرشيد بالإمبراطورية البيزنطية علاقة حرب وعداء كما كانت على عهد أبيه وجده, واصل الرشيد استكمال تحصينات ثغوره المتاخمه للبيزنطيين وأقام منطقة جديدة بين شمال الجزيرة وشمال الشام أطلق عليها اسم منطقة العواصم وجعل قاعدتها مدينة منبج في شمال شرق حلب ورتب فيها جيشا دائما, كذلك اهتم بمنطقة الثغور الشامية التي على الحدود بين آسيا الصغرى وسوريا فعمر فيها طرسوس وأضنة وعين زربه (ناورزا) كما أقام فيها حصونا جديدة مثل حصن الهارونية بين مرعش وعين زربه، اهتم الرشيد بمناطق الثغور وولى عليها ابنه الثالث أبا القاسم الملقب بالمؤتمن, كذلك اهتم الرشيد بتقوية الجيش العباسي حتى صار من أقوى جيوش العالم في ذلك الوقت ثم وجه الحملات المتكررة على المواقع البيزنطية في آسيا الصغرى.كانت شهرة هارون الرشيد قبل الخلافة تعود إلى حروبه العظيمه ضد الروم، فلما ولي الخلافة استمرت الحروب بينهما، وأصبحت تقوم كل عام تقريباً. وأضطرت دولة الروم أمام ضربات الرشيد المتلاحقة إلى طلب الهدنة والمصالحة، فعقدت إيريني ملكة الروم صلحاً مع الرشيد، مقابل دفع الجزية السنوية له في سنة 181 هـ وظلت المعاهدة سارية حتى نقضها إمبراطور الروم نقفور الأول،

الذي خلف إيريني في سنة 186 هـ ، وكتب إلى هارون: "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة إيريني التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ (القلعة في الشطرنج)، وأقامت نفسها مقام البَيْدق (الجندي في الشطرنج)، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وأفتدِ نفسك بما يقع به المبادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك".

فلما قرأ هارون هذه الرسالة غضب غضبًا شديدًا ورد عليها برسالة مماثلة قال فيها : "من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، والجواب ما تراه دون ما تسمعه، والسلام". وخرج هارون الرشيد على رأس جيش كبير بلغ تعداده 135 ألفا سوى الاتباع والمطوعة وتوغل في آسيا الصغرى حتى وصل هرقلة عاصمة كورة بيثينيا فحاصرها واستولى عليها عنوة سنة 806 م وأعقب ذلك توجيه حملات متلاحقة بقيادة كبار قواده أمثال داود بن عيسى وشراحيل بن معن بن زائدة ويزيد بن مخلد, هزمت جيوش البيزنطيين ودمرت حصونهم واضطر الامبراطور نقفور أن يتناسى خطابه ويعترف بهزيمته ويتعهد بدفع الجزية من جديد وفي ذلك يقول الطبري:

"و بعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطانته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه اربعة دنانير وعن رأس ابنه استبراق (هوستوراكيوس) بدينارين كما تعهد بان لا يعيد ترميم الحصون التي دمرها الرشيد". و يبدوا أن الضربات التي وجهها الرشيد إلى الدولة البيزنطية كانت عنيفة وحاسمة بدليل أنها لم تحاول الاستفادة بعد ذلك من الفتنة التي دبت بين الأمين والمأمون في استعادة ما فقدته في عهد الرشيد.

الامبراطورية الرومانية المقدسة

رسم تخيلي لهارون الرشيد وهو يستقبل وفد شارلمان بريشة يوليوس كوركت 1846.

اشتهرت شخصية الرشيد في أوروبا نتيجة لعلاقته الودية مع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة شارلمان (768 - 814 م)، بودلت بينهما السفارات، والبعثات الدبلوماسية المتنوعة كما وردت في الحوليات الملكية الكارولنجية "Carolingian Royal Annales" في المدة التي بين 797 - 806 م، أرسل شارلمان ثلاث سفارات مختلفة إلى البلاط العباسي في بغداد وفي المقابل أرسل الرشيد بعثتان تجاريتان على الأقل إلى أوروبا,[22] ففي عام 801 م وصلت أولى البعثات العباسية إلى بيزا بشمال إيطاليا[23] تبعتها سفارة ثانية إلى آخن بألمانيا ولا شك أن المصالح السياسية كانت وراء هذا التفاهم الودي بين الملكين, فقد أراد شارلمان من وراء هذا الحلف أن يضعف من نفوذ امبراطور الدولة البيزنطية، واستغل الرشيد هذا الحلف ضد أعدائه البيزنطيين والأمويين في الأندلس على السواء.

كانت تلك البعثات المتبادلة بين الملكين مرفقة عادة بالهدايا الوافرة وقد اختار شارلمان المنتجات القيمة من أقمشة ملكية فاخرة وأرسلها مع سفرائه إلى الرشيد, أراد شارلمان توسيع صادرات الأقمشة من فرنسا إلى أراضي الدولة العباسية وبالتالي تعزيز التجارة في مملكته, ورد عليها الرشيد بأن أرسل إلى شارلمان عطورا وأقمشة وفيلا ولوحة شطرنج وساعة مائية, كما عرض عليه الخليفة أن يكون حاميا للأماكن المسيحية المقدسة في بيت المقدس.

ساعة الرشيد وشارلمان

يذكر أن الساعة المائية التي أرسلها الرشيد إلى شارلمان مصنوعة من النحاس الأصفر بارتفاع نحو أربعة أمتار وتتحرك بواسطة قوة مائية وعند تمام كل ساعة يسقط

منها عدد من الكرات المعدنية يتبع بعضها البعض الاخر بحسب عدد الساعات فوق قاعدة نحاسية فتحدث رنينا جميلا في أنحاء القصر الامبرطوري كانت الساعة مصممة بحيث يفتح باب من الأبواب الاثني عشر المؤدية إلى داخل الساعة ويخرج منه فارس يدور حول الساعة ثم يعود إلى المكان الذي خرج منه وعندما تحين الساعة الثانية عشر يخرج اثنا عشر فارسا مرة واحدة يدورون دورة كاملة ثم يعودون من حيث أتوا وتغلق الأبواب خلفهم، أثارت الساعة دهشة الملك وحاشيته, واعتقد الرهبان أن في داخل الساعة شيطان يسكنها ويحركها, وجاؤوا إلى الساعة أثناء الليل، واحضروا معهم فؤوسا وحطموها إلا أنهم لم يجدوا بداخلها شيئا سوى آلاتها، وقد حزن الملك شارلمان حزنا بالغا واستدعى حشدا من العلماء والصناع المهرة لمحاولة إصلاح الساعة واعادة تشغيلها, لكن المحاولة فشلت, فعرض عليه بعض مستشاريه أن يخاطب الخليفة هارون الرشيد ليبعث فريقا عربيا لإصلاحها فقال شارلمان " انني أشعر بخجل شديد أن يعرف ملك بغداد أننا ارتكبنا عارا باسم فرنسا كلها"

غير أن السفارات المتبادلة بين الرشيد وشارلمان قد ذكرت في المصادر الأوروبية فقط, ويرجع بعض المؤرخين الأوروبيين أمثال بارتولد وبروكلمان أن بعض التجار العراقيين الذين ذهبوا إلى مدينة اكس لاشابيل (آخن) قاعدة شارلمان انتحلوا صفة السفراء الناطقين باسم الرشيد لدى شارلمان من غير تفويض, ولهذا لم يرد ذكرهم في المراجع العربية, وكان اعتماد الجانبين في أداء هذه المهام الدبلوماسية على العلماء والفقهاء في أغلب الأحيان.

المغرب والأندلس

أما عن سياسة الرشيد نحو المغرب والأندلس فكانت تقوم على سياسة الاعتراف بالأمر الواقع في تلك البلاد وعدم الخوض في مغامرات غير مأمونة العواقب كما فعل أبوه المهدي وجده المنصور ولهذا اكتفى بمحالفة جارهم القوي

شارلمان, كما أقام في أفريقية دولة مستقلة في نطاق التبعية للخلافة العباسية وهي دولة الأغالبة التي كانت بمثابة ثغر عباسي أو دولة حاجزة لحماية أطرافه الغربية من أخطار الخوارج, والأدارسة، والأمويين فضلا عن البيزنطيين، ولم يلبث إبراهيم بن الأغلب مؤسس هذه الدولة أن شرع في بناء مدينة جديدة على بعد ثلاثة أميال جنوبي القيروان سماها العباسية وجعلها قاعدة لامارته سنة 800 م - 183 هـ

أسرته

تزوج الرشيد زبيدة بنت جعفر وهي ابنة عمه ورغم أن الرشيد قد تزوج أكثر من امرأة إلا أن زبيدة كانت المتربعة على عرش قلبه, ومن زوجاته أيضا أمة العزيز وأم محمد ابنة صالح المسكين بنت عمه سليمان بن أبي جعفر وتزوج أيضا ابنة عبد الله التي تعود بالنسب إلى عثمان بن عفان وتلقب الجرشية لأنها ولدت بجرش باليمن, ومن زوجاته أيضا عزيزة بنت صالح وهي بنت خاله أخو أمه الخيزران. هذا بخلاف الجواري ملك اليمين، حيث كان وجود الجواري والحظايا أمرا معروفا في ذلك الوقت وخاصة عند الملوك والأمراء وكبار القوم.

ولد لهارون الرشيد عشرة أبناء واثنتا عشر بنتا أما الأبناء فهم: محمد الأمين من زوجته زبيدة, وعبد الله المأمون من جارية فارسية اسمها مراجل, والقاسم بن الرشيد وأمه قصف, وأبو إسحاق محمد المعتصم بالله ووالدته تركية اسمها ماردة خاتون, و أحمد السبتي وعلي من زوجته أمة العزيز, وصالح من جارية اسمها رثم ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو العباس ومحمد أبو علي وهؤلاء من أمهات أولاد.

أما بنات الرشيد فهن : سكينة أخت القاسم، وأم حبيبة أخت المعتصم من ماردة خاتون, وأروى وأم الحسن وحمدونة وفاطمة وأمها عفص, وأم سلمة وخديجة وأم القاسم رملة وأم علي وأم الغالية وريطة وكلهن من أمهات أولاد.

اهتمامه بالعلماء والأدباء

جابر بن حيان نال دعم الرشيد وأسس وطلابه منهج التجربة في العلوم كان الرشيد مثقفا ثقافة عربية واسعة وكان يملك أدبا رفيعا وتذوقا للشعر واللغة لذلك قيل: كان فهم الرشيد فهم العلماء. وكانت مجالسه تملأ الشعراء والعلماء والفقهاء والأطباء والموسيقيين, وكان كثيرا ما يناقش العلماء والأدباء, كذلك كان ينقد الشعر والشعراء. كان يقول: " البلاغة التباعد عن الاطالة, والتقرب من معنى البغية, والدلالة بالقليل على المعنى",قال عنه الذهبي: "و كان يحب العلماء, ويعظم حرمات الدين, ويبغض الجدال والكلام, ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه لاسيما اذا وعظ" ويقول الخطيب البغدادي: "و كان يحب الفقه والفقهاء, ويميل إلى العلماء", ومن أشهر الأدباء الذين عاصروا الرشيد وحضروا مجالسه الشاعر الكبير أبو العتاهية وأبو سعيد الأصمعي. ومن علماء الدين الذين عاشوا في عصره الامام الشافعي صاحب المذهب الشافعي والامام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي في الفقه الذي التقى بالرشيد حين قصد الخليفة منزله بالمدينة المنورة وقرأ عليه الامام كتاب الموطأ وعلى الصعيد العلمي دعم الرشيد عالم الكيمياء المشهور جابر بن حيان وأسس وتلامذته منهج التجربة في العلوم.

وكان العلماء يبادلونه التقدير، روي عن الفضيل بن عياض أنه قال: (ما من نفس تموت أشد علي موتا من أمير المؤمنين هارون ولوددت أن اللـه زاد من عمري في عمره)، فقال في ذلك أحد أصحاب الفضيل : (فكبر ذلك علينا فلما مات هارون الرشيد وظهرت الفتن وكان من ذلك في عهد المأمون عندما حمل الناس على القول بخلق القرآن قلنا الشيخ كان أعلم بما تكلم).

خاتمة الرشيد

كان الرشيد رغم كل هذه الأعمال العظيمة التي قام بها يشعر في قرارة نفسه بقلة الحيلة أمام المنافسات والتيارات الخفية في داخل مملكته وأن نكبة البرامكة لم تكن حلا للموقف، فهناك ولداه الأمين والمأمون يضمران النقمة لبعضهما البعض، ومن ورائهما حزبا العرب والعجم ينتظران خاتمة الرشيد ليستأنفا نضالهما من جديد، لذلك كان الرشيد في أواخر أيامه وحيدا حزينا يخفي علته عن الناس، إذ يؤثر عنه أنه كشف عن بطنه لأحد أصدقائه فاذا عليها عصابة من حرير ثم قال له: " هذه علة اكتمها عن الناس كلهم وكل واحد من ولدي علي رقيب وما منهم أحد الا وهو يحصي أنفاسي ويستطيل دهري" و اشتدت العلة بالرشيد وهو في طريقه إلى خراسان للقضاء على ثورة رافع ابن الليث وتوفي بمدينة طوس (مشهد الحالية في شمال شرق إيران) ودفن بها في جمادى الآخر في سنة 193 هـ (809 م)

ولقد ذكر العلامة سالم الآلوسي، ان الرئيس أحمد حسن البكر في بداية حكمه، طالب إيران باسترجاع رفات الخليفة هارون الرشيد، كونه رمز لبغداد في عصرها الذهبي، وذلك بدعوة وحث من الاستاذ عبد الجبار الجومرد الوزير السابق في عهد عبد الكريم قاسم، ولكن إيران امتنعت، وبالمقابل طلبت استرجاع رفات الشيخ عبد القادر الكيلاني، لكونه من مواليد كيلان إيران ،وعندها طلب الرئيس من العلامة المؤرخ مصطفى جواد ،بيان الامر، فاجاب مصطفى جواد : ان المصادر التي تذكر ان الشيخ عبد القادر مواليد كيلان إيران، مصادر تعتمد رواية واحدة وتناقلتها بدون دراسة وتحقيق، اما الأصوب فهو من مواليد قرية تسمى جيلان (العراق) قرب المدائن، ولا صحة في كونه من إيران أو ان جده أسمه جيلان، وهو ما أكده العلامة حسين علي محفوظ في مهرجان جلولاء الذي أقامه اتحاد المؤرخين العرب وكان حاضرا الآلوسي أيضا سنة 1996، وفعلا اخبرت الدولة الإيرانية بذلك ولكن بتدخل من دولة عربية أغلق الموضوع.

ويـرى عـدد مـن المـؤرخين والمستـشرقين ان قـبر هـارون الرشـيد مـا زال موجـودا، ويـسمى بالهارونية في طوس (مشهد) وهو ليس مدفون مع ضريح علي بن موسى الرضا (رض)، ولكن قـبره هـو مايسمى اليوم ضريح ابن سينا

العصر الذهبى:

وكان "نقفور" قد نقض العهد الذى أعطتـه الملكـة "إرينـى"، التـى كانـت تحكـم الـروم قبلـه، وأرسل إلى هارون الرشيد رسالة يهدده فيها: "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العـرب: أمـا بعـد؛ فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرَّخ (طائر خرافى يعرف بالقوة)، وأقامت نفسها مقام البَيْدق (يعنى مقام الضعيف)، فحملت إليك من أموالهـا مـا كنـت حقيقًـا بحمـل أضـعافه إليهـا، لكـن ذلـك لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأتَ كتابى هذا، فاردد ما حصل لك من أموالها، وافتدِ نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك".

فلما قرأ الرشيد الرسالة غضب غضبًا شديدًا حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه، فدعا بدواة وكتب إلى نقفور ملك الروم ردّا على رسالته يقول:

"بسم الـلـه الرحمن الرحيم: من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قـد قـرأت كتابـك يابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام".

وقاد بنفسه جيوشًا جرارة، ولقّنه درسًا لا يُنسى، فعـاد إلى أداء الجزيـة صـاغرًا، بعـد أن خـضع أمام قوة المسلمين وعزة نفوسهم.

وجاء فى فتوح البلدان للبلاذرى: "وقد رأينا من اجتهاد أمـير المـؤمنين هـارون فى الغـزو، ونفـاذ بصيرته فى الجهاد أمرًا عظيمًا، وأقام من الصناعة (الأسطول) مالم يقـم قبلـه، وقـسم الأمـوال فى الثغـور والسواحل، وهزم الروم وقمعهم".وسمى الرشيد "جبار بنى العباس"؛ لأنه أخرج ابنه القاسم للغزو سنة 181هـ فهزم الروم هزيمة منكرة، أدخلـت الرعـب فى قلـوبهم، فـصالحه الـروم عـلى أن يرحـل عـنهم

فى مقابل أن يعيدوا إليه كل من أسروهم من المسلمين قبل ذلك، وكان هذا أول فداء فى الإسلام بين المسلمين والروم.

وأرسل "على بن عيسى بن ماهان" لغزو بلاد الترك، ففعل بهم مثلما فعل القاسم بن الرشيد بالروم، وسبى عشرة آلاف، وأسر ملكيْن منهم. ثم غزا الرشيد نفسه الروم وافتتح هرقلية، وأخذ الجزية من ملك الروم.

وتوطدت الصِّلات بينه وبين "شارلمان" ملك فرنسا وجرمانيا وإيطاليا وتبادلا السفراء، والهدايا.

وفى أيامه، خرج "الوليد بن طريف الحرورى" من رءوس الخوارج سنة 178هـ/ 795م، فَقُتِل بعد أن استفحل أمره.

لقد كان عصر الرشيد وابنه المأمون أرقى عصور بنى العباس قوة وعظمة وثقافة، وهو العصر الذهبى للدولة العباسية.

القضاء على البرامكة:

وقد تحدثت الدنيا عن نكبة "البرامكة" الذين كان منهم وزير الرشيد، وكانت لهم الكلمة العليا فى البلاد على يديه سنة 187هـ/ 803م، بعدما ظهروا ظهورًا غطى أو قارب أن يغطى على سلطة الرشيد ومكانته، وهو الخليفة.

لقد أصبحوا مركزًا من مراكز القوى فى الدولة العباسية، الأمر أمرهم، والكلمة كلمتهم، والأموال فى أيديهم، فما منعهم ذلك لأن يفسد حالهم، ويسوء سلوك أكثرهم، حتى إن الرشيد كان لا يمر ببلد أو إقليم أو مزرعة أو بستان إلا قيل: هذا لجعفر بن يحيى بن خالد البرمكى. كما قلدوه فى إنفاق الأموال والعطايا والمنح. وضاق الرشيد بالبرامكة، وعزم على أن يقضى عليهم، وتكون نكبتهم على يديه، ونودى فى بغداد: لا أمان للبرامكة إلا محمد بن خالد بن برمك وولده؛ لإخلاصهما للخليفة.

وكان منهم الوزراء والقادة وأصحاب الرأى، وكانوا من أصل فارسى، فلما حدث منهم ما حدث، امتنع الرشيد عن الوثوق بهم، واختار وزراءه ومستشاريه من العرب، وجعل الفضل بن الربيع الذى كان أبوه حاجبًا للمنصور والمهدى والهادى وزيرًا له.

وكان الفضل بن الربيع شهمًا خبيرًا بأحوال الملوك وآدابهم، فلما ولى الوزارة جمع إليه أهل العلم والأدب. وما زال الفضل ابن الربيع على وزارته حتى مات الرشيد سنة 193هـ/ 809م.

العامة وهارون الرشيد:

وقبل أن ننتقل بحديثنا عن هارون الرشيد إلى غيره من الخلفاء العباسيين، تبقى كلمة لابد من قولها: فقد ارتبط اسم هارون الرشيد فى أذهان العامة بحكايات ألف ليلة وليلة، باللهو والمجون، وما كانت هذه حقيقة الرجل من قريب أو بعيد، وإنما عمد المستشرقون والمستهترون إلى تشويه صورة الرجل، لكى تبدو صورة الخلافة الإسلامية مشوهة، وأن المسلمين قوم لاهَمَّ لهم إلا إشباع غرائزهم، لا يصلحون لقيادة الأمم وعمارة الأرض.

أما حقيقة هارون الرشيد، الذى أعز الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به أعداء الدين، فهو مسلم حق، وعابد، ومجاهد بنفسه وماله فى سبيل عزة هذا الدين وإعلاء كلمة الله فى أرضه.

كان الرشيد يكثر من صلاة النافلة إلى أن فارق الدنيا، وكان يتصدق وينفق على الحجيج من صلب ماله، وكان يحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء فى الدين، ويسرع الرجوع إلى رحاب الحق إذا ذكر. حدث أنه حبس أبا العتاهية الشاعر، ووكَّل به رجلا يكون قريبًا منه لينظر ما يقول ويصنع، فكتب أبو العتاهية على الحائط:

أما والـلـه إن الظلم لـــؤم وما زال المسيء هو الظلـوم إلى ديان يوم الدين نمضـى وعند الـلـه تجتمع الخصــوم فجاء الرجل فأخبر هارون الرشيد، فبكى الرشـيد، وأطلـق أبـا العتاهيـة واعتـذر إليـه واسترضاه.

وحج ذات مرة، فرآه الناس وقد تعلق بأستار الكعبـة يقـول: "يـا مـن يملـك حـوائج الـسائلين، ويعلم ضمير الصامتين، صلّ على محمد وعلى آل محمد، واغفر لنا ذنوبنا وكفر عنـا سـيئاتنا؛ يـا مـن لا تضره الذنوب، ولا تخفى عليه العيوب، ولا تنقصه مغفرة الخطايا، صلّ عـلى محمـد وعـلى آل محمـد، وخِره لى فى جميع أمورى. يامن خشعت له الأصوات بأنواع اللغات، يسألونه الحاجات، إن من حـاجتى إليك أن تغفر لى ذنوبى إذا توفيتنى، وصُيِّرت فى لحدى، وتفرق عنـى أهـلى وولـوا؛ الـلــهم لـك الحمـد حمدًا يفضل كل حمد، كفضلك على جميع الخلق؛ الـلـهم صلّ على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون له رضا، وصلّ عليه صلاة تكون له ذخرًا، واجزه عنا الجزاء الأوفى. الـلـهم أحينا سعداء، وتوفنـا شـهداء، واجعلنا سعداء مرزوقين، ولا تجعلنا أشقياء مرجومين".

هذا هو هارون الرشيد، الـصورة المـضيئة لخليفـة المـسلمين. والمـسلم المحتـذى بـه فى الأمـور، ويكفيه شرفًا أنه ما مات حيث مات إلا وهو خارج إلى الرى فى موكب الجهاد لنشر الدين وحماية أرض الإسلام، فرحمة الـلـه عليه.

فمن عظماء أمتنا الذين طأطأ الروم رؤوسهم له، وأحنوا هاماتهم رهبـة منـه، ذلكـم هـو الخليفـة المجاهد هارون الرشيد، ذلك الرجل الذي حاول أعداء تاريخنا وأذنابهم أن يـصوروه بـصورة شـارب الخمـر الماجن، صاحب الجواري الحسان والليالي الحمراء، العسوف الظلوم، مع أنه كـان مـن أعظـم خلفاءالدولـة العباسية جهادًا وغزوًا واهتمامًا بالعلم والعلماء، وبالرغم من هذا كله أشاعوا عنه الأكاذيب وأنه لا همَّ لـه

سوى الجواري والخمر والسكر، ونسجوا في ذلك القصص الخرافية والحكايات الواهية.

قال عنه ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان: "كان هارون الرشيد من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي".

نسب هارون الرشيد ومولده

هو أبو جعفر هارون بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي، كان مولده بالري حين كان أبوه أميرًا عليها وعلى خراسان في سنة ثمان وأربعين ومائة، وأمه أم ولد تسمى الخيزران وهي أم الهادي.

وقد اتسم هارون الرشيد منذ صغره بالشجاعة والقوة مما أَهله لقيادة الحملات في عهد أبيه، ولم يتجاوز العشرين بعد.

هارون الرشيد خليفة

تولى هارون الرشيد الخلافة بعهد معقود له بعد الهادي من أبيهما المهدي وذلك في ليلة السبت السادس عشر من ربيع الأول سنة سبعين ومائة بعد الهادي حتى جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين بعد المائة الهجرية، وكان عمره آنذاك 25 سنة.، وكان يكنى بـ أبي موسى فتكنى بأبي جعفر.

العبادة في حياة هارون الرشيد

ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: "وحكى بعض أصحابه أنه كان يصلي في كل يوم مئة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن يعرض له علة، وكان يتصدق في كل يوم من صلب ماله بألف درهم، وكان إذا حج أحج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج في كل سنة ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة".

وقد أحصى المسعودي سنوات حجه بالناس فكانت: 170، 173، 174، 175، 176، 177، 178، 179، 181، 186، 188هـ .

وقال الذهبي في التاريخ: "سنة تسع وسبعين ومئة وفيها اعتمر الرشيد في رمضان ودام على إحرامه إلى أن حج ومشى من بيوته إلى عرفات".

وقال أبو الفدا في المختصر: "ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومئة وفيها حج الرشيد وأحرم من بغداد".

وقال الغزالي في فضائح الباطنية: وقد حُكي عن إبراهيم بن عبد الله الخراساني أنه قال: حججت مع أبي سنة حج الرشيد فإذا نحن بالرشيد وهو واقف حاسرٌ حافٍ على الحصباء، وقد رفع يديه وهو يرتعد ويبكي ويقول: يا رب أنت أنت وأنا أنا، أنا العوّاد إلى الذنب وأنت العوّاد إلى المغفرة، اغفر لي.

الموعظة في حياة هارون الرشيد

قال منصور بن عمار: ما رأيت أغزر دمعا عند الذكر من ثلاثة الفضيل بن عياض والرشيد وآخر.

وروى أن ابن السماك دخل على الرشيد يومًا فاستسقى فأتى بكوز فلما أخذه قال على رسلك يا أمير المؤمنين لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها قال بنصف ملكي قال اشرب هنأك الله تعالى فلما شربها قال أسألك لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشترى خروجها قال بجميع ملكي قال إن ملكا قيمته شربة ماء وبولة لجدير أن لا ينافس فيه فبكى هارون الرشيد بكاء شديدًا.

وقال ابن الجوزي قال الرشيد لشيبان عظني قال لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف فقال الرشيد فسر لي هذا قال من يقول لك أنت مسئول عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول

أنتم أهل بيت مغفور لكم وأنتم قرابة نبيكم صلى اللـه عليه وآله وسلم فبكى الرشـيد حتـى رحمـه من حوله.

هارون الرشيد محب للسنة موقر للعلماء

كان الرشيد يحب العلماء ويعظم حرمات الدين ويبغض الجدال والكلام، وقال القاضي الفاضل في بعض رسائله ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد فإنه رحل بولديه الأمين والمـأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه اللـه.

- ولما بلغه موت عبد اللـه ابن المبارك حزن عليه وجلس للعزاء فعزاه الأكابر.
- قال أبو معاوية الضرير: ما ذكرت النبي صلى اللـه عليه وسـلم بـين يـدي الرشـيد إلا قـال صـلى اللـه على سيدي ورويت له حديثه "وددت أني أقاتل في سبيل اللـه فأقتل ثم أحيى ثـم أقتـل " فبكى حتى انتحب .
- وعن خرزاذ العابد قال حدث أبو معاوية الرشيد بحديث احتج آدم وموسى فقـال رجـل شريـف فأين لقيه فغضب الرشيد وقال النطع والسيف زنديق يطعـن في الحـديث فـما زال أبـو معاويـة يسكنه ويقول بادرة منه يا أمير المؤمنين حتى سكن.
- وأخرج ابن عساكر عن ابن علية قال أخذ هـارون الرشـيد زنـديقا فـأمر بـضرب عنقـه فقـال لـه الزنديق: لم تضرب عنقي قال له أريح العباد منك. قال فأين أنت من ألف حديث وضـعتها عـلى رسول اللـه صلى اللـه عليه وآله وسلم كلها ما فيها حرف نطق به قال فأين أنت يا عدو اللـه من أبي إسحاق الفزارى وعبد اللـه بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفا حرفا.
- وكان العلماء يبادلونه التقدير، روي عن الفضيل بن عياض أنه قال: ما من نفس تموت أشد عـلي موتا من أمير المؤمنين هارون ولوددت أن اللـه زاد من عمـري في عمـره، قـال فكـبر ذلـك علينـا فلما مات هارون وظهرت الفتن وكان من المأمون ما حمل الناس على القـول بخلـق القـرآن قلنـا الشيخ كان أعلم بما تكلم.

محنة البرامكة في عهد هارون الرشيد

لما جاءت الدعوة العباسية إلى خراسان، كان خالد بن برمك من أكبر دعاتها فاستوزره أبو العباس السفاح..فما زال خالد بن برمك يتقلب في المناصب بحسن السيرة وكان ممدوح الولاية حتى مات سنة 163هـ

وكان ابنه يحيى بن خالد بن برمك من أرفع الناس أدبًا وفضلاً ونبلاً، تولى المناصب منذ عام 158هـ وكان محبوبًا وهو الذي ربى هارون الرشيد، الذي بدوره كان لا يناديه إلا بـ (يا أبي)، ويحيى هو الذي مكّن هارون من الخلافة على غير رغبة الهادي.

فلما تولى الرشيد الخلافة أمّر يحيى وزارته فكانت وزارة تفويض وقال له: (قلدتك أمر الرعية وأخرجته من حقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، وأعزل من رأيت..).

في سنة 184هـ بايع الرشيد لابنه عبد اللـه المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى.

لقد كانت هذه الأسرة مقربة إلى الرشيد، تساعده في القيام بمهام الدولة خير قيام.

سماهم المؤرخون (زهرة الدولة العباسية كلها).. قادوا الجيوش، وسدوا الثغور، ودافعوا عن حياض الدولة.

ولكن لماذا أوقع بهم الرشيد، وما الذي غير قلبه عليهم؟!

الحقيقة في هذه المسألة غير أكيدة واختلف فيها المؤرخون، والأرجح أن هذه الأسرة الفاضلة قد بلغت من العز مبلغًا عظيمًا.. وهناك دائمًا الحاقدون وأصحاب القلوب المريضة الذين لا يحبون أن يروا الأمة مجتمعة إلى حين، ويغيظهم أن يصل

غيرهم إلى تلك المنازل بجهد وبذل وتضحية وهم متفرجـون، فيلجئـون إلى الوشـاية والوقيعـة بحيلـة ومكر.. لقد تغير قلب الرشيد تجاههم بفعل فاعل.

ولعل أرجح ما قيل في ذلك مـا ذكـره بعـض المـؤرخين أن سـبب ذلـك قيـام جعفـر بـن يحيـى بتهريب يحي بن عبد اللــه بن الحسن (أخو إدريس)[1]] من سجن الرشيد سرًّا؛ لأنه تعاطف معه لأنه من نسل آل البيت. وقد اتهـم البرامكـة بالتـشيع مـن قبـل بعـض المـؤرخين، وبلـغ الخـبر الفـضل بـن الربيع[2]] من عين كانت له حيث كان يتحين فرصة يؤلب بها الرشيد على البرامكة، فأخبر الرشيد فقـال له الرشيد: (ما لك وهذا لا أم لك، فلعل ذلك عن أمـري). فانكـسر الفـضل، فلـما جـاء جعفـر (حبيـب الرشيد) دعا بالغداء فأكلا وتحادثا إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال الرشيد: ما فعل يحيى بن عبـد اللـه؟

قال جعفر: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس والأكبال.

قال الرشيد: بحياتي؟

فأحجم جعفر وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره.

فقال: لا وحياتك يا سيدي، ولكـن أطلقتـه وعلمـت أنـه لا حيـاة بـه ولا مكـروه عنـده. فقـال الرشيد: نعمّا فعلت ما عدوت ما كان في نفسي فلما خرج اتبعه بـصره ثـم قـال: قتلنـي اللــه بـسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان.

كانت هذه الحادثة سببًا للوشاية بالبرامكة في أخص صـفات الـوزراء وهـي الإخـلاص لملـوكهم، وذلك طعن مؤثر... ووقر في نفس الرشيد شيء مـن ذلـك أن البرامكـة يـؤثرون مـصلحة العلـويين عـلى مصلحته، وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهـدي وانفـرط عقـد الثقـة بـين الخليفـة الرشـيد والبرامكة وهم أحباؤه وخلصاؤه، فتحمست أمامه عيوبهم وجعلته يستريب فيهم لأدنى شبهة.

حتى كانت سنة 187هـ وفيها كان مهلك البرامكة على يدي الرشيد قتل جعفر بـن يحيـى بـن خالد البرمكي بطريقة بشعة، ودمر ديارهم وذهب صغارهم وكبارهم.

ويبدو أن الرشيد قد ندم بعدها؛ فقد كان يقول: لعن اللـه من أغراني بالبرامكة، فما وجدت بعدهم لذة ولا رجاء، وددت واللـه أني شطرت نصف عمري وملكي، وأني تركتهم على حالهم.

بين هارون الرشيد ونقفور كلب الروم

في سنة سبع وثمانين ومائة جاء للرشيد كتاب من ملك الروم نقفور بنقض الهدنة التي كانت عقدت بين المسلمين وبين الملكة ريني ملكة الروم وصورة الكتاب [من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيذق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها، وذلك لضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بيننا وبينك] فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا حتى ما تمكن أحد أن ينظر إلى وجهه فضلاً أن يخاطبه وتفرق جلساؤه من الخوف واستعجم الرأي على الوزير فدعا الرشيد بدواة وكتب على ظهر كتابه بسم اللـه الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه ثم سار ليومه فلم يزل حتى نزل مدينة هرقل وكانت غزوة مشهورة وفتحا مبينا فطلب نقفور الموادعة والتزم بخراج يحمله كل سنة.

وأسند الصولى عن يعقوب بن جعفر قال خرج الرشيد في السنة التي ولى الخلافة فيها حتى غزا أطراف الروم وانصرف في شعبان فحج بالناس آخر السنة وفرق بالحرمين مالا كثيرا وكان رأى النبي صلى اللـه عليه وآله وسلم في النوم فقال له إن هذا الأمر صائر إليك في هذا الشهر فاغز وحج ووسع على أهل الحرمين ففعل هذا كله.

دولة الأدارسة وأثرها على هارون الرشيد

وفي عهده قامت دولة الأدارسة سنة 172هـ بالمغرب ومؤسسها هو: إدريس بن عبد الله بن الحسن الذي فر من وقعة الفخ أيام الهادي فأقام دولته في بلاد المغرب الأقصى، وهي أول دولة للعلويين.. وكان هارون في بداية خلافته يحسن إلى العلويين ولكنه بعد هذه الحادثة خافهم، وعاقب من مال إليهم أشد العقوبات.

وفاة هارون الرشيد

وقد رأى رؤيا فيها موته وصدقها الواقع.. رأى كفًّا به تربة حمراء وقائل يقول: هذه تربة أمير المؤمنين، فلما سار يريدخراسان مَرّ بـ (طوس) فمرض بها، فقال لخادمه: ائتني بشيء من تربة هذه الأرض. فجاءه بتربة حمراء في يده، فلما رآها قال: والله هذه الكف التي رأيت، والتربة التي كانت فيها! فأمر بحفر قبره في حياته، وأن تُقرأ فيه ختمة للقرآن تامة، وحُمِل حتى نظر إلى قبره فجعل يقول: إلى هنا تصير يا ابن آدم! وبكى، ثم قبض بعد ثلاث ليال.

الرخاء في عهد هارون الرشيد

كان هارون الرشيد ينظر إلى السحابة المارة ويقول: (أمطري حيث شئت؛ فسيأتيني خراجك). وقد بلغت إيرادات الدولة العباسية في عهده (70 مليون و150 ألف دينار)، وقد زادت في عصر المأمون عن ذلك بكثير.

نكبة البرامكة

البرامكة

يرجع أصل أسرة البرامكة إلى جدهم الأول برمك المجوسي، وكان من سدنة بيت النار وخدامه الكبار، ولا يذكر له إسلامًا، وترتيب هذه الأسرة كما يلي:

- برمك المجوسي.
- خالد بن برمك وهو من دعاة الدولة العباسية، وتولى الوزارة في عهد السفاح.

- يحيى بن خالد البرمكي وهو أشهر شخصية في الأسرة، ووزير هارون الرشيد وأبوه في الرضاعة.
- الفضل بن يحيى، خليفة أبيه والقائد الكبير.
- جعفر بن يحيى، نديم الرشيد وسبب النكبة.
- موسى بن يحيى، القائد الحربي، أشجعهم على الإطلاق.
- محمد بن يحيى، ليس له كبير ذكر، ولكنه من أسباب النكبة.

فضل البرامكة

لقد كانت أسرة البرامكة غرة على جبين الدولة العباسية، لما كان لهم من المآثر والفضائل والسخاء الشديد، والأعمال العظيمة في الدولة، وخاصة أيام الرشيد؛ فالأب يحيى بن خالد كان المسئول عن تربية الرشيد، وزوجته أرضعت هارون الرشيد، وهو الذي حافظ لهارون على ولاية العهد عندما هم الخليفة الهادي بخلع أخيه الرشيد، وهو الذي قام على أمر وزارة الرشيد أفضل قيام حتى فوض الخليفة الرشيد له كل الأمور، أما ابنه الفضل ـ وكان أكبر أخوته ـ كان أخو الرشيد في الرضاعة والمسئول عن تربية الأمين ابن الرشيد، واستطاع أن يقضي على فتنة يحيى بن عبد الله في بلاد الديلم، وولي خراسان وغيرها، واتخذ من جندها جيشًا كبيرًا تعداده 50 ألف جندي، جعل ولاءهم له مباشرة، وسماهم العباسية..

أما جعفر سبب النكبة فهو نديم الرشيد وخليله في المجالس، وله من الأعمال الكبيرة أيضًا؛ فهو الذي قضى على العصبية القبلية في الشام سنة 180 هـ ثم جعل له ولاية خراسان والشام ومصر، وجعله مسئولاً عن تربية ابنه المأمون. أما موسى الأخ الثالث فكان كل همه القتال والغزو بحكم شجاعته الفائقة، وتولى أمر الشام سنة 186هـ وكانت هذه الشجاعة أحد أسباب نكبتهم؛ حيث غار منه بعض القواد الآخرين وسعوا فيه عند الرشيد.

أما محمد الأخ الرابع فليس له ذكر معلوم في التاريخ، إلا أنه كان بعيد الهمة، ودوره في هذه الفترة يحيطه الغموض.

نكبة البرامكة

اختلف المؤرخون فيما بينهم في السبب الذي دفع الرشيد بالتخلص من الأسرة البرمكية على الرغم من أعمالهم العظيمة، واختلقت روايات كاذبة عن ذلك، أجمع المحققون على بطلانها، أمثال قصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر، ولكن نستطيع أن نلخص من خلال الروايات التاريخية المحققة الأسباب التي أدت بالبرامكة لهذه النهاية الأليمة في الآتي:

أولًا: حادثة يحيى بن عبد الله الطالبي

الذي خرج إلى بلاد الديلم ودعا لنفسه هناك، وبايعه كثير من الناس، وقويت شوكته، وذلك سنة 176 هـ فأرسل إليه الرشيد الفضل بن يحيى، واستطاع الفضل أن يستنزل يحيى بالسلام على أمان له عند الرشيد، وذلك من غير أن تهراق نقطة دم، وعد ذلك من أفضل أعمال الفضل، وبعد فترة ظهر من يحيى ما أوجب عند الرشيد نقض الأمان، فأمر بحبسه عند جعفر بن يحيى، وفي ذات ليلة اجتمع يحيى مع جعفر، وما زال به حتى أطلقه جعفر وزوده بالمال اللازم لخروجه من بغداد، فوصل الخبر للرشيد، وكان ذلك يعد خيانة عظمى عند العباسيين لشدة خوفهم من الطالبيين، فخاف الرشيد من تآمر آل برمك مع الطالبيين من أجل إقصاء العباسيين، فأمر بقتل جعفر وحبس باقي الأسرة.

ثانيًا: الترف الشديد

كان البرامكة يعيشون في ترف شديد جدًا، حتى أنهم كانوا يبنون قصورهم ويضعون على الحوائط بلاط الذهب والفضة، وبنى جعفر بيتًا له كلفه عشرين مليون درهم، وكان الرشيد في سفر ذات يوم، فلم يمر على قصر ولا إقليم ولا قرية إلا قيل له: هذا لجعفر، وعندما عاد الفضل من حربه في الديلم أطلق لمادحيه ثلاثة مليون

درهم. وهذا السرف جعل الرشيد يتابعهم في الدوواوين والكتابات، فأكتشف وجود خلل كبير في مصاريف الدولة.

ثالثًا: الفضل بن الربيع

وكان من موالي العباسيين، وكان شديد العداء للبرامكة، ويقال أنه هو الذي سعى بهم عند الرشيد, وأظهر عيوبهم، وغطى محاسنهم، ووضع عليهم العيون، حتى استطاع أن يرصد حادثة هروب يحيى الطالبي عند جعفر، فأخبر بها الرشيد، وزين له أن البرامكة يريدون الخلافة للطابيين.

رابعًا: أصل البرامكة

حاول بعض المؤرخين الربط بين أصل البرامكة وهم مجوس، وبين ما حدث لهم على يد الرشيد، فيما أنهم حاولوا إظهار الزندقة، وإعادة دين المجوس مرة أخرى، وأنهم أدخلوا النار في الكعبة حتى تعبد هناك، والذي ساعد على ترويج هذه الفكرة مصاحبة جعفر بن يحيى لبعض الزنادقة أمثال أنس بن أبي شيخ الذي قتله هارون الرشيد بيده، ولكن هذا السبب بعيد المأخذ، ولا دليل عليه.

خامسًا: جيش البرامكة

ولعل هذا السبب هو الأوضح والأقوى مع حادثة يحيى الطالبي، وأصل هذا الجيش كما ذكرنا كونه الفضل بن يحيى من جند خراسان وتلك البلاد معروفة تاريخيًا بولائها للعباسيين، ولكن ميلهم أكثر للطالبين وآل البيت]، وتعداده خمسين ألفًا جعل ولاءه له مباشرة دون غيره، ثم استقدم منهم عشرين ألفًا لبغداد وسماهم 'الكرنبية' مما حرك هواجس الرشيد، غير أنه لم يتحرك حتى جاءه خبر من والي خراسان علي بن عيسى بن ماهان أن السبب في اضطراب خراسان هو موسى بن يحيى من بغداد، فتحقق الظن عند الرشيد.

اجتمعت عند هارون الرشيد كل ما سبق من الأسباب، وعندها قرر الرشيد عند رجوعه من الحج، وفي آخر ليلة من المحرم سنة 187 هـ بالإيقاع بالبرامكة، فأمر بقتل جعفر وصلبه على جسر بغداد، وحبس باقي البرامكة في السجون، والاستيلاء على أموالهم وقصورهم وكل ما لديهم، وساموهم في السجن سوء العذاب، وتبدل نعيمهم بؤسًا، وماتوا واحدًا تلو الآخر في السجون.

ولقد ظهر من يحيى بن خالد البرمكي صبر عظيم ورضا بقضاء الله وقدره، ومن عجيب ما يذكر في أسباب هذه الحادثة أن يحيى بن خالد كان يحج ذات مرة، فوقف عند باب الكعبة, ودعا قائلاً: "اللهمَّ إنْ كَانَ يرضيك عني سلب جميع مالي وولدي وأهلي فافعل ذلك وَأَبْقِ عَلَيَّ مِنْهُمُ الْفَضْلَ"، ثُمَّ خَرَجَ، فلمَّا كَانَ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ رَجَعَ فَقَالَ: "اللهمَّ وَالْفَضْلُ مَعَهُمْ فَإِنِّي رَاضٍ بِرِضَاكَ عَنِّي وَلَا تَسْتَثْنِ مِنْهُمْ أَحَدًا" .

والله أعلم بالعاقبة.

خلافة الأمين والمأمون

خلافة محمد الأمين بن هارون الرشيد

تولى محمد الأمين الحكم من جمادى الآخرة 194هـ حتى من محرم 198هـ وعمره 23 عامًا، وعهده كان قاصرًا على حادثة شنيعة فرقت الأمة، وذلك ما كان بينه وبين أخيه المأمون.

أسباب الفتنة

وسبب هذه الأحداث أن هارون الرشيد ولّى عهده أولاً محمد الأمين، والمأمون أسن منه، ولم يكن ما يزيد الأمين إلا أنه ابن زبيدة زوجة الرشيد عالية النسب والحبيبة إلى قلبه.

أراد الرشيد بعد ذلك معالجة هذه الغلطة ففعل ما يزيدها شرًا بتولية المأمون العهد بعد الأمين، ولم يقتصر على مجرد تولية العهد بل أعطاه من الامتيازات ما يجعله مستقلاً تمام الاستقلال بمنطقة خراسان والري عن أخيه الأمين.. فأصبح لكل من الأمين والمأمون جيشًا يتصرف فيه، ولم يقتصر الرشيد على ذلك بل أعطى أخًا لهم ثالثًا امتيازات أخرى وهي الجزيرة وأرمينية فأحس الأمين كأنه مقصوص الجناحين منزوعًا من سلطان أعظم بقاع الإسلام وأكثرها أعوانًا وجندًا.

وزاد الأمر اشتعالاً وجود الفضل بن الربيع الذي جرّأ الرشيد على إفساد ملكه وقتل البرامكة ... فكان في فئة الأمين وهو الذي أغراه بأخيه المأمون ولم يكن الأمين ينوي قتاله إنما فعل الفضل ذلك خوفًا على مصالحه.

لقد وصل الخلاف بين الأخوين إلى الاقتتال، والحقيقة لم يكن للأمين حسن تدبير بل كان مشغولاً باللهو والعبث، وكان عنده ثقة أنه سيقهر أخاه، بينما كان المأمون مشغولاً بتدبير أمره يجمع إلى مجلسه العلماء والفقهاء ويجلس معهم، حتى أُشرِبت قلوبُهم محبته، وباختصار فقد انتهى الأمر بمقتل الأمين على يد أحد قواد المأمون وبايع الناس المأمون.

خلافة المأمون بن هارون الرشيد

لقد تم الأمر للمأمون من محرم 198هـ حتى رجب 218هـ بالعراق على يد قائدين مخلصين عظيمين هما: طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين.

من فتنة واحدة إلى فتن أخرى

وكان الذي يدبر الأمر مع المأمون بمرو الفضل بن سهل والذي يرى لنفسه الفضل الأكبر في تأسيس دولة المأمون، فأراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها، وليس يتم له ذلك والعراق بين يدي طاهر وهرثمة، فاحتال حتى عزل طاهر على لسان المأمون عن العراق وما حولها، وتعيين الحسن بن سهل فاستجاب طاهر، واستصدر أمرًا إلى هرثمة بالحضور إلى خراسان فاستجاب.

استمر المأمون في خراسان إلى منتصف ولايته كما سنرى حتى سنة 204هـ ثم قدم بغداد بعد ذلك.

شاع بالعراق بعد خروج طاهر أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون، وأنزله قصرًا حجبه فيه، وأنه يبرم الأمور على هواه، فغضب لذلك أهل العراق واستخفوا بالحسن بن سهل، وهاجت الفتنة في الأمصار، ولم يجد الحسن بن سهل حوله أحدًا ينصره فأرسل إلى هرثمة بن أعين -الذي كان قد توجه إلى خراسان- يستنجد به فاستجاب هرثمة فقدم بغداد سنة 199هـ في شعبان واستطاع بعد عدة معارك أن يعيد الأمر إلى ما كان عليه في محرم سنة 200هـ.

كانت أغلب الفتن التي حدثت بسبب العلويين؛ فخرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على، وفي مكة كان حسين بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي يشيع العذاب في كل من له علاقة ببني العباس، حتى اتخذ دارًا سماها دار العذاب يعذب فيها الناس، فلما علم أن هرثمة قضى على العلويين بالعراق والكوفة اجتمع حسين وصحبه إلى محمد بن جعفر الصادق وكان شيخًا ورعًا محببًا في الناس مفارقًا لما عليه أكثر أهل بيته من قبح السيرة فأرادوا أن يبايعوه بالخلافة فأجاب بعد تردد وحشر إليه الناس فبايعوه طوعًا وكرهًا وسموه أمير المؤمنين... فأقام على ذلك أشهرًا وليس له من الأمر إلا اسمه، وابنه عليّ وحسين بن حسن أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلاً في الناس حتى تعدوا الأموال إلى الأعراض.

فلما جاء بعث هرثمة استطاع أن يهزمهم، وطلب محمد بن جعفر الأمان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاءوا، فأجيبوا وأمهلوا ثلاثة أيام فلما انتهت دخلت جنود هرثمة مكة، وذهب كل فريق من العلويين في ناحية.

لما فرغ هرثمة من تلك المهمة أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال، وما ينكره الناس عليه، واستبداد الفضل بن سهل على أمره... ولكن الفضل

كاد لهرثمة القائد المخلص، فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد، وكان المأمون قد كتب إلى هرثمة وهو في الطريق إليه أن يرجع ويلي الشام والحجاز فأبى هرثمة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين... فلما اقترب من مرو خشي هرثمة أن يكتم عن المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كي يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا: هرثمة جاء يرعد ويبرق. ولم يكن هرثمة يعلم أن المأمون قد تغير من ناحيته، فلما دخل على المأمون لم يسمع منه كلمة وأمر به فوجئ عنقه وديس بطنه وأخذوه إلى الحبس، ثم دسوا إليه فقتلوه، وقالوا إنه مات.

لما بلغ أهل بغداد ما صنع بهرثمة، هاج الجند بها وثاروا على الحسن بن سهل واستخفوا بأمر المأمون واختاروامنصور بن المهدي أميرًا عليهم، ولأن بغداد كانت خالية من جيش قوي يأخذ على أيدي المفسدين، فانتشر الفساد الشديد على يد فساق الجند والشطَّار، وأظهروا الفسق وقطعوا الطريق وأخذوا النساء والغلمان علانية وأخذوا يفرضون الإتاوات قهرًا.. ولا أحد يمنعهم!

رأى الناس شدة هذا البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم فقام صُلَحاء كل منطقة فمشى بعضهم إلى بعض، واتفقوا على قمع هؤلاء الفساق، فقام رجل اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل محلته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأجابوه إلى ذلك، وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون، فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم، وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم إلى السلطان، وكان لا يرى من حقه الاعتداء على السلطان، وقام آخر اسمه سلامة بن سلامة الأنصاري ففعل مثله..

كل ذلك والمأمون في مرو لا يصل إليه شيء من أخبار بغداد بفعل الفضل بن سهل، ومن عجيب ما فعله المأمون في تلك الآونة أنه اختار لولاية عهده واحدًا من آل بيت على، هو على بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا من آل محمد، وأمر الجند بطرح السواد شعار العباسيين، ولبس ثياب الخضرة كشعار جديد للدولة، ويبدو

أن ذلك من تدبير الفضل بن سهل (فارسي الأصل) لأن الفرس يعجبهم أن يكون إمـام المـسلمين علويًـا.. وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه من تفضيل على على غيره من الخلفاء الراشدين، وأنه كـان أحق بالخلافة منهم.... وهي فكرة اختمرت في رأسه نتيجة نشأته فقد كان في أول أمره في حجر جعفـر البرمكي (1) ثم انتقل إلى الفضل بن سهل، وكلهم ممن تشيع.

لم يرض ذلك آل العباس ببغداد فاتفقوا عـلى مبايعـة إبـراهيم المهـدي عـم المـأمون بالخلافـة، وذلك سنة 202هـ

وأخيرًا وصلت الأخبار على حقيقتها إلى المأمون، ويقال إن الذي أبلغه بها ولي عهده على الرضا، فإنه أخبره بما فيه الناس من الفتنة منذ قتل أخوه، وأن الفضل بن سهل يستر عنه الأخبـار ومـا كـادوه من قتل هرثمة وغيره.

لما تحقق المأمون أن الفضل قد كذَبه وغشَّه أمر بالرحيل إلى بغداد وقُتِل الفـضل بـن سـهل في الطريق..ثم قُتِل على الرضا!!ولما وصل المأمون إلى النهروان، خرج إليه أهل بيته والقواد فـسلموا عليـه ووافاه طاهر بن الحسين القائد المعزول.

استقرار الأمور

وفي صفر سنة 204هـ دخل المأمون مدينة بغداد وقد فرَّ عمه واختبـأ؛ خوفًـا منـه ولكنـه عفـا عنه، ونستطيع القول إن الملك الحقيقي للمأمون بدأ منذ عودته إلى بغداد... فقد تجلت مزاياه العالية وأخلاقه، وساس الناس سياسة لين لا يشوبه ضعف، وقـوة لا يـشوبها عنـف، وأخـذت بغـداد تـستعيد نضرتها التي كانت لها في عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية كما سنرى إن شاء الـلـه.

وزراء المأمون في بغداد

عيّن المأمون وزيرًا جديدًا له هو: أحمد بن أبي خالـد، وأصـله شـامي فكـان مـن خيـار الـوزراء وأخلصهم للمأمون.

ذكر المأمون يومًا عمرو بن مَسْعَدة فاستبطأه وقال: يظن أني لا أعرف أخباره وما يحبب إليه وما يعامل به الناس.

وكان أحمد حاضرًا هذا المجلس فذهب إلى عمرو وأخبره بما قاله عنه الخليفة.

فأسرع عمرو إلى المأمون، فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين، أنا أقلّ من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد، أو يُسِرَّ لي ضغنًا، يبعثه بعض الكلام على ظهاره ما يظهر منه، فقال المأمون: وما ذاك؟ فأخبره عمرو بما بلغه ولم يُسَمِّ له المخبر، فقال له المأمون: ليس لك عندي إلا ما تحب، فليفرج روعك، وليحسن ظنك.. وظهر في وجه المأمون الحياء والخجل، فلما غدا أحمد (الوزير) على المأمون قال له: أما لمجلسي حرمة؟! (ولم يكن المأمون يظن أن وزيره أحمد هو الذي بلَّغ عمرًا)، فقال أحمد: نعم، فأخبره المأمون أن بعض من حضر من بني هاشم هو الذي أفشى ما قاله، فقال أحمد: أنا يا أمير المؤمنين الذي أخبرت عَمْرًا، وليس أحد من بني هاشم، والذي حملني على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة، وأن تتم نعمتك على أوليائك وخدمك، أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء والبُعَداء، فكيف الأولياء والأقرباء، لا سيما مثل عمرو، في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل، فلما سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئًا، أخبرته به ليصلحه ويقوِّم من نفسه.. وإنما يكون ما فعلت مذمومًا لو أشعت سرًّا فيه قدح في السلطان أو نقص تدبير قد استتب..

فنظر إليه المأمون مليًّا وقال: كيف قلت، فأعاد عليه ما قال، ثم قال أعد فأعاد فقال المأمون: أحسنت، لما أخبرتني به أحب إلى من ألف ألف وألف ألف وألف ألف وعقده خنصره وبنصره والوسطى وقال: أما ألف ألف فلنفيك عني سوء الظن، وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فلصدقك إياي من نفسك، وأطلق البنصر، وأما ألف ألف فلحسن جوابك وأطلق الخنصر.ومات أحمد بن أبي خالد سنة 211هـ

وكان من بعده أحمد بن يوسف وكان مخلصًا ولكن كان هناك من يحسده فلم يزل يكيد له حتى أقصاه المأمون.. ثم استوزر المأمون بعده القاضي يحيى بن

أكثم وكان من جُلَّة العلماء الفقهاء، وكان قد تولى قضاء البصرة وسنه عشرون سنة، ثم عزله المأمون سنة 215هـ

فائدة

أراد المأمون أن يعلن يومًا حل زواج المتعة وهو شيء نهى عنه عمر بن الخطاب، فدخل عليه يحيى وهو متغير، فسأله المأمون عن سبب تغيره، فقال: غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام من نداء بتحليل الزنا. قال: الزنا.

قال: نعم، المتعة زنا، قال: من أين؟ قال: من كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [المؤمنون: 5-7]. يا أمير المؤمنين، زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا. قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولد لها شرائطها؟ قال: لا.

قال: فقد صار من يتجاوز هذين من العادين، وهذا الزهري، يا أمير المؤمنين، روى عن عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما على بن أبي طالب قال: "أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها". فسأل المأمون عن حديث الزهري أهو محفوظ، فعلم أنه رواه مالك، فقال المأمون: أستغفر الله. وأمر فنودي بتحريم المتعة.

ثم كان من بعد يحيى بن أكثم وزراء، ولكن في الحقيقة أنه بعد تجربة الرشيد مع البرامكة وتجربة المأمون الأولى من الاعتماد على الوزراء، لم يعط المأمون لوزرائه صلاحيات كبيرة، بل كان يتابع الأمور بنفسه كما كان يدقق في اختيار وزرائه.

الخرميّة

وفي سنة 201هـ ظهرت فرقة باطنية اسمها الخرَّمية(3) يدينون بما يريدون ويشتهون، وإنما لقبوا بذلك لإباحتهم المحرمات من الخمر وسائر الملذات ونكاح

ذوات المحارم، وداعيها بابك الخرمي كان يخيف السبل ويعيث في الأرض فسادًا وقد انتصر بابك على جيوش المأمون في بعض المواقع، حتى أرسل إليه المأمون عام 218هـ إسحاق بن إبراهيم، غير أن المأمون قد توفي، ولم يعلم بالنصر الذي أحرزه على الخرمية، إلا أن أمرهم بقي قويًا حتى قُضي على فرقته سنة 223هـ في عهد المعتصم.

الاهتمام بالعلم في زمن المأمون

نشأ علم الكلام في زمنه وترعرع، وعلم الكلام علم يبحث في أصول الدين والعقائد ويعتمد على العقل، وظهرت المعتزلة وشيخهم إبراهيم بن سيار (النظام)(4).

ونتيجة لذلك ظهر خلاف بين أهل السنة والجماعة الذين يعتمدون في علوم العقائد على النقل، وبين المعتزلة الذين يقدمون العقل على النقل ومنها المسألة المشهورة: هل القرآن كلام الله القديم أم هو مخلوق؟

وهي مسألة على بساطتها لكنها سبب في ابتلاء كثير من العلماء على يد المأمون، ومن بعده على يد المعتصم، لاعتناقهما المذهب الذي يقول: إن القرآن مخلوق خلافًا لأهل السنة والجماعة..

كان أصحاب المذاهب المخالفة لما عليه عامة الناس لا يستطيعون أن يظهروا آراءهم خوفًا من العامة، فلما جاء المأمون أفسح المجال للمتخالفين أن يتناظروا، فكان يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث، ويجعل لهم مجالس مناظرة، وكان يهدف إلى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأي فيما يعرض لهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأي، وتتفق كلمة الأمة خاصة فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الإمامة.

ويُروى أنه تناظر في حضرته اثنان من أهل التشيع، أحدهما من الإمامية والآخر من الزيدية، وجرى الكلام بينهما إلى أن قال أحدهما للآخر: يا

نبطي ما أنت والكلام، فقال المأمون: الشتم عمى والبذاءة لؤم، إنا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات، فمن قال بالحق حمدناه، ومن جهل ذلك وقفناه، فاجعلا بينكما أصلاً، فان الكلام فروع فإذا افترعتم شيئًا رجعتم إلى الأصول..

وهذه القصة توضح لنا أن المأمون أباح المناظرات بحرية مطلقة فهذان الرجلان من أهل التشيع، كلاهما على مذهب إن صح أحدهما فهو كفيل أن يذهب بملك آل العباس، ومع ذلك ترك حرية القول.

إيجابيات وسلبيات هذه الحرية في الحوار والتناظر بين العلماء بشتى مذاهبهم:

1. كان من إيجابيتها ثراء العلوم الدينية من خلال الحوار والمناظرة خاصة في الجانب الفقهي الذي يتعلق بالأحكام العملية، فكانت ثروة للأمة.
2. نشوء علم الكلام في حد ذاته لإثبات العقائد بالعقل والمنطق كان مناسبًا لمخاطبة الداخلين في الإسلام من الفرس، الذين يتحاجون بهذه الطرق، فمخاطبتهم بطريقتهم شيء مؤثر لاشك في ذلك.
3. ولكن اعتماد العقل وحده في إثبات العقائد يؤدي إلى انحراف، لأن العقل محدود والعقائد تتعرض للغيبيات، والحجة فيها للنص الصحيح من القرآن أو السنة.. فحدث انحراف في مسائل كثيرة تمذهب بها فرق وأدت إلى تفرق بعض أجزاء الأمة.
4. من هذه المسائل القول بخلق القرآن، ومن طول المناظرات اقتنع المأمون تمامًا بالقول بخلق القرآن مخالفًا بذلك جمهور علماء أهل السنة والجماعة، وكان يظن أنه حين يظهر رأيه للعلماء أنهم سيجيبونه إلى رضاهم بمذهبه، ولكن النتيجة كانت عكس ذلك، فتكلموا فيه واتهموه بالابتداع وغلا بعضهم في ذلك فقال بكفر من رأى خلق القرآن، وكان ذلك سنة 212هـ

وما زال الخلاف يتسع حتى كانت سنة 218هـ فرأى المأمون أن يستعين بسلطانه في إلزام الفقهاء برأيه، وهو غير محق في ذلك، وكان في هذه السنة غازيًا في بلاد الروم، فبعث إلى عامله في بغداد إسحاق بن إبراهيم أن يجمع الفقهاء، ويمتحنهم في آرائهم في هذه المسألة، فجمع إسحاق نحو ثلاثين رجلاً من العلماء فكان مما دار بينه وبينهم: قال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟ قال: أقول القرآن كلام الله.

قال: أسألك عن هذا أمخلوق هو؟ قال: الله خالق كل شيء. قال: أما القرآن شيء؟ قال: هو شيء، قال: فمخلوق هو؟ قال: ليس بخالق، قال: ليس أسألك عن هذا أمخلوق هو؟ قال: ما أحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندي غير ما قلت، فبعث إسحاق بإجابات العلماء عالمًا عالمًا فاغتاظ المأمون منها، فأمره أن يأخذهم بالتهديد ففعل إسحاق فأجابوه جميعًا أن القرآن مخلوق، إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح.

يروي ابن كثير" :لما انتهت النوبة إلى امتحان أحمد بن حنبل قال له إسحاق: أتقول إن القرآن مخلوق؟ فقال: القرآن كلام الله لا أزيد على هذا" إلى أن قال: "وكان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعة مكرهًا لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه، وإن كان له رزق من بيت المال قُطع، وإن كان شيخ حديث روع عن الإسماع والأداء، ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء وداهية دهياء فلا حول ولا قوة إلا بالله". فوجه بهما إسحاق إلى طرسوس حيث يغزو المأمون الروم.

وإن من مفاخر التاريخ أن جميع الذين تهاونوا مع المأمون في مسألة خلق القرآن، أهمل المحدثون أمرهم وأنزلوا رتبهم وعدُّوا ذلك عيبًا من عيوبهم، لأن العالم الذي لا يتحمل الأذى أو الجود بالنفس في سبيل اعتقاده لا يُعَدُّ عالمًا.. ومن ثم رأينا الذين ثبتوا في المحنة مثل الإمام أحمد بن حنبل نالوا من التكريم والعناية والفضل ما لا مزيد عليه وزادته المحنة تشريفًا وذكرًا في التاريخ.

5- كان للمأمون وجهة نظر تبدو صائبة(5) في تعليله محاولة توحيد القوم على رأي واحد فيما اختلف فيه من المسائل، وقد كبر الخلاف في مسألة من أهون المسائل وأيسرها حلاً، ولكنه كـان يقـول: "إن أصغر المسائل متى كان أساسًا لنحلة أو سببًا لرياسة، فإن الخلاف يعظم بسببه، أما أعـضل الأمـور فإن الخلاف الشديد لا يجد إليه سبيلاً إذا لم يكن أساسًا لنحلة، أو سببًا لرياسة".

كان يمكن للمأمون أن يكون من خيار الخلفاء، لولا هذه السقطة، وقوله بأفضلية عـلى بـن أبي طالب رضي الـلـه عنه على سائر الخلفاء الراشدين رضي الـلـه عنهم، قال عنه ابن كثير بعد ذكر فـضله وحسن سيرته: وقد كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسُّنَّة الصحيحة.

الفصل الرابع

العصر العباسي الثاني

عصر الحرس التركي

لم يستطع العباسيون الحفاظ على وحدة الدولة كما فعل أسلافهم الأمويين، فاستقلّ عبد الرحمن الداخل بالأندلس منذ قيام الدولة، وفي خلافة موسى الهادي استطاع إدريس بن عبد الله بن الحسن الفرار من مذبحة لحقت بأسرته وأنصارها في المدينة المنورة إثر مطالبة والده بالخلافة، واتجه إلى المغرب حيث أسس الدولة الإدريسية المستقلة وعاصمتها فاس، وفي عهد المأمون تولى إبراهيم بن الأغلب ولاية إفريقية التي تشمل ليبيا وتونس وشمال الجزائر، وبقي حكم هذه الولاية محصورًا في ذريته حتى ظهور الدولة الفاطمية، ولم يحفظ بنو الأغلب للخلفاء العباسيين سوى الخطبة وسك اسم الخليفة على النقد، وبذلك فإن الدولة العباسية منذ عهود قوتها لم تحفظ وحدة أراضيها الإدارية، وهو الأمر الذي سيكرس رسميًا وفي كل جهات الدولة خلال عصور التراجع والانحطاط.

أبرز أوجه عصور الانحطاط، سوى استقلال الولاة والسلاطين في شؤون ولايتهم بل وتأسيسهم دول مستقلة تمامًا في بعضها، كان تدخل الجيش في تعيين الخلفاء. توفي أول السلاطين الأتراك أشناس عام 844م وخلفه وصيف التركي، وعندما توفي الواثق عام 847م ما كانت مبايعة المتوكل على الله لتتم لولا رغبة السلطان وصيف، في وقت كانت الأسرة العباسية والمقربين منها، تميل لمبايعة محمد بن الواثق بالخلافة.

ضريح الحسين بن علي في كربلاء، ويسميه الشيعة «العتبة الحسينية المقدسة»، كان قد تعرض للهدم خلال خلافة المتوكل على الله عام 850م.

حاول المتوكل على اللـه الثورة على واقعه، فقتل عددًا من قواد الجيش كابن الزيات وإيناخ، ونقل عاصمة الدولة إلى دمشق عام 858م إلا أنه اضطر العودة إلى سامراء بعد شهرين فقط بضغط الأتراك، وقام أيضًا بتحويل المذهب الرسمي من المذهب المعتزلي إلى المذهب السني الشافعي، ما مثّل نقلة كبيرة لدى الدولة العباسية التي طرأت عليها عدة مراحل من التطورات الدينية، إذ بدأت مع تقارب مع الشيعة وسرعان ما انقلبت عليهم، واعتمدت الاعتزال كعقيدة الدولة منذ عهد المأمون. وكان المتوكل على اللـه قد أمر عام 850م بهدم ضريح الحسين بن علي في كربلاء وضريح علي بن أبي طالب في النجف ومنع الناس من زيارتهما،كما أمر بهدم جميع الكنائس في العراق ومناطق أخرى وكذلك الكنس اليهودية مع وضع شارات معينة على لباس المسيحيين واليهود ومنعهم من ركوب الخيل، وعلى الرغم من دعواته المتلاحقة للعمل بالشريعة الإسلامية إلا أن ما أقدم عليه يتنافى مع قواعدها، حيث كفل نظام أهل الذمة الإسلامي حقوقًا وكرامة أوسع لليهود والمسيحيين.

أخيرًا اتفق بعض الجند الأتراك مع ابنه المنتصر باللـه على قتله في مجلس شرابه يوم 10 ديسمبر سنة 861م، الموافق فيه 3 شوّال سنة 247هـ غير أن خلافة المنتصر باللـه لم تطل إذ سرعان ما قضى عليه الأتراك بالسم في مايو 862م، وبويع أبو العباس أحمد المستعين باللـه ابن المعتصم باللـه بالخلافة،[28] لأن رجال السلطان لم يرد أن يبايع أحد أولاد المتوكل خليفة.

عهد الفتن والحروب الداخلية (862 - 1055)

شهدت خلافة المستعين باللـه قيام الدولة الطاهرية في خراسان، والطاهرية هي: الطاهريون سلالة عربية من قبيلة خزاعة تولت إمرة ولاية خراسان وشرق تركستان أثناء الخلافة العباسية ما بين 205-259 هـ

المقر:نيسابور.

سنة 205 هـ قام الخليفة العباسي المأمون بتعيين قائده طاهر بن الحسين الفارسية (205-208هـ) واليا على خراسان. كان المأمون قد فضله على أخيه (سنة

195هـ) وأخذ له البيعة بولاية العهد قبل ذلك. مع توليه استقل الطاهر بأمر الحكم مع بقائه اسميا تحت سلطة العباسيين. كان أبناؤه لا يزلوا في خدمة الخلافة في بغداد. أصبحت الدولة الطاهرية أكثر استقلالية مع تولى أبناء الطاهر، طلحة (208-213هـ) ثم عبد الله (213-230هـ) جعل هؤلاء من نيسابور مركزا للثقافة والآداب والعلوم العربية. وقادوا لصالح الخليفة العباسي حملات عسكرية في مصر (الاستيلاء على الإسكندرية:212هـ). منذ 253هـ أخذ الطاهريون يفقدون السيطرة على مناطقهم لصالح الصفاريين. والذين استطاعوا أخيرا سنة 259هـ أن ينهوا حكمهم.

زغ نجم الطاهريين في عهد الخليفة العباسي المأمون، إذ وقف طاهر بن الحسين بجانب المأمون في صراعه مع الأمين وهزم جيوشه في خراسان وبغداد حتى قُتِل الأمين على يديه عام 814م، فعهد إليه المأمون بولاية خراسان وبلاد ما وراء النهر، مسقط رأسه، ولاحقاً أسند إليه مهام الشرطة في بغداد.

خلف طاهر بعد وفاته ابنه طلحة وقد استمر في تحالفه مع المأمون، وكان ابن طاهر الثاني عبد الله قد عُهد إليه من قِبَل الخليفة بولاية مصر والجزيرة العربية، حتى توفي طلحة عام 828م وخلفه عبد الله.

كما استقلت طبرستان تحت حكم الحسن بن زيد الملقب بـ«الداعي إلى الحق»، وحصرت وظيفة السلطان بعائلة بغا التركي، ما مهد لظهور الفتن بين الأتراك أنفسهم، فحاصر المتمردون قصر الخليفة في سامراء فهرب إلى بغداد، عندها بايع الجند الثوّار المعتز بالله خليفة، فأرسل جيشًا بخمسين ألف مقاتل إلى بغداد، التي قام أهلها بخلع المستعين ومبايعة المعتز، حقنًا للدماء، بل أن المستعين نفسه بايع المعتز، إلا أن الخليفة الجديد قتل سلفه.

فارس صفاري، أحد الدول التي نشأت في كنف الدولة العباسية، بلباسه الكامل.

وفي خلافة المعتز بالـلـه قامت الدولة الطولونية في مصر، والتي لم تترك للخليفة سوى الخطبة والسكة، واستولى يعقوب الصفار على بلاد فارس، ما دفع المؤرخ محمد فريد بك للقول بأن أملاك الخلافة العباسية لا تزيد عن ربع ما كانت قبلاً لدولة بني أمية. ورغم مسالمة المعتز للأتراك وتعيين من شاؤوا في مناصب الدولة العليا، إلا أنهم قد خلعوه عام 870م لتردي الوضع الاقتصادي ونضوب خزينة الدولة، وبايعوا المهتدي بالـلـه بن الواثق بالخلافة، وقد مات المعتز في سجنه من العطش والجوع.

قلعة حلب، مركز حكم الحمدانيين.

صحن مزخرف يعود للدولة البويهية: على الرغم من انشغال البويهيين بالحروب الداخلية، إلا أنهم تركوا آثارًا تدل على عنايتهم بالفنون.

خزان مياه صناعي في القيروان من عهد الدولة الأغلبية.

قبر البخاري، أحد أشهر من جمع الحديث النبوي في أوزباكستان، كانت وفاته في خلافة المعتمد على الـلـه.

حاول الخليفة الجديد كسر شوكة الأتراك، فقتل قائدهم بايكال بعد أشهر من توليه الخلافة، فقتله الأتراك ولم يمض على خلافته عام واحد بعد؛ وبويع المعتمد على الـلـه بن المتوكل على الـلـه خليفة، وفي عهده ثار الزنوج في البصرة وواسط وعاثوا فسادًا في بغداد نفسها، احتجاجًا على سوء الأوضاع الاقتصادية والمعاملة الاجتماعية الدونية، كما أكمل الطولونيون استقلالهم بمصر مانعين السيادة الاسمية للخليفة المتمثلة بذكر اسمه في الخطبة، وقد استطاع الطولونيون السيطرة على أغلب بلاد الشام فلم يبق للعباسيين سوى العراق. ويعود لخلافة المعتمد وفاة الإمامين بخاري ومسلم الذين اشتهرا بجمع الأحاديث النبوية، وظهور طائفة الإسماعيلية.

توفي المعتمد على الـلـه عام 892م، وبويع المعتضد بالـلـه خليفة، وكانت خلافته وخلافة ابنه المكتفي بالـلـه تحسنًا في الأوضاع الاقتصادية والسياسية على السواء، كما

استعاد العباسيون مصر وهزموا الإسماعيلية في عدة مواقع، وظهرت الدولة السامانية التي استعادت طبرستان وسيطرت على بلاد فارس وخراسان مع حفظ السلطة الاسمية للخليفة، كما أعيدت عاصمة الدولة إلى بغداد.

وإثر وفاة المكتفي في أغسطس 908م، بويع المقتدر بالله خليفة، إلا أنه خلع مرتين: الأولى لدى بداية عهده وبويع عبد الله بن المعتز إلا أنه قتل في اليوم التالي خلال الفتن بين أنصاره وأنصار المقتدي، فكانت خلافته يومًا واحدًا ولم يعتبره جميع المؤرخين خليفة، والثانية عام 929م حيث خلعه الجند ورجال الدولة بسبب سيطرة النساء والخدم على الدولة إلا أنه عاد بعد ثلاثة أيام، واستمر في الخلافة حتى قتل عام 932م خلال معركة بينه وبين مؤنس التركي أحد قواد الجيش،وأصبح أخاه القاهر بالله خليفة، إلا أن مؤنس نفسه خلعه بعد عامين وسمل عيناه وسجنه، وفي خلافته ظهرت الدولة البويهية في بلاد فارس وخراسان، كما استقلت تونس والجزائر وليبيا نهائيًا مع ظهور الدولة الفاطمية التي قضت على حكم الدولة الأغلبية، وبنو رستم وبنو مدرار، والذين وإن استقلوا فعليًا عن الدولة العباسية إلا أنهم حفظوا سيادتها الاسمية.

وفي خلافة الراضي بالله، ظهرت الدولة الإخشيدية في مصر وسيطرت على أجزاء واسعة من بلاد الشام وأصبح نفوذ أمير الأمراء من القوة بحيث أنه عندما مات الراضي بالله عام 940م لم تتم مبايعة الخليفة مباشرة خلافًا للعرف القائم منذ عهد أبو بكر، بل انتظر أسبوعًا لحين عودة بجكم أمير الأمراء من واسط ومبايعته المتقي لله.

السنوات اللاحقة أصبحت صراعًا على منصب أمير الأمراء، فتوالى بعد بجكم، ابن البريدي الذي خلعه الشعب في بغداد لظلمه، ثم كورتكين فابن رابق، الذي هرب والخليفة إلى الموصل احتماءً لدى الحمدانيين من بطش ابن بريدي العائد إلى بغداد؛[37] ولم يلبث ناصر الدولة بن حمدان أن قتل ابن رابق وتولى إمارة الأمراء

بنفسه وأعاد الخليفة إلى بغداد، تلاه تورون الذي سجن الخليفة وسمل عينيه وبايع المستكفي بالله عام 944م، إلا أنه خلع عام 946م، وقد توالى في خلافته القصيرة ثلاثة في منصب أمير الأمراء، هم تورون وابن شيرزاد ومعز الدولة بن بويه مؤسسًا الدولة البويهية،[38] وقد خلع معز الدولة الخليفة وعيّن المطيع لله خليفة؛ وقد شهدت خلافته امتداد نفوذ الفاطميين من تونس إلى مصر وبلاد الشام، بحيث أصبح العالم الإسلامي مقسمًا على ثلاثة خلفاء في آن واحد، في قرطبة والقاهرة وبغداد، أضعفهم سلطة خليفة بغداد.

لم تكن خلافة المطيع لله الذي بويع عام 946م مختلفة عما سبقه من عهود، إذ استمرت الحروب بين البويهين والحمدانيين والجند الأتراك، وأغار البيزنطينيون على حدود الدولة واستعادوا أجزاءً من الأناضول وكيليكيا كانوا قد فقدوها سابقًا، وثار الأتراك بقيادة سبكتكين عام 974م على الدولة البويهية وخلعوا الخليفة وبايعوا ابنه الطائع لله، وكانت خلافته تفتقر إلى الاستقرار السياسي مع تتالي الحروب والفتن بين بني البويه من ناحية والأتراك من ناحية ثانية حتى خلعه عام 991م، وبويع إثره القادر بالله خليفة وقد مكث بالحكم أربع عقود، شهدت قيام الدولة الغزنوية وانهيار الخلافة الأموية في الأندلس، واستمرار الحروب بين البويهيين والأتراك، ثم سادت فترة من الهدوء بعد أن قبض بهاء الدولة البويهي على الحكم، وكذلك في عهد خليفته سلطان الدولة وأخاه شرف الدولة والذي بوفاته، ضعفت الدولة البويهية وعظم أمر الأتراك، ووصلت ذورتها في أواخر خلافة القادر، حين قام أرسلان بن عبد الله البساسيري بالخطبة للخيفة الفاطمي في بغداد،فاستنجد الخليفة العباسي بطغرل بك قائد السلاجقة، فدخل بغداد عام 1055م، وثبت الخليفة العباسي، وابتدأ عصر آل سلجوق في بغداد.

شهدت تلك المرحلة أيضًا خصوصًا خلال القرن العاشر هجرة قبائل كردية من جوار بحر قزوين للاستقرار في العراق وشمال بلاد الشام؛ وازدهار هجرة القبائل

أدى إلى تعاسة الوضع الاقتصادي والاجتماعي فضلاً عن تكاثر الحروب الداخلية والخارجية. إحدى أمثلة ذلك الدولة العقيلية والدولة المروانية اللتين ورثتا الدولة الحمدانية بعد انهيارها عام 979، وغلب الطابع العربي على الأولى بينما الطابع الكردي على الثانية، وقد اقتتلا طويلاً للسيطرة على الجزيرة السورية، كما قادت الدولة العقيلية حروبًا عدة ضد الدولة البويهية في بغداد. أما الحروب الخارجية، فتتمثل بغارات الإمبراطورية البيزنطية على حلب وأنطاكية واحتلالهما قسطًا من الزمن، بنتيجة تشقق الوضع الداخلي.

الفصل الخامس

الدول المستقلة عن الخلافة العباسية في القرن الرابع الهجري

الدولة الحمدانية (317 - 394هـ / 929 - 1003م)

وهم شيعة رافضة. ينتسبون إلى حمدان بن حمدون، من قبيلة تغلب العربية. قام حمدان بدور هام في الحوادث السياسية في الموصل منذ عام 260هـ / 873م. ثم اشتهر ابنه الحسين بن حمدان بحروبه ضدالقرامطة. وعين الخليفة المقتدر أخاه عبد الله بن حمدان على الموصل وما حولها عام 292هـ / 904م.

بعد سيطرة بن بويه على مركز الخلافة العباسية طرد معز الدولة البويهي الحمدانيين من الموصل. فذهبوا إلى حلب. وكان سيف الدولة الحمداني قد استقل بها عام 333هـ / 944م، ثم استعادوا الموصل. ولكن دبَّ فيهم الضعف والتناحر إلى أن أزال الأكراد دولتهم في الموصل عام 380هـ / 990م. أما حلب فقد استقل بها سيف الدولة (333 - 356هـ / 944 - 966م)، وامتاز عهده بكثرة حروبه مع البيزنطيين، وكان يوغل في بلاد الروم. وتولى بعده ابنه سعد الدولة. ثم ضعفت الدولة، واستمرت في الضعف حتى قضى عليها الفاطميون في حلب عام 394هـ / 1003م.

وأبرز الحكام:

- ناصر الدولة أبو محمد الحسن (308 - 358هـ / 920 - 968م).
- سيف الدولة أبو المحاسن علي (333 - 356هـ / 944 - 966م).
- سعد الدولة أبو المعالي شريف (356 - 381هـ / 966 - 991م).

الدولة البويهية (320 - 447هـ / 932 - 1055م)

والبويهيون يعودون إلى بلاد الديلم (جنوب بحر قزوين)، وهم شيعة حاقدون على الإسلام، متعصبون، أتوا بأفعال منكرة، وكانوا في البداية من الرعايا العاديين،

على أن الأمجاد العظيمة التي حصل عليها بنو بويه دفعت بعض المؤرخين إلى أن يتوهموا لهم نسبًا رفيعًا. فنسبوهم أحيانًا إلى ملوك آل ساسان.

وأول من برز منهم بويه بن شجاع، وكان فقيراً، صياد سمك، وكان أبناؤه أحمد وحسن وعلي جنودًا في جيش (ما كان بن كالي) أحد زعماء الديلم، وتدرجوا حتى صاروا أمراء في الجيش، ثم تركوه وانحازوا إلى الأمير مرداويج الذي رجحت كفته في السيطرة على الديلم، فخشي خطرهم وصرفهم، فجهز علي الجيوش وقاتل مرداويج حتى غلبه واستولى على الأهواز والكرج وعلى ممالك كثيرة. وأخرج أخاه حسن من السجن، فاستولى على أصبهان والري وهمذان. بدأ نفوذهم عام 320هـ / 932 م ووصلوا إلى قمة المجد والسلطان والنفوذ، واكتمل سلطانهم على مساحة شاسعة من أملاك الخلافة العباسية. وطلبوا من الخليفة العباسي الاعتراف بهم، فتم لهم ذلك.

وكانوا يتحكمون في الخلفاء العباسيين ويهينونهم، ويعينونهم ويخلعونهم كيفما شاءوا!. ولم يبق للخلفاء معهم نفوذ ولا سلطان وذهبت هيبة الخلافة طيلة هذا العهد الأسود، وأصبح مصير العالم الإسلامي مرتبطًا بهؤلاء السلاطين الجدد. واستقدم الخليفة المتقي معز الدولة أحمد ليستولى على بغداد ويجعلها تحت حمايته وهكذا دخلت في سيطرتهم وحمايتهم.

وأبرز حكامهم أبناء بويه بن شجاع:

- عماد الدولة علي: حكم فارس وله الإشراف والسلطان العام (320 - 338هـ / 932 - 949م).
- ركن الدولة حسن: حكم الري وهمذان وأصفهان وطبرستان (320 - 366هـ / 932 - 976م).
- معز الدولة أحمد: حكم العراق والأهواز وكرمان وواسط (320 - 356هـ / 932 - 966م).

تقاسم هؤلاء الثلاثة الكبار البلاد على هذا النحو. وهو نظام يحمل في طياته بذور الشقاق، وهذا ما حصل. فبعد هؤلاء انتهت السلطة إلى عضد الدولة (بن ركن الدولة)، وفي عهده بلغ بنو بويه أقصى درجات سلطانهم. وبعد وفاته دبت الحروب بين أبنائه الثلاثة. واستمرت بين أخلافهم حتى دمرتهم جميعًا. وكان آخرهم (الملك الرحيم) واقتحم السلاجقةبغداد في عهده وسجنوه. وانتهى بذلك عهد البويهيين.

الدولة الأخشيدية (323 - 358هـ / 934 - 968م)

أصل الأخشيديين أتراك من فرغانة من بلاد ما وراء النهر، مؤسسها هو محمد الأخشيد بن طغج وهو من موالي أحمد بن طولون، فبعد الطولونية ظلت مصر تحت الخلافة العباسية مباشرة 30 سنة (293 - 323هـ / 905 - 934م)، فتولاها محمد الأخشيد من قبل الخليفة الراضي. وازدهرت البلاد في عهده. واستطاع أن يضم بلاد الشام. ثم ضم الحجاز وحاول سيف الدولة الحمداني انتزاع الشام منه ففشل.

بعد موته خلفه ابناه وكانا صغيرين. فكانا تحت وصاية مولاه كافور الذي كان عبدًا حبشيا للأخشيد. فحكم الدولة واستبد بالأمر دونها، وحارب الحمدانيين، وراجت التجارة في عصره. وشجع الأدباء والشعراء ومنهم أبو الطيب المتنبي. وبعد وفاته ضعفت الدولة، حتى قضى عليها الفاطميون عام (358هـ / 968م).

أبرز الحكام:

- محمد الأخشيد بن طغج (323 - 334هـ / 934 - 945م).
- أبو المسك كافور مولى الأخشيد (355 - 357هـ / 965 - 967م).

دولة عمران بن شاهين في البطيح بالعراق (329 - 408هـ / 940 - 1047م)

كان عمران بن شاهين جابيًا لمعز الدولة البويهي. ثم هرب إلى البطيح (بين واسط والبصرة)، فكثر أصحابه حوله. ونظم بهم جيشًا. أرسل معز الدولة ثلاث

جيوش متوالية للقضاء عليه فمنيت كلها بالهزيمة فقوي أمره. واستمر يحكم أربعين سنة. كان شوكة في حلق بني بويه. وحكمت ذريته إلى سنة (408هـ / 1017م).

وأبرز حكام هذه الدولة:

- عمران بن شاهين (329 - 369هـ / 940 - 979م).
- مهذب الدولة علي بن نصر (376 - 408هـ / 986 - 1017م).

الدولة الغزنوية (349 - 579هـ / 960 - 1183م)

كان البتكين من موالي الأتراك، وكانت له منزلة عظيمة عند السامانيين. فعينوه عاملًا على مدينة هراة وغزنة، فبدأت أمجادهم من هنا. وفي الفترة (366 - 387هـ / 976 - 997م)، تولى الحكم مملوك تركي يدعي سبكتكين. ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة، مد نفوذه إلى الشرق. وجعل عاصمته بشاور. واستولى على خراسان وأجزاء واسعة من الهند. فاتسع ملكه وثبتت أركانه.

السلطان محمود الغزنوي

وخلفه أبناؤه إسماعيل ثم محمود الذي يعتبر أعظم سلاطين الدولة الغزنوية. هاجم السامانيين وقضى عليهم، فاستولى على خراسان. وأصبح بذلك أكبر قوة في شرق العالم الإسلامي. ثم زحف إلى الهند، وأخضع عدة مدن أدخل فيها الإسلام ودمر الأصنام، وهو أول حاكم مسلم يحكم معظم بلاد الهند، ثم سيطر على كشمير ومعظم بلاد ما وراء النهر وأصفهان ومعظم إيران. فأصبحت له مملكة شاسعة جدًا. وعرف محمود بالعدالة. واشتهر بحب وتقدير العلم والعلماء.

كان للسلطان محمود ابنان مسعود وهو الأكبر ومحمد، وقد عهد بالولاية للأصغر. وكان ذلك سببًا لنشوب الحروب والصراعات بين الأخوين مما أضعف الدولة وهد كيانها. حتى قضى عليهم السلاجقة والغوريون. وقد كانت دولة عظيمة أضافت الكثير للفتوحات والحضارة الإسلامية.

أبرز حكام الدولة الغزنوية:

- البتكين (351 - 352هـ / 962 - 963م).
- سبكتكين أبو منصور (366 - 387هـ / 976 - 997م).
- محمود (يمين الدولة) بن سبكتكين (388 - 421هـ / 998 - 1030م).
- إبراهيم ظهير الدولة (451 - 492هـ / 1059 - 1098م).

الدولة الزيرية في الجزائر وتونس (362 - 563هـ / 972 - 1167م)

كانت هذه المناطق بيد الفاطميين. ولما تمكنوا من مصر انتقلوا إليها سنة 363هـ / 973م، وأنابوا عنهم بلكين بن زيري الصنهاجي في حكم الشمال الأفريقي. فاستقل هذا بالمنطقة. وأقام دولته. وتولى ابنه حماد بن بلكين ولاية المغرب الأوسط (الجزائر) وأقام بها الدولة الحمادية، وتدين هذه الدولة بالمذهب الشيعي.

وعندما أعلنت هذه الدولة استقلالها وانفصالها عن الفاطميين، أطلق عليهم الخليفة الفاطمي المستنصر قبائل بني سليم وبني هلال البدوية (كانوا يعيشون بصعيد مصر) فجازوا النيل إلى أفريقية سنة (444هـ / 1052م). واستباحوا البلاد وألحقوا بآل زيري هزائم منكرة. فضعفت دولتهم واستمرت في الانحدار إلى أن قضت تمامًا.

وأبرز حكام الدولة:

- بلكين (وهو مؤسس مدينة الجزائر) (362 - 374هـ / 972 - 984م).
- باديس (385 - 407هـ / 995 - 1016م).
- المعز بن باديس (407 - 441هـ / 1016 - 1049م).
- تميم (454 - 502هـ / 1062 - 1108م).
- الحسن (515 - 563هـ / 1121 - 1167م).

الدولة العقيلية في الموصل (386 - 489هـ / 996 - 1095م)

أسسها أبو الذواد محمد بن المسيب العقيلي، وخلفه أخوه حسام الدولة المقلد بن المسيب. سيطروا على الموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها. دعوا للخليفة العباسي على المنبر. استمروا إلى أن قضى عليهم السلاجقة عام(489هـ / 1095م).

أبرز حكام الدولة:

- حسام الدولة المقلد بن المسيب (386 - 391هـ / 996 - 1000م).
- معتمد الدولة قرواش بن المقلد (391 - 442هـ / 1000 - 1050م).
- شرف الدولة مسلم بن قرواش (453 - 478هـ / 1061 - 1085م).

دولة آل خزرون الزناتيون بطرابلس ليبيا (390 - 540هـ / 999 – 1145م) مؤسس هذه الدولة هو فلفول بن سعيد بن خزرون الزناتي (390 - 400هـ)، كان واليًا لآل زيري. وانتهز فرصة الخلاف بين الفاطميين وآل زيري، فاستقل بطرابلس. وكانت فترة هذه الدولة غير مستقرة. وحروبهم مستمرة مع الفاطميين والصنهاجيين حتى استولى بنو مطروح على السلطة. ثم احتلها الفرنجة سنة 541هـ وامتد سلطانهم على كل الساحل إلى تونس، وظلت تحت سيطرتهم حتى استنقذها الموحدون سنة 555هـ

الفصل السادس

ضعف الخلافة العباسية وزوال البويهيين

خلافة الفضل المطيع لله بن المقتدر

من جمادى الآخرة 334هـ حتى خلع في ذي القعدة 363ه

عانى من شغب الجند عليه فاضطر إلى استرضائهم بإقطاع القواد والجند إقطاعات السلطان وأصحاب الأملاك فخربت البلاد لذلك، وعم الغلاء والنهب.. ولم تمض سنة على بغداد حتى اشتد الغلاء فأكل الناس الميتة والكلاب، وأكل الناس خروب الشوك، وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه فلحق الناس أمراض وأورام في أحشائهم، وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم، وانحدر كثير من أهل بغداد إلى البصرة، فمات أكثرهم في الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز.

فكان نظام الإقطاعات أول فساد بالعراق، لأنه أضعف همة الفلاحين الذين يقومون بزرع الأرض وإصلاحها.

نزاع بين الجند

ظهر كذلك لون من النزاع العنصري بين الأجناد من الديلم والأتراك، وقد حاولت الديلم خلع معز الدولة، ولكن الأتراك وقفوا معه وأفسدوا هذه المحاولة، فمال إليهم معز الدولة دون الديلم، وأطلق يد الأتراك فخربوا البلاد ونهبوا الأموال.

البويهيون على خُطا العبيديين

كان أهل بغداد قبل تحكم البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة، يحترمون جميع الصحابة، ويفضلون الشيخينعلى سائرها ولا يقدحون في معاوية، ولا غيره من سلف المسلمين، فلما جاءت هذه الدولة وهي متشيعة: نما مذهب الشيعية ببغداد

ووجد له دعمًا من الحكومة، حتى إنه أمر بالكتابة على المساجد سنة 351هـ "لعن اللـــه معاويـة بـن أبي سفيان، ولعن من غصب فاطمة رضي اللـه عنها، ومن منع أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام...". فلما كان الليل حكه بعض الناس، ولكن المعز أعاد كتابته.

وفي 10 من محرم سنة 352هـ أمر معز الدولة بالإضراب عـن العمـل، وإظهـار النياحـة ولـبس القباب وعملوها كالمسوح وأن يخرج النساء مسودات الوجه وقد شققن ثيابهن يدرن في البلد بالنوائح على الحسين بن علي t، ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنية قدرة على المنع لكثرة الشيعة؛ ولأن السلطان معهم.

وفي مـن 18 ذي الحجـة لـنفس العـام أمـر بإظهـار الزينـة وإشـعال النـيران وإظهـار الفـرح احتفالاً بعيد الغدير (غدير خم)، وهو الموضع الذي يروى أن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسـلم قـال فيه عن علي: "من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللـهمَّ والِ من والاه، وعاد من عاداه"، وكان يومًا مشهودًا.

فتن وحروب

حصلت حروب بين معز الدولة البويهي وناصر الدولة العـربي، لم تهـدأ الحـروب بـين الطـرفين فاشتغلا بها عن كل مصلحة، وكان ذلك سببًا فيما يأتي ذكره من الضعف أمام الروم.

توفي معز الدولة 13من ربيع آخر سنة 356هـ وتولى بعده عز الدولـة بختيـار بـن أحمـد بـن بويه فظل في السلطة حتى خلعه ابن عمه سنة 367هـ وكانت مدته عبثًا واشـتغالاً باللـــهو والنـساء، ولم يحسن معاملة من حوله حتى استوحشوا منه. وفي هذه الفترة، اسـتطاع الـروم أن يـستردوا جميـع الثغور الإسلامية الكبرى، وصارت لهم الهيبة في قلوب المسلمين مـن أهـل الجزيـرة والـشام، بيـنما بنـو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضًا، وعن عدوهم مشتغلون.

موقف يوضح ما وصل إليه الحال

سنة 361هـ أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا في الجزيرة حتى بلغوا نصيبين، فحرقوا البلاد وخربوها، فسار جماعة أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنصرين، وقاموا في الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين، وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي، فاستعظم الناس ذلك، فسار معهم أهل بغداد، وقصدوا دار الخليفة وأرادوا الهجوم عليه، فمنعوا من ذلك، وكان بختيار يصطاد بنواحي الكوفة، فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستغيثين منكرين عليه اشتغاله بالصيد، وقتال عمران بن شاهين صاحب البطيحة -وهو مسلم- وترك جهاد الروم، ومنعهم عن ديار الإسلام فوعدهم بالتجهيز للجهاد، وأرسل إلى سبكتكين يأمره بالتجهيز وأن يستنفر العامة، فاجتمع معه عدد كثير لا يحصون.

وكتب بختيار إلى أبي تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره بإعداد الميرة والعلوفات، ويعرفه عزمه على الجهاد والغزو فأجابه بإظهار السرور.. ثم أرسل بختيار إلى المطيع لله يطلب منه مالاً، فقال المطيع: إن الغزو والنفقة عليه وعلى غيره من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجبي إلى الأموال، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء، وإنما يلزم من البلاد في يده وليس لي إلا الخطبة، فإن شئتم أن أعتزل فعلت.

وترددت الرسائل بينهما حتى وصل الحال إلى تهديد الخليفة فبذل المطيع 400 ألف درهم، فاحتاج إلى بيع ثيابه، وأنقاض داره، وغير ذلك. وشاع بين الناس من أهل العراق وخراسان وغيرهم، أن الخليفة قد صودر ماله. فلما قبض بختيار المال صرفه في مصالحه، وبطل حديث الغزو.

وفي سنة 361هـ انتقل خلفاء الفاطميين إلى مصر، بعد استيلاءجوهر الصقلي عليها في عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي.

وفي 15 ذي القعدة سنة 363هـ اعتزل المطيع، ولم يكن له أثر يذكر.

خلافة أبي الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطيع

من ذي القعدة 363هـ حتى رجب 381هـ

كانت للفتنة التي قامت ببغداد بين أهل السنة والشيعة أثر كبير في إثارة الاضطرابات والفوضى ببغداد، فسفكت الدماء، وأحرقت الكرخ، التي كانت محلة الشيعة.. ولم يستطع بختيار أن يسيطر على مقاليد الأمور.

شهدت هذه الفترة صراعًا بين بختيار وعضد الدولة ابن عمه على بغداد انتهى لصالح الأخير سنة 366هـ فتمكن من بغداد، ثم سار إلى الموصل فملكها وأزال عنها الدولة الحمدانية، واتسعت أملاكه فصار له العراق والجزيرة، والأهواز وفارس والجبال والري ثم جرجان.

كان عضد الدولة من أعقلِ آل بويه، حسن السياسة شديد الهيبة معطاء، وكان يختار على أساس الكفاءة لا الشفاعة.. توفي سنة 372هـ في شوال.

اختير بعده ابنه كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة، فاضطربت في عهده الأحوال، وتقلص الملك الذي ورثه عن أبيه، حتى ضعف أمره ودخل في ولاية أخيه شرف الدولة من سنة 376هـ حتى توفي سنة 379هـ

ثم تولى بعده بهاء الدولة أبو نصر، أخو شرف الدولة، وفي سنة 381هـ قبض بهاء الدولة على الطائع لله للاستيلاء على أمواله؛ طمعًا فيها ثم خلع.

وفي هذه الفترة قامت الدولة السبكتكينية (الغزنوية) من سنة 366هـ إلى سنة 582هـ على يد سبكتكين كما سيأتي ذكره.

خلافة أبي العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر

من رمضان 381هـ حتى توفي في ذي الحجة 422هـتم اختياره بمعرفة آل بويه وقد كان هاربًا في زمن الطائع، فأتى به إلى بغداد واستقبل استقبالاً طيبًا من بهاء

الدولة، لم يكن للخليفة شيء من السلطان كمن مضى في عهد سلاطين بني بويـه، إلا أن ضـعفهم أحيـا للخليفة شيئًا من الكلمة والنفوذ، وكان القادر فيه من خلال الخير ما يساعد على ذلك، فقد كان حليمًا كريمًا يحب الخير وأهله، ويأمر به وينهى عن الشر، وكان حسن الاعتقـاد، وصـنف كتابًـا عـلى مـذهب أهل السنة والجماعة ثم توفي سنة 422هـ

خلافة أبي جعفر عبد اللـه القائم بأمر اللـه

من ذي الحجة سنة 422هـ حتى 13 من شعبان سنة 467هـ

وفي أول عهده ضعفت الخلافة والسلطنة جميعًا ببغداد وعمت الفـوضى وشـغب الجنـد، وكـثر النزاع بين الديلم عنصر السلطان، وبين الأتراك قدماء العهد ببغداد، والعجيب أن آخـر سـلطان بـويهي، وهو أبو نصر فنا خسرو، في ظل هذا الضعف البيِّن يطلب من الخليفة أن يلقـب بالملـك الـرحيم، فـأبى الخليفة ذلك ولكنه أصر حتى كان ذلك لقبه!!..

واستمر سلطانًا حتى قـضى عليـه الـسلطان طغـرل بـك الـسلجوقي، وبـذلك انقـضت مـدة آل بويه التي لم تترك أثرًا صالحًا في عهد الدولة العباسية، إلا مزيدًا من الفـساد والتـشتت بمـا أظهرتـه مـن التشيع في بغداد، مع أن غالبية أهلها أهل سنة وجماعة.

الفصل السابع

الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري

الدولة الطاهرية (205 - 259هـ / 820 - 872م)

عين الخليفة العباسي المأمون قائده العسكري المظفر طاهر بن الحسين أميراً لبلاد خراسان سنة 205هـ مكافأة له على جهوده العسكرية الجبارة. فاستمرت الإمارة في ذريته إلى سنة 259هـ حيث استقلوا بإماراتهم دون أن يعلنوا انخلاعهم وخروجهم على الخليفة، حتى أزاحهم يعقوب الصفار. وقامت على أنقاضهم الدولة الصفارية.

الدولة اليعفرية بصنعاء (225 - 393هـ / 839 - 1002م)

أسسها إبراهيم بن يعفر الحميري (225 - 247هـ / 839 - 861م)، وكان نائبًا عليها من قبل الوالي العباسي، فاستقل بها، ويعتبر حفيده يعفر بن عبد الرحيم بن إبراهيم (247 - 259هـ / 861 - 872م) رأس الدولة، ومبدأ استقلالها الحقيقي، وكانوا يدفعون في البداية جزية لآل زياد، وبدأ استقلالهم الحقيقي (247هـ / 861م).

دارت معارك كثيرة بينهم وبين الأئمة الزيدية كما أنهم غزوا القرامطة وأبادوهم. وفي عام 393هـ / 1002م دخلوا في طاعة الإمام العياني الزيدي وانقرضت دولتهم.

الدولة الزيادية بزبيد (203 - 412هـ / 818 - 1021م)

أسسها محمد بن عبد الله بن زياد (من ولد زياد بن أبيه) سنة (203 - 245هـ / 818 - 859م). وكان الخليفة المأمون قد أرسله إلى تلك المنطقة كي يقضي على

حركة علوية، ويسوي الأمور فيها، فاستولى على المنطقة واستقل بها. وكان عهده عهد السلطة والنفوذ، وهو الذي بنى مدينة زبيد.

ولما آلت السلطة إلى عبد الله بن إسحاق كان هذا طفلًا، فكفلته أخته وعبد لأبيهما اسمه الحسين بن سلامة النوبي. فاستبد هذا بالأمر وقبض على الأمور كلها (في حدود سنة 375هـ)، فقضى على كل التمردات والاضطرابات في الدولة، وأخضع أكثر اليمن وأجزاء من الحجاز. وله إصلاحات كثيرة مذكورة وبعد موته (402هـ / 1011م)، انهارت دولة بني زياد. وتنازع بعض عبيده على السلطة، فاستقرت أخيرًا لبني نجاح (وهم طبقة من العبيد).

الدولة الزيدية الطالبية (250 - 316هـ / 864 - 928م)

نجح الحسن بن زيد (علوي من نسل الحسن بن علي) في تكوين هـذه الدولـة، حيـث اقتطـع من ملك بني العباس وآل طاهر طرفًا عظيمًا تحميه الجبال، بطبرستان والديلم (جنـوب بحـر قـزوين)، ثم حكم أخوه محمد بن زيد. وتوالت الأسرة عـلى الحكـم، إلى أن اسـتولى (مـراداويج بـن زيـار) عـلى السلطة، وكان من القادة العسكريين للزيديين (316 - 323هـــ / 928 - 934م). وتعاقبـت ذريتـه عـلى الحكم حتى سنة 471هـ / 1078م، ثم جاءت الإسماعيلية.

الدولة الطولونية (254 - 292هـ / 868 - 905م)

الدولة الطولونية هي أول دولـة إسـلامية تـستقل بمـصر، فقـد عَّـين الخليفـة العبـاسي في عـام (254هـ / 868م) أميرًا تركيًا على مصر هو (بايكباك) وهو بدوره أناب عنـه أحمـد بـن طولـون (الـذي كان أبوه مملوك تركي من تركستان وكان رئيس حرس الخليفة المأمون). فاستقل أحمد بن طولون بمصر وكوّن جيشًا عظيمًا فاستولى على بلاد الشام، ثـم زحـف شـمالًا إلى الـروم، وانتـصر في طرسـوس، وتـولى حماية الثغور من الروم.

واسـتمر حكمـه مـن (254 - 270هـــ / 868 - 883م). تـولى بعـده ابنـه خمارويـه (270 - 282هـــ / 883 - 895م) الـذي جـرت بينـه وبـين الخليفـة العبـاسي المعتمـد عـدة حـروب، ثـم تـصالحا وتـزوج الخليفـة المعتـضد (ابـن المعتمـد) بنـت خمارويـه، وتعتـبر هـذه الزيجـة مـن أبـرز الزيجـات التـي دونهـا التـاريخ ولا يـضاهيها في عظمتهـا ومواكبهـا ومـا أنفـق عليهـا إلا زواج الرشـيد مـن زبيـدة، وزواج المـأمون مـن بـوران. وأفقـرت هـذه الزيجـة خزينـة خمارويـه. وبعـد خمارويه عمت الفوضى في البلاد، إلى أن انهارت الدولة عام (292هـ / 905م).

الدولة الصفارية (254 - 298هـ / 868 - 910م)

دولة شيعية تأسست على يد يعقوب بن الليث الصفار (وهو من أصل فارسي)، وكان هذا يعمل صفارًا للأواني النحاسية في بداية حياتها ثم انخرط جنديًا في فرقة عسكرية في سجستان، فعلا شأنه، وصار قائدًا عظيمًا. فاستولى على سجستان وما حولها.

وأغار على الدولة الطاهرية في خراسان، واستولى على عاصمتها نيسابور، وحارب الترك، وتوسع واستولى على جنديسابور والأهواز، وحكم خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان. وقد اعتمد في فتوحاته على ضعف الخلافة العباسية، حتى أنه طمع في الزحف إلى بغداد للسيطرة على الخلافة، ثم جاء المعتمد (256 - 279هـ) وفي عهده تولى أخوه الموفق قيادة الجيش، وكان حازمًا قويًا، أعاد للخلافة صحوتها وهيبتها وراح الموفق يصارع كل المتمردين في الشرق والغرب. وكان يعقوب واحدًا من هؤلاء. وقد قلم الموفق أظفاره، فانفلتت من يعقوب ولايات كثيرة، كانت خاضعة له، ثم هزمه الموفق هزيمة قاضية. فنزل به المرض والهم فتُوفي سنة 265هـ وخلفه أخوه الذي حاول استرداد بلاد ما وراء النهر، فهزمه السامانيون، ووقع في أسرهم وقضى عليه، وأخيرًا وقعت الدولة بأكملها في قبضة السامانيين.

وأبرز حكامها:

- يعقوب بن الليث الصفار (254 - 265هـ / 868 - 878 م).
- عمرو بن الليث الصفار (265 - 288هـ / 878 - 900م).
- طاهر بن محمد بن عمرو (288 - 296هـ / 900 - 908م).

الدولة السامانية (261 - 390هـ / 874 - 1000م)

وهم شيعة رافضة. وتنسب هذه الأسرة إلى رجل فارسي اسمه سامان، كان مجوسي، ثـم اعتنـق الإسلام، وهو من أسرة عريقة الجد في فارس، وخلفه ابنه أسد وظهر أبناء أسد كزعماء في عهد المـأمون. فأحمد بن أسد تولى فرغانة، ونوح بن أسد تولى سمرقند، ويحيى تولى الشاس وأشروسنة، وإلياس تـولى هراة عام (204هـ / 819م). وعندما آل حكم خراسان والمشرق إلى طـاهر بـن الحـسين أقـرهم. وتـولى بعد أحمد بن أسد ابنه نصر، فأقره الطاهريون. وفي سنة (261هـ / 874م) ولاه الخليفـة المعتمـد بـلاد ما وراء النهر كلها، فجعل عاصمته سمرقند وولى أخوه إسماعيل بخارى. وكانا قـد تقـاتلا ثـم اصـطلحا، وبعد وفاة نصر خلفه إسماعيل.

ويعتبر إسماعيل المؤسس الحقيقي للدولة السامانية، وفي عهده تحولـت الإمـارة الـسامانية إلى مملكة وأصبحت بخارى عاصمتها، ويعتبر عهد إسماعيل عهد قمـة في عهـود الدولـة الـسامانية، قـضى على الدولة الزيدية بطبرستان وضم أراضيها، ثم قضى على الدولة الصفارية فضم أراضـيها وممتلكاتهـا، وأصبح ملك السامانيين يشمل ما وراء النهر وخراسان وسجـستان وجرجـان وطبرسـتان والـري وكرمـان فبلغت الدولة بذلك قمة اتساعها، ونذكر عن هذه الدولة أنها شجعت التشيع وأجلته حتى أصبح فيما بعد المذهب الرسمي لإيران. وضعفت دولتهم في أواخر عهدها، ثم انقرضت على يد الدولـة الغزنويـة، والترك الخاقانية.

وأبرز حكامها:

- نصر بن أحمد بن سامان (261 - 279هـ / 874 - 892م).
- إسماعيل بن أحمد (279 - 295هـ / 892 - 907م).
- نصر الثاني بن أحمد (301 - 331هـ / 913 - 942م).

الدولة الزيدية .. دولة بنو الرسي (280 - 1382هـ / 893 - 1962م)

وهم شيعة رافضة. فقد قدم الحسين بن القاسم الرسي (من ذرية الحسن بن علي) إلى اليمن واستقر بها سنة 280هـ فخلفه ابنه يحيى بن الحسين ودعا لنفسه، وتلقب بالهادي، واتخذ صعدة عاصمة له، وبويع بالإمامة سنة 284هـ / 893م. وملك صنعاء وقوي نفوذه، وكان عادلًا كريمًا شجاعًا، وخلفه ابنه، ثم تتابعت ذريتهم على ملك اليمن.

كما في حديثنا عن الإمارات اليمنية نتوقف عند سنة 569هـ وهي السنة التي دخل فيها الأيوبيون اليمن. لكننا مع الأئمة الزيدية لن نقف عند ذلك التاريخ لأن هؤلاء لم يختفوا كما اختفى سواهم. لكنهم بقوا في أكثر فترات التاريخ حتى سنة 1382هـ / 1962م.

ومما يذكر أن الأئمة عاشوا في صراع مع الدول اليمنية الأخرى منذ بداياتهم وحتى سنة 1045هـ/1635م حيث خلصت لهم اليمن الشمالية حتى قيام الثورة -فيما عدا فترة الحكم العثماني- وقد كان سلطانهم سابقًا محصورًا في المنطقة الشمالية (صعدة) حتى القرن 7هـ / 13م، بعدها امتد للجنوب. ومنذ أوائل القرن 11هـ / 17م حاول الأئمة الاندفاع لليمن الجنوبية ففشلوا لاختلاف المذاهب ولتعصبهم.

وأهم الأئمة الزيدية:

- الهادي يحيي بن الحسين (284 - 298هـ / 898 - 911م).
- المتوكل أحمد بن سليمان (532 - 567هـ / 1137 - 1171م).
- المهدي محمد بن المطهر (697 - 728هـ / 1298 - 1327م).
- شرف الدين بن المهدي (912 - 965هـ / 1507 - 1558م).
- يحيى بن محمد بن حميد الدين (1322 - 1367هـ / 1904 - 1948م).

- البدر بن أحمد (1382هـ - 1962م)، حكم عدة أيام ثم هبت ثورة السلال.

الدولة العبيدية الفاطمية (297 - 567هـ / 909 – 1171م)

وهم شيعة رافضة. ادَّعوا كذبًا وافتراءًا أنهم مـن نـسل فاطمـة الزهـراء. اختلـف المؤرخـون في نسبهما فقيل ينـسبون إلى إسـماعيل بـن جعفـر الـصادق، لـذا سـموا بالإسـماعيلية أيـضًا. وقيـل إنهـم يرجعون إلى رجل فارسي هو عبد الـلـه بن ميمون القداح الأهوازي. الثنوي المذهب الذي يقول بوجود إلهين (إله النور وإله الظلمة).

تأسيس الدولة

ومؤسس هذه الدولة العبيدية الفاطمية عبيد الـلـه بن محمد المهـدي وإليـه تنـسب الدولـة. وكان أبوه قد استطاع نـشر الـدعوة الفاطميـة في بـلاد الـيمن، ثـم اليمامـة والبحـرين والـسند ومـصر والمغرب. ثم واصل عبيد الـلـه طريق والده. ووسع نفوذه. وتـصدى للهجـمات والثـورات حتـى قـبض عليه اليسع بن مدرار أمير سجلماسه وسجنه. واصل قائده أبو عبد الـلـه الشيعي فتوحه، ومـد نفـوذه إلى أكثر أجزاء المغرب. ودخل أخيرًا رقادة عاصمة الأغالبة وأزال دولتهم عام (296هـ / 875م). ثم سـار إلى سجلماسة فهرب حاكمها. فأطلق زعيمه عبيد الـلـه عام 296هـ / 875م فبـايعوه. وتلقـب بخليفـة المسلمين وأمير المؤمنين. وواصـل انتـصاراته، وهكـذا اسـتطاع القـضاء عـلى ملـك الأغالبـة. وآل رسـتم، والأدارسة، ودان له الشمال الأفريقي كاملًا، واتخذ القيروان عاصمة ملكه. وفي عام 304هـ / 916م بنـى المهدية وجعلها عاصمته، مات سنة 322هـ / 933م وخلفه ابنه القائم، ثم تتالى عليها ذريته.

السيطرة على مصر

في سنة 358هـ / 968م تمكـن القائـد الفـاطمي جـوهر الـصقلي مـن الاسـتيلاء على مـصر سـلمًا، فـأجرى الكثـير مـن الإصـلاحات الداخليـة، ومـن أبـرز أعمالـه بنـاء

مدينة القاهرة، وبناء الجامع الأزهر. ثم انتقل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إلى القاهرة سنة 362هـ / 972م، واتخذ القاهرة عاصمة لبلاده.

حدود ملك الفاطميين

امتدت حدودهم في فترات ازدهارهم من نهر العاصي بالشام إلى حدود مراكش، ومن السودان إلى آسيا الصغرى. ففاقوا بذلك ممالك ذلك العصر. وقضى عليهم صلاح الدين الأيوبي. ومات العاضد آخر حكامها عام (567هـ / 1171م).

ومن أبرز حكامها:

- عبيد الله المهدي (297 - 322هـ / 909 - 933م).
- القائم أبو القاسم محمد (322 - 334هـ / 933 - 945م).
- المعز لدين الله (342 - 365هـ / 953 - 975م).
- العزيز بالله (365 - 386هـ / 975 - 996م).
- الحاكم بأمر الله (387 - 411هـ / 996 - 1020م).

عد أن توقفت الفتوحات الإسلامية منذ أواخر العصر الأموي، انصرف الناس إلى الصراع الداخلي، حتى إذا نهض العباسيون بالأمر، واستقر لهم وخلد الناس إلى الراحة قليلاً استغل هذا الوضع كل من كان يخفي في نفسه شيئًا، وكان معظم هؤلاء المستغلين من المجوس حيث أظهروا التشيع وساروا مع أبناء جلدتهم من المسلمين الفرس وراء العباسيين حتى إذا نهضوا بالحكم تسلم بعض الفرس سلطات واسعة، فاستفاد المستغلون من العصبية، وعملوا على تهديم الإسلام، وظهرت بينهم حركات سنباذ والمسيلمة والراوندية والمقنعية والبابكية، بل وأصابع الاتهام تشير إلى داعية بني العباس الأول، أبي مسلم الخرساني، إذ نسبت بعض هذه الفرق نفسها له، أو طالبت بدمه، وإن كان هذا يبدو استغلالاً وإفادة من وضعه، ومن هنا بدأت العصبية تبزغ بقرونه ..

وكانت أرجاء الدولة الإسلامية متسعة وعدد السكان كبيراً وخاصة في العاصمة، وقواعد الولايات، التي تضم أشتاتًا من الناس، وهذا يستدعي جندًا كثيرًا يوطِّد أركان السلطة، ويحفظ الأمن، ولما كان أهل البلاد يعيشون في حالة من الرخاء والرفاه فهم بعيدون عن حياة الجندية، وما دامت الفتوح الإسلامية قد توقفت، ولم يعد الجهاد على نطاق واسع كما كان، وإنما في أوقات محددة تقضيه الظروف ولهذا فإن السكان لا يرون ضرورة للانخراط في الحياة العسكرية، وكان الخليفة عندها مضطرًا لاستقدام جنود من مناطق لا تزال غير مترفة بعد، أو قد دانت بالإسلام منذ وقت قصير، أو يأتي بالأسرى والمماليك وينشئهم تنشئة عسكرية بعد أن يدخلوا في الإسلام، وقد جِيء بجند من الترك، وترقوا في الرتب حتى غدوا قادة ثم أصبح الأمر بيدهم يخلعون الخليفة إن شاءوا، ويعينون من أرادوا فضعفت هيبة الخلافة، وانخفضت مهابة السلطة.

وقد تأثرت دولة الخلافة العباسية بذلك الصراع على النفوذ بين العرب والفرس والترك، وقوى نفوذ الفرس بفعل عدم قدرة الخلفاء المحافظة طويلاً على التوازن بين هذه الشعوب، فسيطروا على معظم المرافق، فكان منهم الوزراء والقادة المتسلطون بدءًا من عهد المنصور، حتى اضطر هارون الرشيد إلى نكبة وزرائه البرامكة، ثم رجحت كفتهم بعد انتصار المأمون على أخيه الأمين، وبلغ بنو سهل، وهم فرس، منزلة كبيرة في عهده، ورأى المعتصم أن يصطنع لنفسه عنصرًا جديدًا يعتمد عليه، فاتخذ من الأتراك بطانة وأداة، ووزراء، وقادة فقضى بذلك على النفوذ الفارسي ..

وبوفاة الواثق في عام (232هـ / 847 م) ينتهي العصر العباسي الأول .. وفقدت دولة الخلافة العباسية فعاليتها في العصر العباسي الثاني الذي ابتدأ في نفس العام، وذلك نتيجة لضعف لهيئة الحاكمة، مما أدى إلى إضعاف السلطة المركزية للدولة سياسيًا وإداريًا وماليًا وبالتالي أخذت الولايات تنفصل عنها.. لكن المباديء التي نادت بها الثورة، ظلت تؤتي ثمارها على الرغم من ضعف الخلافة وانتقلت الدولة

من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم، وقامت في الأطراف دول انفصالية ودخلت شعوب جديدة في المجتمع الإسلامي، تمكنت من الوصول إلى الحكم، ووقع الخلفاء تحت نفوذهم، مما أدى إلى تحجيم دورهم السياسي الفاعل، فبرز الأتراك على الساحة السياسية وقد حملوا عبء إدارة الدولة وتوارى الخليفة في الظل ..

وتحول مسار التاريخ السياسي، الذي لم يعد تأريخًا للخلافة، وإنما أضحت الشعوب الإسلامية هي التي تصنع هذا التاريخ وتوجهه، فقد برزت العنصريات في ظل شعار المساواة بروزًا للامركزية، و من الطبيعي في هذا الوضع الشاذ، أن تتجه جهود المؤرخين إلى تأريخ سياسات الشعوب الإسلامية كجماعات إقليمية تسعى إلى تنمية شخصيتها ومصالحها، وتقوية قبضتها على ما تسيطر عليه، بدلاً من الاتجاه إلى تأريخ أعمال الخلفاء ..

وتلاشت في هذا العصر، فكرة جمع العالم الإسلامي تحت قيادة سياسة واحدة، وتأرجحت علاقات الخلافة مع الدول الإقليمية بين العداء السافر حينًا والتعاون المثمر أحيانًا أخرى ..

وشكل العصر العباسي الثالث الذي ابتدأ في عام (334هـ/ 945م) ردَّه فعل مناهضة للنفوذ التركي الذي سيطر على مقدرات الخلافة في العصر العباسي الثاني، ومثل حركة فارسية ـ شيعية تزعمها بنو بويه الذين أسسوا دولاً انفصالية في فارس والأهواز وكرمان والري وأصفهان وهمذان، وتمكنوا من فرض هيمنتهم الفعلية وبسط سلطتهم على العراق حتى عظم نفوذ هذه الأسرة وسمي باسمها العصر العباسي الثالث ..

وقد حافظ البويهيون بعد تردد، على منصب الخلافة، لكنهم سيطروا على مقاليد الأمور، وتصرفوا بشكل مطلق، واستمرت مظاهر ضعف الخلفاء، وفقدان هيبتهم مسيطرة طيلة هذا العصر ..

وشكل العصر العباسي الرابع، الذي ابتدأ في عام (447هـ/ 1055م) ردَّه فعل مناهضة للنفوذ الشيعي، ويتشابه هذا العصر مع العصر السابق من حيث تركيز

السلاجقة الذين حلوا محل البويهيين، على المشرق الإسلامي فبسطوا هيمنة فعلية على مقدرات الخلافة مع احترام شخص الخليفة ومركز الخلافة، ويختلفان من حيث المذهب الديني بفعل اعتناق السلاجقة المذهب السني الذي يعتبر الخليفة العباسي رئيسه الروحي ..

وتأرجحت علاقة الخلافة بهؤلاء السلاجقة بين التعاون المثمر والعداء السافر، خاصة في فترة تفكك وحدة السلاجقة، فمال الخلفاء إلى الانعتاق من الطوق السلجوقي، لكن الخلافة رأت نفسها عاجزة عن وضع حد للاضطرابات الناجمة عن تنازع الأسرة السلجوقية مما دفعها إلى الاستعانة بالخوارزميين للقضاء على السلاجقة، وأوقعها ذلك في نزاع مع القادمين الجدد أيضًا بفعل طمعهم في الهيمنة على اختصاصاتها ..

وحتى تتخلص من سيطرة الخوارزميين عمدت الخلافة إلى الاستعانة بعنصر جديد هو العنصر المغولي الذي تميز بقسوته ووحشيته وقد سقطت تحت ضرباته الموجعة في عام (656هـ/ 1258م).

المذاهب المختلفة :

كان لتعدد المذاهب واختلاف الفرق أثر سيئ وخطير على الإسلام والمسلمين، فالإسلام الموسوم بالسماحة، الداعي إلى السلام قد تخضبت أيدي أبنائه بدماء بعض نتيجة للخلافات المذهبية، وضيق الأفق الذي حَلَّ بهؤلاء المتعصبين لمذاهبهم، وانتهى الأمر في كثير من الأحيان ـ ولفترات طويلة من الزمان ـ إلى القتال الدامي الذي ترك رواسب كثيرة في نفوس المسلمين من أبناء الطوائف المختلفة ..

وقد بدأت دماء المسلمين تسيل أول الأمر على يد الخوارج، الذين رأوا أن الإسلام لا يتم إلا بالجهاد وقتل باقي المسلمين ممن لا يعتنقون مذهبهم، ومن بعد الخوارج قام القرامطة الذين قضوا مضجع العالم الإسلامي، وحل شرهم في كل بلد، وأسالوا الدماء في كل صعيد ووادٍ ..

هذه الآلآف من أرواح المسلمين التي أزهقت بسيوف الخوارج والقرامطة لم يكن سبب إزهاقها إلا الأفق الضيق والتعصب الأعمى، والإسلام من كل ذلك براء

ومع عجلة الزمان أخذ الخطر ينتشر من مكامنه وأخذ الصراع بين المذاهب المختلفة ـ بخاصة الشيعة والسنة ـ يحتال مكانًا ظاهرًا في حياة المسلمين، والغلبة للقوى صاحب السلطان من الطرفين، وهكذا نجد الشيعة حينًا معتدين غالبين، ثم ينتقل الأمر لم يكن مقصورًا على معسكري الشيعة والسنة بل كثيرًا ما وقع الخلاف بين أحزاب السنة أنفسهم ..

وإذا ما تتبعنا المصادمات والخلافات التي وقعت بين الشيعة والسنة، سواء أكان المعتدون هؤلاء أم أولئك، فإننا سنجد صفحات دامية سوداء لوثت أفق الحياة الإسلامية لبضعة قرون من الزمان..

فرجل فاضل مثل أبي عبد الرحمن النسائي ـ وكان متشيعًا ـ يُسأَل في دمشق عن معاوية رضي الله عنه وفضائله فيرد ردًا به مساس بالخليفة الأموي، فإذا بالناس يدفعونه ويخرجونه من المسجد، ويدوسونه حتى يموت بسبب ذلك ..

وينشب في مصر في يوم عاشوراء سنة 350هـ خلاف بين الجنود السنة من أتراك وسوادنيين من جانب، والشيعة من جانب آخر، ويسير الجنود في الشوارع يسألون من يجدونه في الطريق: من خالك؟! فإذا لم يقل : معاوية يلقي من الضرب والأذى ما لا طاقة له به ..

وتقع فتن دامية أعوام 408هـ 444هـ 445هـ 449هـ ويجري قتال رهيب بين كل من الشيعة والسنة وتسيل الدماء أنهارًا، وتخرج نساء الشيعة ناشرات شعورهن حزنًا على من ماتوا من أزواجهن، ويلهبن عواطف العامة، فيشتد الأمر، وتشتعل الحرائق إلى أن تأتي على الأخضر واليابس لغير ما سبب إلا أن فريقًا من المسلمين يخالف فريقًا آخر في الرأي ..

وفي مصر نقرأ في أحداث سنة 353هـ أن أحد كبار الشيعة يحبس لغير سبب فيموت في الحبس، فيحمل إلى قبره، ولكن يأبى التعصب الكريه أن يترك جثة الرجل تمر في أمان، بل يلتحم الجند بأصحاب الشيخ، وتقع بين الفريقين معارك دامية ..

على أن بعض الشيعة أنفسهم كانوا مسئولين عما يصيبهم من الأذى في بعض الأحيان لإظهار تعصبهم ضد الصحابة الكرام، ولعنهم جهارًا، الأمر الذي كان يثير عليهم جمهور المسلمين، ففي أحداث سنة 345هـ قامت فتنة كبيرة في أصبهان ـ وكان سكانها سنيين ـ لأن رجلاً من أهالي قم ـ وهم شيعة غلاة ـ قد سبَّ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فوقع كثيرٌ من القتلى، ونهبت أموال التجار من أهل "قم".

ويقال إن "قم" هذه كان يسكنها قوم من الغلاة هم "الغرابية" ومذهبهم أن المال كله للبنت، فلم ولى أمرهم قاض حكم للبنت بالنصف فهددوه دون قتل، وإنما يحكمون للبنت بكل المال تكريمًا للسيدة فاطمة الزهراء ..

على أن الشيعة لم يكونوا المعتدى عليهم بصفة دائمة فكثيرًا ما كانوا المعتدين، خصوصًا إذا كانت الأمور في يد دولة شيعية كالبويهيين أو الفاطميين، أو حيث يكثر

تجمعهم فلم يكن إنسان يستطيع أن يذكر الصحابة بالخير في بعض الأزمنة في الكوفة، لأن مصيره يكـون القتل السريع، ولذلك قيل: من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ بالكوفة وليقل: رحم اللـه عثمان ..

وكان في القيروان قاضٍ سنيٍّ اسمه أبو سعيد، فاستدعاه داعي الدعاة الفاطمي وطلب إليـه أن يعتنق المذهب الشيعي فرفض القاضي قائلاً: لو نشرتني إلى اثنين ما فارقت مـذهب مالـك، فـأمر بـه داعي الدعاة فقطع لسانه ..

وكان البويهيين لتعصبهم للتشيع يكرهون أهل السنة، وكثير ما أوقع معز الدولة البويهي الأذى بالخلفاء من قتل أو سمل عيونهم لا لشئ إلا أنهم سنيون ..

على أن أكثر ما حل بأهل السنة، من أذى كان على يد الشيعة من الفاطميين، فقد ضرب رجـل من مصر وطيف به القاهرة لأنهم وجدوا عنده "الموطأ" للإمام مالك، وأمـر الحـاكم بـأمر اللـــه نائبـه بدمشق بعقاب رجل مغربي ضرب وطيف به على حماره ونودي هذا جزاء من أحـب أبـا بكـر وعمـر، وبعد انتهاء الطواف ضربت عنقه ..

وقد بالغ الفاطميون في إيذاء أهل السنة، فعزلوا كل السنيين من المناصب الحكومية، وحبـسوا قاضي القضاة لأنه رفض أن يعترف بإمامة على، وسبوا الصحابة والخلفـاء الراشـدين بكتابـات منقوشـة على جدران المساجد وفي الشوارع، ولعنوا أهل السنة على المنابر، إلى غير ذلك مـن أصـناف الأذى التـي أريق بسببها الدماء حينً، و حلَّ الأذى والتحقير مكان الدماء حينًا آخر ..

ولم يقف أمر الخلاف الدامي بين المسلمين على الـسنة والـشيعة وحـدهم، بـل إنـه جـرى بـين المعتزلة بمساعده بعض أهل السنة ممن رفضوا القول بخلق القرآن ..

ولعل أياديَ خفية كانت حريصة على إذكاء نار الفتنة بين المـسلمين حتـى بـين أبناء الطائفة الواحدة، فقد جرت خلافات ومصادمات بين أهل السنة أنفـسهم، ولقـد كان الحنابلة (أنصار أحمد بن حنبل) على رأس المعتدين دائمًـا، واشـتهروا بـالعنف في

معاملة خصومهم من أبناء المذهب الشافعي، فقد ثاروا عليهم، وألحقوا بهم الاعتداء وأرادوا أن يجعلوا لأنفسهم مركزًا حصينًا ينقضون منه على خصومهم، فبنوا مسجدًا في بغداد جعلوا منه وكرًا للمشاغبة، واستعانوا بفريق من العميان مسلحين بالهروات كانوا يطلقونهم على الشوافع فيوسعونهم ضربًا حتى شارفوا على الموت ..

وبلغ الأمر بالحنابلة وعنف خصومتهم أن منعوا دفن ابن جرير الطبري، فاضطر أصحابه أن يدفنوه في داره ليلاً، فقد استعانوا بالعامة في ذلك، لا لشئ إلا أن الطبري لم يعترف بابن حنبل كفقيه واعتبره محدثًا ليس غير.

الدول الانفصالية الكبرى :

طال عهد العباسيين (132 ـ 656هـ) فوصل إلى ما يقرب من خمسة قرون وربع القرن، وضعفت أيامهم في آخرها إذ زاد ظهور العصبيات فقامت دول على أساسها، ولم يكن ثمة داعٍ لقيامها لولا فكرة العصبية التي حملتها، واللغة التي أحيتها من جديد؛ فظهرت الدولة السامانية، والغزنوية، والخوارزمية، ولا شك فإن الطموح السياسي كان أساسًا في نشأتها، ثم نما باسم العصبية لداومه، ودعم الشعب لها ..

كما انفصلت أجزاء عن الدولة رسميًا، وأعلنت عن قيام خلافة مستقلة فيها، فكانت الخلافة الأموية في الأندلس، والفاطمية في مصر وأجزاء من إفريقية، ولم تكن هذه الدول الإسلامية على تفاهم فيما بينها، بل على العكس كانت معاديةً بعضها لبعض، وكل منها على صلة بأعداء الثانية، فالعباسيون في بغداد يصادقون حكام الفرنجة خصوم الأمويين في الأندلس، هذا مع العلم أنه لا يوجد في دار الإسلام سوى خليفة واحد، والمسلمون جميعًا تضمهم دولة واحدة، وهذا يدل على ضعف الروح الإسلامية لدى المسلمين في ذلك العهد بالنسبة إلى ما كان عليه المسلمون الأوائل في الصدر الأول.

ظهور المدارس الفكرية المختلفة والمتباينة :

نتيجة الترجمة، واختلاط المسلمين ببيئات متنوعة، وثقافات مختلفة، نتجت تحليلات كثيرة مختلفة لنفس الحدث، مما أدى إلى بلبلة فكرية كبيرة فهذا يمدح في شخصية، وآخر يذم في نفس الشخصية، وهذا يصف رجلاً بالفكر المتنور المتحرر وآخر يصف نفس الرجل بالإلحاد والزندقة وهكذا..

فإذا نظرنا إلى أفكار المعتزلة بصفة عامة وجدناهم أكثر الفرق الإسلامية أخذًا بلباب الفلسفة اليونانية والانتفاع بها، فلا نكاد نقرأ لواحد من أئمتهم حتى نلمس ظلال الفلسفة اليونانية متمشية في جنبات أفكاره، لعل هذه الفلسفة كانت أوضح ما تكون عند أبي الهذيل العلاف، وإبراهيم النظام، والجاحظ ..

ومن أهم المسائل التي نادى بها المعتزلة "مسألة الاختيار" مما دفع كثير من المسلمين إلى مناصبتهم العداء، فنسبوا إليهم أنهم متأثرون فيها بمذهب زرادشت، وذهب البعض إلى تسميتهم "بمجوس الأمة الإسلامية "..

وظهر على أيدي المعتزلة بعض القضايا الخطيرة مثل "قضية خلق القرآن"، وتبني بعض الخلفاء العباسيين هذه القضية وعملوا على نشرها بين الأمة الإسلامية أمثال الخليفة المأمون، والمعتصم، والواثق.

فلذلك نظر المعتزلة إلى هؤلاء الخلفاء باعتبارهم أصحاب فكر متنور ومتحرر، أما أهل السنة فقد وصفوهم بالإلحاد والزندقة ..

تشويه التاريخ العباسي عن طريق :

- الشيعة (الطالبيين).
- المستشرقين .
- المستغربين .

(أ)ـ الشيعة (الطالبيون):

لقد لعب الشيعة في تشويه تاريخ بني العباس الدور نفسه الـذي لعبـوه في تـشويه صـفحات بني أمية بالاشتراك مع العباسيين خصوم بني أمية السياسيين، وحكام العـصر الـذي دُوِّنَ فيـه التـاريخ، ذلك أن آل البيت الذين كانت الدعوة باسمهم، وعلى أساسها انفرط عقد بني أمية قد انفرد من بينهم بنو العباس الذين استأثروا وحدهم بالسلطة دون بني عمومتهم من أبنـاء أبي طالـب، وأزاحـوهم مـن وجهم، بل ومن جانبهم...الأمر الذي جعل أبناء أبي طالب يحقدون على بني العباس، وينازعونهم الأمر، ويعملون على تشويه سمعتهم وبالتالي تاريخهم.

ينظر المسلمون إلى آل البيت رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم نظـرة احـترام وتقـدير، وكـان لهذه النظرة أثر كبير في الحياة السياسية عامة، وينحصر آل البيت في أبناء أبي طالب عـمّ رسـول الـلــه صلى الـلـه عليه وسلم الذين أسلموا وهم: علي، وجعفر، وعقيل، رضي الـلـه عنهم، وفي آل العباس عمّ رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم والذي أسلم مع أخيـه الحمـزة رضي الـلــه عـنهما مـن بـين أعـمام رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم ولكن حمزة سيد الشهداء لم يعقب، ولم يـشمل آل البيـت في أبنـاء أعمام رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم من الزبير، والحـارث، وأبي لهـب، حيـث جـاء الإسـلام هـؤلاء الأبناء متأخرًا، وربما انحصر آل البيت في أبناء علي رضي الـلـه عنه، من زوجه فاطمة ابنة رسـول الـلــه صلى الـلـه عليه وسلم حيث انقطع عقب رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم إلا منها، هذا إضـافة إلى قرابة علي، وسابقته في الإسلام، وجهاده أعداء الـلـه، وإصهاره لرسول الـلــه صـلى الـلــه عليـه وسـلم، حتى رأى بعض المسلمين في هذا سببًا في أحقيته بالخلافة، وأحقية أبنائـه مـن بعـده، رغـم مـا في هـذا القول من مجانبة عن تعـاليم الإسـلام، لأن الخلافـة ليـست وراثيـة، وإنمـا لهـا شروط يفرضـها الـصلاح والتقوى والقوة في الحق، وتحق لأي مسلم تتوفر فيه الشروط ...

وعندما قامت الدعوة العباسية على "الرضا من آل محمد" ظن أبناء علي رضي اللـه عنه أن لهم في الدعوة نصيبًا، فلما قام العباسيون بالأمر، واستأثروا بالحكم، وقف شيعة أبناء علي موقفًا معاديًا للعباسيين وقاموا يعملون ضدهم، فمن جانب ثاروا ضدهم، واستمرت حركاتهم، ومن جانب آخر اتهموهم بالظلم، ورموهم بالمفاسد، وأشاعوا الدعايات ضدهم، والسخرية منهم ومن تصرفاتهم، وبالمقابل فقد لاحق العباسيون خصومهم السياسيين من شيعة أبناء علي رضي اللـه عنه وشددوا عليهم، واضطهدوهم، ونكَّلوا بزعماء ثوراتهم كي يلقوا بينهم الرعب، وأحيانًا حاولوا استرضاء بعضهم اتقاءً وخوفًا من حركاتهم، فتقوقع الشيعة على أنفسهم، بعد أن أصابهم ما أصابهم؛ وجعلوا لأنفسهم عقيدة خاصة بهم اختلفت عن الإسلام إذ جعلوا لأئمتهم العصمة، وعَدُّوهم مخصصين من عند اللـه، ونسبوا لهم التأويل والمعرفة دون سواهم، وطعنوا في صحابة رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، ونسبوا هذا كله إلى أعلام المسلمين من آل البيت فدوَّنوا كتبًا ونسبوها لسابقين مثل: نهج البلاغة الذي نُسِبَ لسيدنا علي بن أبي طالب رضي اللـه عنه، كما أوجدوا فقهًا خاصًا ونسبوه لجعفر الصادق رحمه اللـه وهكذا ..

وأشاعوا الكذب على الخلفاء العباسيين وخاصة الأقوياء منهم والصالحين أمثال: هارون الرشيد الذي كان قويًا، ولننظر إلى بعض هذه الافتراءات التي يبدو فيها الاختراع مباشرة، أخرج السلفي في الطيوريات بسنده عن ابن المبارك قال: لما أفضت الخلافة إلى الرشيد وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي، فراودها عن نفسها، فقالت : لا أصلح لك، إن أباك قد طاف بي، فشُغِفَ بها، فأرسل إلى أبي يوسف، فسأله: أعندك في هذا شئ؟ فقال: يا أمير المؤمنين أو كلما ادَّعت أَمَةٌ شيئًا ينبغي أن تصدق، لا تصدقها فإنها ليست مأمونة، قال ابن المبارك: فلم أدرِ ممن أعجب من هذا الذي وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرج على حرم أبيه، أم بهذه الأمة التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أم من هذا فقيه الأرض وقاضيه! قال: اهتك حرمة

أبيك، واقصد شهوك، وصيِّرْه في رقبتي، وذكروا أشياء عن الرشيد وأبي نواس ينـدَي لها الجبين، وأبو نواس لم يَرَ الرشيد، ولم يدخل عليه، وذكروا أشياء أكثر من ذلك عن صلة أبي نواس بزوج الرشيد زبيدة بنت جعفر بن المنصور، فقالوا: إن أبا نواس دخل مرة قصر الخليفة فرأى الرشيد نائمًا مغطى فاستلقى فوقه، فرفع الرشيد رأسه ونهره، وقال: ما هذا يا أبا نواس؟ فقال: معذرة يا أمير المؤمنين فقط ظننتك السيدة زبيدة ـ والله ويتهمون الأمين بكثرة شربه الخمر، ثم نراهم يصفونه بأنه أراد قتل أبي نواس عندما انتهى إليه أنه يشربها.. إلى غير ذلك من هذه القصص المكذوبة التي ألفوها وملأوا بها كتب التاريخ ..

فإذا كان الخلفاء بهذا اللهو المفرط، وهذا المجون الواسع فمن الذي كان يسوس أمور البلاد، ويذود عنها، ويرسل الجيوش، وينطلق أمامها أحيانًا، وأحيانًا أخرى ينطلق الأمراء من أبناء الخليفة، وإخوته وأبناء عمومته، والذين من المفروض حسب هذه الروايات أن يكونوا مثل إمامهم ..

وإذا كان الخلفاء على هذه الصورة المدونة في التاريخ فمن الذي شاد هذه الحضارة لعظيمة التي نفتخر بها بين أمم الأرض، وهي في أعلى مستو مما شادته الأمم الأخرى.. أهكذا جاءت ودون تعب، ومن غير جهد، أم أقامها غير أسلافنا ثم نسبت إليهم .. حقيقة إن الذين شادوا حضارتنا رجال عظماء، ولكن التاريخ الذي دُوِّنَ بأيدٍ مغرضةٍ قد حَطَّ من شأنهم كثيرًا ..

وإن تواري كثيرٍ من الطالبيين واختفائهم قد سهل ادعاء كثير من الرجالات النسب الهاشمي، وبسبب حب المسلمين لآل البيت فإن كثيرًا من الطماعين في السلطة نسبوا أنفسهم لآل البيت حتى يلتف الناس حولهم ثم يقوموا بحركات ضد الدولة، ومن هذه الحركات كانت فتنة الزنج، ودعوة العُبَيْدِيين الفاطميين وبعض القرامطة، والفرق الباطنية، حتى اختلط الأمر على كثير من المؤرخين .

(ب)ـ المستشرقون :

إذا نظرنا في كتب المستشرقين التي تبحث في العصر العباسي الأول وجدناها تعطي أبشع صورة لذلك العصر، بل إن أغلب التشويه الذي نراه عند الباحثين العرب والمسلمين مقتبس عنهم، وما هو إلا ترديد ونشر ونقل لآراء المستشرقين الذين تتلمذوا لهم ولمصادرهم وكتبهم ومناهجهم، وصدقوا ما شاع من موضوعية المستشرقين ..

وقد دخل النقص والخطأ على تلك الدراسات الغربية من عدة وجوه منها :

ـ أولاً :

الاستجابة الناقصة للحادثة التاريخية وتفسيرها، وعن ذلك يحدثنا الأستاذ / سيد قطب ويقرر على الإنسان الذي يريد فهم حادثة أو تفسيرها: "أن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة، أو يستجيب لوقوعها في مداركه ولا يرفض شيئًا من استجاباته لها إلا بعد تحرج وتمحيص ونقد، فأما إذا كان يتلقاها بادئ ذي بدء وهو معطل الروح أو الفكر أو الحس ـ عن عمد أو غير عمد ـ فإن هذا التعطيل المتعمد أو غير المتعمد، يحرمه استجابة معينة للحادثة التاريخية هذه الاستجابة الناقصة هي أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية، وذلك أن هناك عنصرًا ينقص الطبيعة الغربية ـ بصفة عامة ـ لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة والحياة الإسلامية على وجه الخصوص.. عنصر الروحية الغيبية وبخاصة في العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية، والطريقة التجريبية على وجه أخص وكلمات كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر في العقلية الغربية الحديثة.. هذا النقص يُعَدُّ عيبًا في منهج العمل التاريخي ذاته، وليس مجرد خطأ جزئي في تفسير حادثة أو تصوير حالة، ومن ثم فالمنهج الأوروبي في البحث يسبب تعطيل أحد عناصر الاستجابة سواء كان ذلك

ناشئًا عن الطبيعة الغربية ذاتها وملابسات حياتها البيئية التاريخية، أو ناشئًا عن تعمد المؤرخ الأوروبي تعطيل هذا العنصر، استجابة لمنهج معين في الدراسة، هذا المنهج غير صالح لتناول الحياة الإسلامية بل لتناول الحياة الشرقية على وجه العموم، ولكن عدم الصلاحية يتجلى في جانب الدراسات الإسلامية أوضح وأقوى ..

ومن هنا ندرك الخطأ الذي وقع فيه الأستاذ/ ريسلر عند تفسيره للفتوحات حيث يقول: "إذا كانت هذه الغزوات الحربية قد استجابت للغرائز العريقة في القدم لرجال تعودوا أن يقاتل بعضهم بعضً، وإذا كان هؤلاء الرجال قد كفوا عن القيام بهذه اللعبة على أرضهم الخاصة، فإن هذا يفسر لنا أسباب انتشار فتوحاتهم كما يبرر كذلك وفرة هجماتهم وعنفه....". وهذا ينافي واقع الفتوحات التي اشتهرت بسموها ورفعتها وغايتها النبيلة، فما انطلقت تلك الفتوحات إلا تنفيذًا لغرض الجهاد، وتوطيدًا للدعوة إلى الإسلام، وأما الاستجابة للغرائز، وتنفيذ الرغبات والشهوات فأمور حاربها الإسلام وأمر بكبح جماحها.

ـ ثانيًا :

ومما أدخل النقص في الدراسات الغربية تلك النظرة إلى الأحداث والوقائع من زاوية رؤية معينة، صبغوا ولونوا بها تاريخنا وحضارتنا وعن ذلك يقول الأستاذ/ سيد قطب: "إنه لا يخفي أن كل امريء يختلف شكله باختلاف زاوية الرؤية، وكذلك الشأن في الأحداث والوقائع، والأوروبي بطبيعته، ميال إلى اعتبار أوروبا هي محور العالم، فهي نقطة الرصد في نظرة، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الحياة والناس والأحداث ومن هنا تتخذ في نظره أشكالاً معينة ليس هومن يملك الجزم بأنها أصح الأشكال، وهو يدركها في هذه الأوضاع ويفسرها ويحكم عليها كما يراها، وإذا كان بديهيًا أن أوروبا لم تكن هي محور العالم في كل عصور التاريخ، وكان الأوربي لا يملك اليوم أن يتخلص من وهم وضعها الحاضر حين ينظر الى الماضي.. أدركنا مدى انحراف الزاوية

التي ينظر بها الأوروبي للحياة الإسلامية التاريخية، ومدى أخطاء الرؤية التـي يُـضطر إليهـا اضـطراراً، ومدى أخطاء التفسير والحكم الناشئة من هذه الرؤية المعينة ".

فالأوروبي ـ مثلاً ـ ينظر إلى الفتاة المسلمة بنفس نظرته إلى الفتاة الأوروبية فيقول أحدهم عن تعليم البنات المسلمات: "يقوم تعليم البنات على تلقينهن تربية دينية قويمة، وعلى تعويـدهن الـصلاة وجعلهن في وقت مبكر صالحات للأعمال المنزلية، وبعد سنوات أيـضًا، يعلمـن قـرض الـشعر، والفنـون الزخرفية والموسيقى والرقص في المدارس المخصصة لذوي اليسار في المجتمع الإسلامي.."، فكما أن الفتاة الأوروبية تتعلم الرقص والموسيقى ـ ولا يثلب ذلك فيها ـ فكذلك الفتاة المسلمة في نظـره بـالرغم مـن الخلاف الكبير بين الحالتين: فالرقص والموسيقى محرمان في الإسلام ويثلبان في شرف الفتاة المسلمة ..

ـ ثالثًا :

التعمد في تـشويه الأخبـار، وافتعـال الأكاذيـب، ووضـع الافـتراءات ومـسخ التـاريخ والحـضارة الإسـلامية مـسخًا، وهــذا التعمــد بــسبب العــداء الموجــود بــين الـصليبية والإسـلام، والـصراع بــين الاستعماروالشرق، وبسبب نوايا الاستعمار الخبيثة ، ولأن هـذه الطريقـة في الدراسـة ترسـخ في أذهـان الجيل المعاصر أنه ليس له أمجاد، وليس له تاريخ مشرف، وأنها تساعد على نشأة جيـل لا يكـن لأمتـه سوى البغض والاحتقار، ولا شك أن مثل هذا الجيل يملك الاستعداد التام لتغريب شخصيته ..

وهذا ما حصل فعلاً لأننا نحن الأمـة الإسـلامية إنمـا ننظـر الآن إلى أنفـسنا وإلى سـوانا بعدسـة صنعتها أيد أجنبية عنا، أجنبية عن عقيدتنا وتاريخنا، أجنبية عن مشاعرنا وإدراكنا، أجنبية عـن فهمنـا للأمور وإحساسنا بالحياة وتقديرنا للأشياء ثم هي بعد ذلك كله ـ مغرضة في الغالب ـ تبغي لنا الشر لا الخير؛ لأن مطامحها ومطامعها ومصالحها الخاصة وأهدافها القومية كلها تدفع بها دفعًـالأن تبغـي لنـا الشر؛ لأن خيرنا لا يتفق مع خيره، ولأن مصالحنا تعطل مصالحها ..

ولذا فقد أصبحنا ندرس في مدارسنا ومعاهدنا على وجه الخصوص تاريخًا إسلاميًا مشوهًا وتاريخًا أوروبيًا مضخمًا، لا عن مجرد خطأ غير مقصود، ولكن عن نية مبيتة من الاستعمار الغربي الذي يهمه ألا نجد في تاريخنا ما نعتز به، وأن نرى أوروبا على العكس هي صاحبة الدور الأول في التاريخ الإنساني فإذا يئسنا من ماضينا واستعرضنا دورنا في الحياة البشرية، وامتلأت نفوسنا مع ذلك إعجابًا بالدور الذي قامت به أوروب، وإكبارًا للرجل الأبيض.. سَهُلَ قيادتنا على الاستعمار.. وذلت رقابنا للمستعمرين ..

وما أكثر الحوادث المفتعلة، والحقائق المزيفة، والأخبار الكاذبة الموضوعة التي نجدها في كتب المستشرقين التي لا تحصى، والأمثلة على ذلك كثيرة فعلى سبيل المثال ما كتبه "جاك. س.ريسلر" في كتابه "الحضارة العربية" تحت عنوان "البغاء" حيث يقول: "الدين من حيث المبدأ يحرم البغاء، لكن الدولة كانت تأذن به وتنظر إليه على أنه مصدر للدخل ..."..

فهو لم يُشِرْ إلى المصدر الذي أخذ عنه هذا الخبر، وهذا يثبت الوضع والدس لأنه كان يتكلم عن الدولة الإسلامية في القرون الأولى، وحالها معلوم، ولم يقل أحد بوجود مثل هذا، بل إن الحدود بقيت مطبقة إلى قرننا الحاضر، فكيف تبيح تلك الدولة البغاء بالحجة الواهية التي ذكرها ومع الأسف الشديد وبالرغم من كل هذا يقول المترجم في تقديمه الكتاب: "ولا ريب أن المؤلف قد أنصف الحضارة العربية وأبرز مكانتها ودروها الكبير في تاريخ الإنسانية، وكيف تأثرت شتى الحضارات بها؛ نظرًا لأصالتها وعمقها وشموله، وسعة آفاقها الرحبة وذلك كله بطريقة موضوعية، وتحليل دقيق، وتركيز رائع على الجوانب المضيئة فيها .."..

وهكذا نرى البلاء الذي حل بأهل الإسلام متمثلاً في الاقتداء بالغربيين والثقة المتناهية بهم، ومدحهم وإطرائهم حتى في المواطن التي يستحقون فيها كل الذم.

(ج)ـ المستغربون :

المستغربون هم أحد عناصر الهدم والتشويه في التاريخ الإسلامي، فقد كان الاستعمار حريصًا على طمس معالم التاريخ الإسلامي بتشويه صفحاته، ومحو الصورة لناصعة من أذهان المسلمين ..

فالجامعات الأوروبية وجهت تيار السياسة إلى خدمة الرغبات الاستعمارية، ثم انتقلت العدوى الفكرية إلى البلاد الإسلامية عن طريق المبعوثين الشرقيين إلى جامعات أوروبا، وصارت البرامج التعليمية وسيلة لإبعاد الشباب الإسلامي عن تاريخه وماضيه، وستارًا سميكًا على كل ما يرفع من شأن الإسلام، سواء في رجاله أو في تعاليمه ..

ثم دعموا أساليبهم الاستعمارية الموصلة إلى أهدافهم، فلجأ العلماء المستشرقون إلى تحريف الحقائق، وتزييف الوقائع الإسلامية وانتهزوا فرصة إقبال الشباب الإسلامي على مُؤَلَّفاتهم وجامعاتهم فسمموا أفكارهم، وهونوا عليهم عزة دينهم، وطعنوا في الإسلام ورجالاته وصوروهم لهؤلاء الطلاب في صورة تافهة ..

وما زالوا بكثير منهم، حتى انخدع بما سُمَّ، وآمن بما قرأ، فكانوا أبواقًا تنعق بما سمعت من خصوم دينهم ووطنهم، وأسندت إليهم مراكز التوجيه العلمي في دور التعليم الإسلامي، فنشروا السموم التي شربوها هناك من أوروبا، واستهانوا بأمجاد أسلافهم العرب، وحفظوا لكل شخصية مثالية ما يحط من قدرها،ويسقطها في نظر كل دارس لها ..

وأخذ كُتَّابهم ـ وصنائعُ الاستعمار الذين تخرجوا في مدارسهم وجامعاتهم ينشرون ويكتبون ما انطوت عليه صدورهم من الحقد على هذا الإسلام وأصحابه ..

وهكذا يعاني الإسلام من خصومه إلى الآن، أساليب جديدة تمليها الكراهية، ويدفع إليها الخوف من أن يصبح الإسلام قوة تعيد أيامه الأولى، فلا تستطيع قوة في الأرض أن تقف في سبيله.

الشيعة والسلطة :

لقد استغل كل طامح للسلطة حب آل البيت بل محبة أبناء أبي طالب خاصة فأظهر التشيع لهم، وحاول تحقيق مآربه من وراء ذلك؛ لذلك ظهرت فرق كثيرة حملت المظهر الشيعي، وسلكت مسلكًا فيه كل بعد عن الإسلام، وتحت هذا المظهر قامت حركة الزنج في جنوبي العراق، وعليه قامت القرامطة، والنصيرية والإسماعيلية والحمدانيون، ثم قامت الدولة العبيدية (الفاطمية) ومنها نشأ الدروز، هذا بالإضافة إلى الفرقة الإمامية (الاثنا عشرية) التي بدأت تصوغ أفكارًا لها، وتبلورها، ثم تنسبها للعصور التي خلت، وللرجال الذين مضوا، وما هم كذلك، واختلط الأمر على المؤرِّخين المحدَثين، وظنوا أن هذه الأفكار قد نشأت منذ صدر الإسلام، وحمّلوها عظماء رجال ذلك العهد أمثال علي زين العابدين بن الحسين وابنه زيد وحفيده جعفر الصادق، وشاع ذلك، وما جاء القرن الرابع الهجري إلا ومُدَّعُو التشيع يسيطرون على أكثر أرجاء الدولة الإسلامية ولم يعملوا على وحدة صفوفهم؛ ذلك لأنهم لم يكونوا فرقة واحدة، ولم يحملوا فكرًا واحدً، بل ولا هدفًا واحدًا، وإنما لكل إمارة أو دولة رقعة من الأرض تحكمها، الأمر الذي يدل على أنهم رجال طامعون، وأصحاب مصالح وغايات اتخذوا من التشيع وسيلة لهم للسيطرة على الحكم،وتحقيق أغراضهم من وراء ذلك؛ فقد سيطر القرامطة على الجزيرة العربية كلها باستثناء منطقة عسير، ووصلوا إلى الشام، وطرقوا أبواب مصر، وحكم الفاطميون شمالي إفريقية، ثم أخضعوا مصر وجعلوها قاعدة ملكهم، وأخضع الحمدانيون شمالي بلاد الشام، وسيطر البويهيون على الدولة العباسية، ومع ادعائهم جميعًا للشيعة إلا أن دولهم بقيت متفرقة، بل كثيرًا ما اقتتلت وتناحرت، فقد وقف الفاطميون في وجه القرامطة، وصدُّوهم عن مصر، وقاتل البويهيون الحمدانيين.

حركة الزنج: (255 ـ 270هـ/ 869 ـ 883م):

طبيعة الحركة وأهدافها :

قامت حركة الزنج في عام 255 هـ وأنهكت دولة الخلافة العباسية قبل أن تقضي عليها، وكان عماد هذه الحركة في باديء الأمر بعض العرب المغامرين من المهالبة والهمدانيين وغيرهم، أما الفئات التي شاركت فيها فهي متنوعة: الزنج، أهل القرى، العرب الضعفاء، عشائر عربية ثائرة على السلطة ..

أما فيما يتعلق بالشخصية التي قادت هذا الجمع، فهو علي بن محمد الفارسي الأصل، وهو شخصية محيرة فعلاً حيث يلاقي الباحث صعوبات جمة في معرفة نسبه، وذلك بفعل تقلباته السريعة، تبعًا للظروف التي كان يمر بها، واتصف بأنه رجل طموح وموهوب ..

ويبدو أن حياته كانت غير طبيعية فقد بدأها كشاعر في بلاط الخليفة بسامراء، ثم حاول القيام بحركة ضد النظام في البحرين للوصول إلى الحكم، إلا أنه أخفق في تحقيق مبتغاه، فسلك نهجًا جديدًا، وظهر كقائد ديني ومتنبيء، فادعى نسبًا علويًا (16) محاولاً أن يستثمر ما للشيعة من عطف وتأييد بين الناس، وقد أحلَّه أتباعه من أنفسهم محل النبي حتى جُبِي له الخراج ..

ويبدو أن جماعة كثيرة العدد في البحرين قد تنكرت له، مما دفعه إلى مغادرتها إلى البادية ليستقطب الأعراب، وادعى فيها النسب الشيعي على أنه يحيى بن عمر أبو الحسين، فالتف حوله بعض الأعراب استغلهم بإعادة السيطرة على البحرين، إلا أنه هزم وفر إلى البصرة ..

ووقف أثناء إقامته القصيرة فيها على أوضاعها الداخلية السياسية والاجتماعية حيث كان المجتمع البصري منقسمًا على نفسه، فحاول أن يستغل هذه الخلافات لصالحه إلا أنه فشل، وفي الوقت نفسه رأى في حياة العبيد فيها الذين يعملون في

المستنقعات المجاورة فرصة لتحقيق طموحاته لكنه طُرِدَ منها فذهب إلى بغداد، وفي بغداد استنبط نسبًا علويًا جديدًا فانتسب إلى أحمد بن عيسى بن زيد، ثم حاول الوثوب إلى السلطة مستغلاً الأوضاع المضطربة في حاضرة الخلافة، ولكنه لم يتمكن من ذلك بفعل إحكام الأتراك قبضتهم على الوضع، فعاد إلى البصرة في عام 255هـ ليتزعم حركة ثورية مدعيًا أن الله أرسله لتحرير العبيد وإنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس كما ادعى العلم بالغيب، وانتحل النبوة ..

والواقع أن فكرة المهدي المنتظر رافقت علي بن محمد في جميع مراحل حياته السياسية؛ فاستغلها بذكاء، وهو بادعائه المهدية، كان يضرب على وتر حساس في نفوذ جماعة العلويين الذين برح بهم الشقاء، فكانوا يأملون في ظهور مهدي منقذ يزيل عنهم الغمة، ويفرج عن أيامهم كربتها، وركز كثيرًا على عراقة أصله وكتبها على نقوده وسمي نفسه "المهدي علي بن محمد" المنقذ ..

وجهر علي بن محمد في إحدى مراحل حياته بمذهب الخوارج الذين يلائم مبدأهم ميل أصحابه الشورية، فحارب من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة، وكتب شعاراته على الرايات باللونين الأخضر والأحمر وهما لون العلويين ولون الخوارج ..

لقد تعارضت أفكار علي بن محمد عن الخلافة مع مفهوم الشيعة لها التي تؤكد على الوراثة، وتبنى رأي الخوارج القائم على الشورى، مما نفَّر منه الأعراب البسطاء، وعرب البصرة والأهواز وواسط والمناطق المحيطة بها، كما رفض قرمط أن يرتبط معه بعوامل دينية، أما شدته وقسوته تجاه أعدائه فقد جعلته خارجيًا متطرفً، يُضَاف إلى ذلك أنه عامل أسرى الحرب معاملة الرقيق، ووعد أتباعه بأنه سيملكهم المنازل والعبيد، وهذا يعني تحويل حياة الزنج من أرقاء إلى ملاك للعبيد .

والواضح أن هذا التناقض في عقيدة الحركة يفرغها من أي صبغة عقائدية، ويجعلها حركة مسلحة ضد النظام ليس إل، كما يجعل من قائدها رجلاً مغامرًا طموحًا إلى السلطة..

دوافع الاستجابة لهذه الحركة :

تعددت دوافع الاستجابة لهذه الحركة ما بين سياسية، واقتصادية واجتماعية :

الدوافع السياسية :

بسبب تردي أوضاع الخلافة، نتيجة تصاعد نفوذ الأتراك إلى جانب صراع خفي بين المترفين والعبيد وجد متنفسًا له في دعوة علي بن محمد ..

الدوافع الاقتصادية :

نتيجة الأوضاع المالية المتدهورة وظاهرة التكوين الطبقي داخل المجتمع الإسلامي من طبقة ثرية إلى طبقة تجار فالطبقة العامة العاملة ..

واتسعت الهوة مع مرور الزمن بين هؤلاء وبين الطبقة الإقطاعية، وبلغ التناقض الاجتماعي مداه، مما كان دافعًا للاستجابة لنداء الثورة الذي أطلقه علي بن محمد ..

الدوافع الاجتماعية :

بفعل نمط حياة فئات العبيد التي كانت تعيش في ظروف قاسية وسيئة من خلال عملها في تجفيف المستنقعات وإزالة السباخ عن الأراضي، ثم نقل الملح إلى حيث يعرض ويباع، لقاء وجبة طعام، فأرادت هذه الفئات التخلص من هذا العمل الشاق ومن ضنك العيش ..

وقد سيطر علي بن محمد خلال عشرة أعوام (255 ـ 265هـ) على رقعة واسعة تمتد بين الأهواز وواسط، وهدد بغداد، عندئذ عهد الخليفة المعتمد إلى أخيه أبي أحمد الموفق طلحة بمحاربته؛ فاصطدم بمجموع الزنج وقتل علي بن محمد، واستسلم من بقى من أتباعه ..

وبإخماد الثورة، أُسْدِلَ الستار على هذه الحركة التي قضَّت مضاجع الخلافة لعباسية، وكلفتها الكثير من الجهد والأموال والأرواح والتي دامت أكثر من أربعة عشر عامًا (255ـ 270هـ)

حركة الزنج في الميزان :

لقد انطلقت حركة الزنج من واقع الألم والاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي بين مستنقعات البصرة وسهولها، وكانت بدايتها ناجحة انسجمت فيها أهدافها مع أفعالها لكن النزعة الفوضوية التي طبعتها وهي في قمة مواجهتها أدت إلى تقلص أبعادها الاجتماعية، وقد زاد من تلك النزعة افتقارها إلى برنامج ثوري يصوغ تطلعات وأهداف القائمين بها، ويوضح العلاقة بين القيادة والأتباع، كما يلاحظ أن رجالها استهدفوا الانتقام لا الإصلاح، والانقلاب الاجتماعي لا التقويم، وأن قائدها لم يستطع أن يحرر ذاته من مسألة فكرة الزعامة القرشية، بالإضافة إلى أن أطرها الثورية كانت محلية ومحدودة ولم تكن لديها تطلعات شاملة، وندرك من هنا عدم نجاح علي بن محمد في اكتساب قطاعات كبيرة من المجتمع العراقي كالفلاحين وكبار الملاك والتجار والحرفيين، وحتى القرامطة، فأصبح العبيد بمفردهم ضعفاء رغم عددهم الكبير.

ومن جهة ثانية فإن سرعة الأحداث، وتصميم العباسيين على القضاء عليها، لم يعطيا قائدها مهلة لتنظيم صفوف قواته،وتمكنه من بناء مجتمع مستقر ذي أنظمة خاصة لذلك كان من الطبيعي أن تفقد هذه الحركة طابعها الإنساني والثوري مما دفعها إلى نهايتها المحتومة،لكن قاعدتها الثورية التي تشتت استطاعت أن تكون إحدى الدعائم الأساسية التي دفعت الحركة القرمطية إلى الظهور فيما بعد.

الزيدية :

حفل العصر العباسي بكثير من الحركات السياسية والدينية التي كان لها أثر بعيد في تاريخ هذا العصر، والعصور اللاحقة، فقد قام الشيعة بحركات تمخض عنها انفصال كثير من أجزاء الدولة، وانتشار المبادئ الشيعية، خاصة الإسماعيلية والقرامطة، وتكللت جهود الإسماعيلية بقيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب إلى جانب قيام الدولة العلوية الزيدية في طبرستان ..

والواقع أن عهد المتوكل تميز بالتضييق على الشيعة عامة، وقد تأثر هـذا الخليفـة بـآراء وزيـره عبيد اللـه بن خاقان الذي اشتهر بكراهيته لهذه الفئة ..

وقام الزيدية في عهد المستعين بعدة حركات ضد السلطة المركزية لعل أبرزها خروج يحيى بـن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد في الكوفة ويبدو أن لخروجه علاقة مباشرة بتحسين أوضاعه المادية ..

وجمع يحيى حوله عددًا من الأعراب وجماعة من سكان الكوفة ودخل هـذه المدينـة بعـد أن هاجمها ودعا فيها إلى الرضا من آل محمد لكن حركتـه لم يكتـب لهـا النجـاح، إذا اصـطدم بـه القائـد العباسي الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن مصعب، وتغلب عليه، وقُتِلَ يحيى في المعركة ..

أما الحركة الزيدية الأخرى التي تركـت أثـرًا فكانـت خـروج الحـسن بـن زيـد بـن محمـد بـن إسماعيل في نواحي طبرستان عام (250هـ/ 846م) وكان سوء تصرف الولاة العباسـيين في تلـك المنطقـة، السبب الأبرز لخروجه، مما دفع السكان إلى الارتماء في أحـضان الطـالبيين، وبـايعوه كـما بايعـه رؤسـاء الديلم، ولقب نفسه "داعي الخلق إلى الحق"، أو "الداعي الكبير" وتمكن خلال ثلاثة أعوام من الاستيلاء على جميع طبرستان وقسمًا مهمًا من الديلم والري، وأخذ الطالبيون يتقاطرون عليه من الحجاز والشام والعراق، بعد أن ذاع صيته واشتدت شوكته..

الإسماعيلية

في الوقت الذي كانت حركة الزنج تُحْتَضَر ظهرت دعوة الإسماعيلية التي يعـود تاريخ حضورها على المسرح السياسي إلى أواخر عهد الدولة الأموية عندما انضم عـدد كبير من الزيدية إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق، وبعد وفاتـه انقـسمت الـشيعة الإماميـة إلى قـسمين بفعـل اخـتلاف الـرأي في كيفيـة تحديـد الحـق الـوراثي لاختيار الإمام: وهما الإمامية الموسـوية، وقـد أُطلـق عليهـا فـيما بعـد:الاثنـا عـشرية،

اعتقدوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع، والإمامية الإسماعيلية الذين اعتقدوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وهو أكبر أولاد أبيه، ومع أن وفاته حصلت في حياة والده، فقد حول أتباعه الإمامة إلى ابنه محمد المستور، وهو عندهم الإمام السابع، ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية لتميزهم عن الاثنى عشرية ..

ومن أشهر نواب الأئمة الإسماعيلية الذين عملوا على نشر المذهب وترأسوا الدعوة ميمون القداح الذي وضع أسس المذهب الإسماعيلي ممهدًا السبيل لابنه عبد الله الذي أقام في سلمية من أعمال حماة في بلاد الشام، وانتشر دعاته في المناطق المضطربة لاستغلال تذمر بعض قطاعات من الناس من الإدارة العباسية ..

انتظمت الدعوة منذ الثلث الأخير من القرن التاسع الميلادي في بلاد اليمن والعراق، والراجح أن الدعوة إلى هذا المذهب ظهرت عقب وفاة الحسن العسكري وهو الحادي عشر من أئمة الشيعة الاثني عشرية في عام (260هـ/ 874م)..

تعرض الإسماعيليون للاضطهاد على أيدي السلطة؛ فاضطروا إلى الاعتصام في مواطن نائية ومنيعة يصعب على العباسيين اقتحامها، كما نشروا دعوتهم سرًا، واجتهدوا لاستقطاب الأتباع منطلقين من سلمية إلى كافة البقاع الإسلامية، لكن ركون الحركة الإسماعيلية في تلك الفترة إلى العمل السري، لم يمنعها من ممارسة العمل السياسي، فقد كانت تترجم أفكارها السرية في مضايقة الدولة كلما سمحت لها الظروف ..

القرامطة :

توجهت الدعوة الإسماعيلية إلى كافة طبقات المجتمع، لكن التجاوب كان متفاوتًا في حين وجد الفرس فيها أسلوبًا للتعبير عن كراهيتهم للعرب، وهكذا أصبحت الدعوة الإسماعيلية، حركة ثورية كبيرة، تضم اتجاهات مختلفة لعل أبرزها :

- الاتجاه الاجتماعي: لإقامة العدالة الاجتماعية ..
- الاتجاه الشيعي: الذي شكلت المباديء الشيعية هدفه الأسمى .
- الاتجاه العنصري الفارسي: الذي أدرك مناصروه أهمية تحقيق المباديء المزدكية ..

لكن جمعت هذه الاتجاهات غاية واحدة هي حُلْمُ الخلافة، وقد نتج عن اختلاف الأهداف استحالة اندماج الميول المتعددة بشكل كامل، وهذا يفسر لنا السبب في تطور مراحل هذه الدعوة التي اتخذت طابعًا مختلفًا أو حتى متناقضًا، فقد نشأت عن المذهب الإسماعيلي قوتان كبيرتان هددتا دولة الخلافة العباسية، إحداهما الحركة القرمطية التي ضايقت العباسيين، وهددتهم في عقر دارهم، والأخرى هي الدولة العبيدية، التي انطلقت من سلمية وقامت في بلاد المغرب ..

ظهرت الحركة القرمطية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وهي استمرار للدعوة الإسماعيلية رغم الأطوار العصبية التي مرت بها العلاقة بين الحركة الأم (الإسماعيلية) والحركة الناشئة (القرمطية) ووصولها إلى حد المواجهة المسلحة، ولدى العودة إلى المصادر الإسماعيلية، نراها تنظر إلى القرامطة نظرة فئة تمردت على قيادتها وانشقت عنها ..

نشأت الحركة في سواد العراق في عام (261هـ/ 875م) في عهد الخليفة المعتمد، ثم انتقلت إلى بلاد الشام والبحرين واليمن وذلك لظروف سياسية واقتصادية واجتماعية هي نفسها التي قامت في ظلها حركة الزنج، والراجح أن الاتجاه الاجتماعي ـ الاقتصادي قد غلب على اتجاهها الديني بالرغم من أن دعاتها كانوا متطرفين في آرائهم الدينية المتعلقة بالشريعة الإسلامية..

ويعتبر حمدان بن الأشعث المعروف بقُرْمُط، وهو من أهل الكوفة أحد دعاة القرامطة الأوائل، وقامت دعوته في أعقاب القضاء على حركة الزنج، واتجهت إلى

أولئك الذين نجوا في المناطق التي عمت فيها الحركة المذكورة، فصادفت رواجًا كبيرًا في صفوف الأعراب -الذين يتوقون للغنائم- وفلاحي السواد والطبقات الفقيرة، وسمي أتباعه بـ "القرامطة" نسبه إليه ..

ثم حدث أن خبت الحركة في العراق بفعل الاختلاف الذي حصل بين قيادتها والقيادة الإسماعيلية، وآلت قيادتها إلى زكرويه بن مهرويه الفارسي وهو أحد تلاميذ حمدان، الذي نقل نشاطه إلى بلاد الشام، وامتد إلى بادية السماوة ..

وأخذ ابناه يحيى بن زكرويه الملقب بصاحب الناقة، وحسين بن زكرويه الملقب بذي الشامة أو صاحب الخال، على التوالي مهمة نشرها، وتلقب كل منهما بأمير المؤمنين، فهاجما المدن والقرى وأثارا القلق والهلع في بلاد الشام قبل أن تقضي الدولة عليهما في عامي (290و 291هـ/ 903 ـ 904م)..

وقام زكرويه لينتقم لمقتل ابنيه، لكنه قتل في عام (294هـ/ 907م) وانتهى بمقتله أمر القرامطة في بلاد الشام ..

وتقترن الحركة القرمطية في البحرين باسم أبي سعيد الجنَّابي الفارسي وابنه أبي طاهر، وقد بسط الأول هيمنة فعلية على هجر والأحساء والقطيف وسائر البحرين وأنشأ دولة مستقلة عاصمتها المؤمنية، وقُتِلَ في عام (301هـ/ 914م)، فتسلم ابنه أبو طاهر سليمان رئاسة الدعوة، وتابع سياسة العنف بأساليب بالغة الخطورة؛ فعانت البصرة والكوفة من غاراته الوحشية، كما أغار على قوافل الحجاج، وهاجم مكة في عام (317هـ/ 929م)، فنهب أموال الحجاج وقتلهم في المسجد الحرام، واقتلع الحجر الأسود من الكعبة، واحتجزه لعدة أعوام (25) مع ما يمثل ذلك من تحد كبير لشعور المسلمين وقد ندَّد خصومه من أهل السنة، وحلفاؤه من الإسماعيليين والعبيديين بأعماله ..

ويبدو أن هناك عاملين دفعا بالقرامطة إلى انتحاء هذا المنحى الديني والاقتصادي ..

فمن الناحية الدينية حاول القائمون على الحركة باعتبارهم يمثلون فرقة باطنية غالية، إيجاد عقيدة جديدة توفق بين الإسلام والعقائد القديمة، فهم لم يعترفوا بالإسلام كدين، رغم تظاهرهم بذلك، بل أدخلوا عليه عقائد الحلول والتناسخ وقدسية الأئمة..

أما من الناحية الاقتصادية، فيبدو أن القرامطة أرادوا إيقاف الحج ومهاجمة القوافل التجارية نظرًا للمنافع المادية الناتجة عنه، كما أن هجماتهم التي نفذوها على البصرة كانت تهدف إلى بَثِّ الفوضى وعدم الاستقرار فيها لتحويل تجارتها إلى موانيء الخليج التي يسيطرون عليها بعد أن رفض الخليفة طلبًا لأبي طاهر أن يتنازل عن الأهواز والبصرة، بالإضافة إلى الهيمنة على تجارة الهند البحرية وصناعة خوزستان..

ومهما يكن من أمر فقد فقدت الحركة القرمطية في البحرين، تماسكها بعد وفاة أبي طاهر في عام (332هـ/ 942م) بفعل الصراع على الزعامة، بالرغم من أن الدولة القرمطية استمرت حتى عام (469هـ/ 1076م) وسط تيارات معادية أوجدها تعصبهم الديني المتطرف..(26)

قيام الدولة العبيدية الفاطمية :

أرسل الحسين بن حوشب، داعي الإسماعيلية في اليمن أبا عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب في عام (288هـ/ 901م) لنشر الدعوة في هذه البلاد، بعد وفاة داعييِّ الإسماعيلية فيها وهما: الحلواني وأبو سفيان، ونجح أبو عبد الله هذا في استقطاب جماعة من حجاج كتامة، وصحبهم إلى بلاد المغرب حيث بثَّ دعوته بين الناس، وقوى أمره بما التف حوله من الأتباع واستولى على القيروان في عام (296هـ/

909م) وأزال دولة الأغالبة، ثم أرسل إلى عبيد اللــه المهـدي في سـلمية يـدعوه للحـضر إلى إفريقيـة لتسلم الأمر، رحب عبيد اللـه بالدعوة، فترك سليمة وتوجه إلى المغرب ..

فوصل إليها في عام (297هـ/ 910م) حيث بويع لـه بالخلافـة، وتلقـب بالمهـدي أمـير المـؤمنين واضعًا بذلك الأساس الذي قامت عليه دولة الخلافة العبيدية..

التاريخ العباسي مظلوم :

التاريخ العباسي مظلوم ليس فقط بسبب التشويه، ولكن لأن التركيز كان على الجانب السياسي فقط، وأهمل الحديث عن جوانب الحياة الأخرى، والتي كانت حضارية في كثير من الأوقات كالجوانب العلمية والاجتماعية والاقتصادية ..

وهذا الإهمال لهذه الجوانب كان عن عمد أحيانًا، وكان عن جهل أحيانًا أخرى، وكان للاعـتماد على مصادر المشوهين للتاريخ في أحيان ثالثة ..

الأسباب التي أدت إلى تشويه التاريخ العباسي :

أولاً : الاعـتماد عـلى مجـرد النقـل، والتـسليم بـصحة الروايـات، والجمـع مـن غـير مناقـشة للمجموع..

من أمثلة ذلك ما ذكره بعض الرواة من معاقرة الخلفاء العباسيين ـ وخصوصًا الرشيد ـ للخمـر، وما اتهم به القاضي يحيى بن أكثم من معاقرة للخمر واشتغال بالغلمان، ومما علل به بعـضهم تنكيـل الرشيد بالبرامكة، وقصة العباسة أخته في ذلك، وما ورد ـ أيضًا ـ مـن حـديث الزنبيـل الـذي تعلـق بـه المأمون، وسبب زواجه ببوران بنت الحسن بن سهل ..

فهذه أخبار كاذبة تناقلتها الرواة دون تحليل أو تدقيق، وقد رد ابن خلـدون عـن بعـض هـذه المغالطات في مقدمته ..

ثانيًا : الجهل بالمصادر، والجهل بمهج المصنفين فيهـا واقتطـاع الخـبر أو جـزء منـه دون إتمامـه، ودون الرجوع إلى مقدمة الكتاب ..

وهذا سبب لصيق بما قبله، ومتمم له وموضح، فإن الثقة التي منحها الدارسون ـ خصوصًا أهل عصرنا ـ لبعض المصنفات القديمة وعدم الاطلاع على مقدمة الكتاب التي تحتوي ـ في الغالب ـ على منهج المصنف فيه، قد أوقع الكثير منهم في الخطأ والخلط لأنهم أخذوا الروايات على أنها حقائق مُسلَّم بها، وخاصة عند نقلهم عن المؤرخين القدماء، الذين اشتهروا بالصدق والأمانة، ولو أنهم رجعوا إلى كلام هؤلاء المؤرخين لعلموا علم اليقين أن تلك الروايات فيها ما هو حق وصحيح وفيها ما هو غير ذلك، ويؤيد ذلك ما ذكره الطبري في مقدمة كتابه "تاريخ الرسل والملوك "..

يخاطب من أراد القراءة فيه حيث يقول: "..... فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكر قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة، ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤتَ في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا "..

ونحوًا من ذلك يقول ياقوت في معجم البلدان: "..... لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفر عنها طباع من له محصول؛ لبعدها عن العادات المألوفة وتنافرها عن المشاهدات المعروفة، وإن كان لا يستعظم شئ مع قدرة الخالق وحيل المخلوق وأنا مرتاب بها نافر عنها، متبرئ إلى قارئها من صمتها لأنني كتبتها حرصًا على إحراز الفوائد ....."..

ومن المثالين السابقين يتبين لنا الخطر الكامن في التسليم عند النقل عن هذه الكتب، ولأن مثل هذه الكتب الأمهات تتكون من مجلدات عديدة وضخمة فإن الدارسين ـ في الغالب ـ يرجعون إلى الأجزاء والصفحات التي يحتاجون إليها فقط في بحثهم عن موضوع معين دون الرجوع إلى المقدمة، أو معرفة منهج المصنف في كتابه ..

فإذا كان هذا حال المصنفين الأثبات، والمؤرخين العظام الثقات، فكيف بمن دونهم؟ وكيف بأهل الأهواء والبدع والضلالات؟ وكيف بأهل المجون والشهوات؟ لا

شك أنهم في أعلى مراتب التزييف والدجل، إن كانوا معتمد فيما ذكروا من الدس، وإلا فهم في أحط مراتب العلم والمعرفة ..

فلا يصح أن نصور عصرًا من عصور تاريخنا المجيد بنقل ما كتبه أو قاله أولئك الجهال، ولا أن نتبين روح العصر العباسي ـ مثلاً ـ من كتب المجون والضلال ككتاب الأغاني مثلاً ..

وإن كثيرًا من الباحثين إذا أراد استجلاء صورة واضحة لعصر من العصور هرع إلى تلك لكتب ونقل عنها الغث والثمين ..

ولا ننكر أن كتاب الأغاني فذٌّ في فنه، ووحيد في جنسه، إلا أننا يجب ألا نعتمد في كل ما يذكر، لأنه لم يؤلف إلا على أنه كتاب للأغاني والألحان والشعر، ثم زاد فيه مصنفه التراجم والحكايات، وكثيراً من الأخبار الواهية، والروايات المزيفة، والأساطير والخرافات ..

إذاً على القارئ والباحث عند النقل أن يكون متثبتًا من صحة الرواية، وذا نظر سديد يميز به الروايات، وصاحب خبرة وعلم بالمصنفات والمصنفين الذين يأخذ عنهم، وبمنهجهم في مصنفاتهم، وما قصدوا إليه من خلال رواية تلك الأخبار، وإلا فسيكون الخطأ والزلل والضلال حليفه، وسيغرق بحثه ومؤلفاته بأخبار وروايات خاطئة يختلط فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال، والصدق بالكذب..

ثالثًا : ميول المدونين والرواة والمصنفين إلى جمع المعلومات وتصنيف الكتب في باب معين كالزهد أو المجون أو اللغة أو غير ذلك، وربما جمعوا تلك الأبواب في مصنف واحد فإذا ما تناولها أهل اللذات المحرمة والانهماك في المجون، فحتمًا سيحفلون بما يشبع رغباتهم، ويسد نهمهم، وينسجم مع ميلهم، ويتركون ما فيها من جوانب أخرى لا تهمهم هذا إذا لم يزيدوا عليها من مغامراتهم وبطولاتهم، وعن ذلك يقول ابن خلدون: "وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة إنما

يبعث على وضعها والحديث بها الانهماك في اللـذات المحرمـة، وهتـك قنـاع المُخَـدَّارَت(الـشريفات في خدورهنَّ)، ويتعللون بالتأسي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم ..."..

وهذه الرغبات والميول تجعل كل واحد يصنف ويؤلف فيما يرغب فيه ويميل إليـه، فـإن كـان زاهدًا جمع أخبار الزهد والزهاد والصالحين والعباد، وكأننـا لا نـرى مـن خـلال مـا جمعـه غـير الزهـد والصلاح، وإن كان فقيهًا ملأ صفحاته بأخبار الفقهاء ومـسائل الفقـه في جـده وهزلـه، ولا غرابـة في أن يفعل غيرهم من أهل البدع والأهواء والضلال وأصحاب المجون والخلعاء والعابثون، كل يـصبغ العـصر بصبغته، ويصوره بالصورة التي يريدها..

وعندما ابتعد الناس عن الإسلام، تناقلوا في مجالـسهم تلـك الكتـب والروايـات والقـصص التـي تصور ما يناسبهم من الـلـهو والعبث، واهتموا بتلك الأخبار فجمعوهـا ورتبوهـا، وصـنفوا في مختلـف ألوان الـلـهو كتبًا للتسلية والأنس جمعوا فيها الأخبار الغريبة، والحكايات الطريفة والقـصص الماجنـة، والأدب المكشوف، والغزل الخليع ..

وما أن جاء عصرنا حتى شاعت فيه التصورات المستوردة عن الإسلام ودولته، حتى إن كثيرًا من أبنائه نصبوا أنفسهم محامين يدافعون عن تلك النظريات التي خلطت السم بالدسم، فشوهت صـورة العصر، وذلك لأنهم تبنوا هذه الأفكار والنظريات التي وضـعها أعـداؤن، واتخـذوها عـلى أنهـا حقـائق مسلمة لا يمكن ردها أو مناقشتها خصوصًا ما ورد منها عـن أولئـك المستـشرقين الـذين اتخـذهم أهـل عصرنا أساتذة، وشاع عنهم ـ زورًا ـ أنهم موضوعيون في دراساتهم، ويعلم الـلـه أنهم والموضـوعية عـلى طرفي نقيض، لتصوراتهم الخاطئة عن دولة الإسلام وروحه..

رابعًا : التعصب لمذهب أو لجنس أو لملة أو لمدينة أو لدين أو غير ذلك وقد أثر هذا التعصب تأثيرًا بالغًا في حركة وضع الأخبـار، وتزييـف الروايـات، والطعـن في الجانـب الآخـر ومحاولـة تـشويهه، والحط من منزلته، ووصفه بالدناءة والانحطاط ..

وإذا كان هؤلاء الوضاع المتعصبون لا يتورعون عن الوضع في الحديث الشريف، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كذب جزاؤه النار فإن حركة الوضع في غير ذلك أشد وأقوى ..

وإذا ورد الوضع في الحديث الشريف حتى من بعض أهل الدين والصلاح ـ بحجة الدفاع عن الإسلام أو الترغيب فيه ـ فإننا نستطيع أن نتبين جرأة الآخرين من أهل العصبيات والأهواء، على الوضع في غير الحديث، وعلى هذا الأساس نتمكن من تفسير التشويه الذي لحق بالعرب مثلاً من قِبَلِ الشعوبية، والتشويه الذي لحق العباسيين من قبل الشيعة وغيرهم، والذي لحق الأمويين من قبل العلويين، والذين لحق الأمين من قبل أتباع المأمون، فكل يحاول ـ ما أمكنه ـ أن يفتعل القصص، ويؤلف الحكايات التي تثلب عدوه، وتضع من قيمته، ولما كانوا يعدون التدين مكرمة، ويعدون من أسمى الفضائل التخلق بأخلاق الإسلام، والاشتغال بالعلم والعمل الصالح، والابتعاد عن اللهو والعبث، لذلك كانوا إذا أرادوا أن يحطوا شخصًا وصفوه بالتحلل من الدين والأخلاق، ورموه باللهو والمجون والمعاقرة، ووسموه بالعبث بالغلمان فضلاً عن الجواري طوال الليل ونصيبًا وافرًا من النهار ..

ومن ذلك مثلاً ما نراه في الشعر في ذلك العصر، حيث وجدنا فريقين من الشعراء: فريقًا علويًا وآخر عباسيًا، وكل يحتج لحزبه بهذا الفن، فمن العلويين السيد الحميري من مخضرمي الدولتين شيعيًا غاليًا كثير الشعر جيده، ودعبل الخزاعي ـ الذي ـ كان يحادُّ العباسيين، ويهجو خلفاءهم هجاءً مقذعًا مرًا لم يسلم من لسانه أحد من الخلفاء ولا الوزراء ولا الولاة، هجا الرشيد والمأمون والمعتصم، ومدح العلويين بقصائد كثيرة، وديك الجن الحمصي، والعكوك من أبناء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد ..

ولما كان الخلفاء في منعة وقوة، ولم يتمكن أحد من أعدائهم أن ينال منهم علنًا، عمد أعداؤهم إلى ما يسمى"بحرب الشائعات " في السر والخفاء، ويصور لنا ذلك ما قاله

قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني المتوفي سنة 415هـ: انظر إلى الشعر أو الذين هجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغيرهم، ومن الكتب التي وضعها الملاحدة وطبقات الزنادقة.. فإنهم وضعوها في أيام بني العباس وفي وسط الإسلام وسلطانه، والمسلمون أكثر مما كانوا إذ ذاك، وأشد ما كانو، ولهم القهر والغلبة والعزة، والذين وضعوا هذه الكتب أذل ما كانوا، وإنما الواحد بعد الواحد من هؤلاء يضع كتابه خفيًا وهو خائف يترقب ذلك عن أهله وولده، ولا يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد، ممن هو في مثل حاله من الخوف والذل والقهر، ثم ينتشر ذلك في أدنى مدة ويظهر على أن يباع في أسواق المسلمين ..

وعلى هذا الأساس يمكن أن نفسر الروايات والأخبار والمصنفات الكثيرة، التي أظهرت الخلفاء بمظهر الفساد والترف، واللهو والمجون ويوضح ذلك أتم توضيح أن أغلب تلك الروايات قد ورد مقطوعًا وبصيغ الشك والضعف مثل: روى وقيل وحكى.. والراوي والقائل من القصاصين الذين يطرفون العامة بغرائبهم، أو من المعارضين الذين يبتغون الانتقام لحزبهم المهزوم..

أمثلة من تشويه التاريخ العباسي :

الانتقاء المغرض..

التأويل الفاسد ..

فقد كتب أحد الكتاب المحدثين وهو محمود إسماعيل، صاحب كتاب "الحركات السرية في الإسلام ـ رؤية عصرية "..

نظرة الكاتب لحركة القرامطة :

فقد كتب هذا الرجل في مقالاته وأبحاثه الفريدة يثبت أن هذه الحركات السرية التي كانت تعمل على تحطيم الإسلام هي حركات تقدمية، تحررية مستنيرة ..

فقد كتب ـ عفا الله عنا وعنه ـ كتابًا يدرسه لطلابه جاء فيه": القرامطة تجربة رائدة في الاشتراكية"، وتحت هذا العنوان جعل "داعيتهم عبدان".. ليس داعيًا مشهورًا، تفانى في نشر الدعوة وحسب، بل صاحب مدرسة ورائد جماعة فكرية، ظلت مخلصة لآرائه بعد مماته، ونقل عن الفهرست لابن النديم أنه أَلَّف في المذهب عشرة كتب قيّمة (أضاف لها وصف قيّمة من عنده) ثم قال في الصفحة نفسها: "ولكن شيئًا من تراث تلك المدرسة لم يصل إلينا، ومن ثم فكل ما يعول عليه دراسة القرامطة مستمد من المصادر السنية والشيعية فقط، وهي معادية للقرامطة على طول الخط.. وهذا الاتفاق والإجماع لا يمكن أن يتخذ بحال ذريعة للتسليم بصحة ما أورده مؤرخو الشيعة والسنة عن القرامطة إذ ينطوي على افتراءات واتهامات باطلة.. فالمعقول أن هذا الإجماع مدعاة للشك أكثر منه قرينة على اليقين "..

ثم غمز علماء الأمة جميعًا قائلاً: "إنهم ينتمون إلى طبقة أهل القلم التي تدين بوضعها المتفوق لإنعامات وهبات الحكام، وبديهي أن ينظر هؤلاء وأولئك باستعلاء لحركة قوامها المستضعفون من العمال والفلاحين "..

وراح الكاتب (البحاثة) يكشف عن عظمة القرامطة، وما أدوه من دور في التاريخ الإسلامي، داعيًا لنا أن نقف على عبقرية ذلك العمل السري الذي أقام تلك الدولة لتظل شوكة في جنبي الخلافتين العباسية والفاطمية ما ينيف على قرن من الزمان "..

وهو يرى أن القرامطة أهل صلاح وتقي ينقطعون للصلاة والعبادة .. وأن داعيتهم زكرويه القرمطي عظم قدره في أعين الناس، وصارت له مرتبة في الفقه والدين، وأن حمدان قرمط ـ زعيم الحركة ـ عرف بالزهد والتعبد ..

فحركة القرامطة عنده كانت ثورة اجتماعية باسم الدين، وليست حركة مروق". أما جرائمهم وسفكهم الدماء، وقطعهم الطرق، وترويعهم الآمنين، وفتكهم بحجاج

بيت اللـه الحرام الآمنين، وفظائعهم التي تقشعر لهولها الأبدان، من تـدمير للـبلاد، وحـرق للـزروع، وطمـر للآبـار وعيـون الميـاه، بالجثـث، وعظـام الـضحايا وجماجـم ... كـل ذلـك عنـد الكاتـب مغفـور للقرامطة..

العدوان على الكعبة المشرفة والحجر الأسود :

كان الأَوْلى بالمؤلف البحَّاثة الأكاديمي أن يتجاوز عن ذكر هذا الجُرم البشع، ولا يعرب عن رأيه فيه، فعسى ألا يطوف بذهن القـارئ، ولكنـه (بأسـلوبه العلمـي ومنطقـه الأكـاديمي) يقـول بـالحرف الواحد: "والمؤرخون يتحاملون على القرامطة، ويصمون حروبهم بالوحشية والميل الشديد لسفك الـدم، ويتخذون من حادثة هجومهم على مكة، ونقل الحجر الأسود إلى البحرين ذريعة لمزيـد مـن التحامـل، ومن (المحقق) أن هذه الحادثة كانت لها دوافعها السياسية، ولم تعبر عن ميل طبيعي لـدى القرامطـة في السلب والابتزاز، أو عن رغبة في إهدار المقدسات الإسلامية "..

ثم يقول مؤنبًا كتـاب عـصرنا: "والواقـع أن المعـاصرين (يقـصد للقرامطـة) لم ينظـروا إلى هـذا الحادث باعتباره حادثًا جللاً، كما فعل اللاحقون فقد انتهكت حرمة الكعبة مرتين، وضربـت بالمجـانيق في العصر الأموي، كما كان المتصوفة -آنئذٍ- يعتبرون الحجر الأسود وتقديسه ضربًا من الوثنية ..

ولذلك وجب على الدارسين التخفيف من غلوائهم، ولنظر إلى هذا الحادث على أنه أمر طبيعي أملته طبيعة العصر وظروفه السياسية" . هـ بنص حروفه ..

أسمعتم؟ إن العدوان على الحرم ونزع الحجر الأسود أمر طبيعي أيها الرجعيـون فخففـوا مـن غلوائكم!!!

ويمضي الكاتب في تزييفه للحقائق، وتأويلاتـه الفاسـدة قـائلاً: "أجمـع مؤرخـو السنة والشيعة على اتهام القرامطة بإبطال التكاليف الشرعية؛ فـذكر "الملطـي": أنهـم يزعمون أن الصلاة والزكاة والصيام ولحـج وسـائر الفـرائض نافلـة لا فـرض، كـما قـال

"البغدادي": وزعموا أن من عرف العبادة، سقط عنه فرضها، وفي الاتجاه نفسه نجد الغزالي يقول: "ترك القرامطة تأدية العبادات "... هـ بنص حروفه ص111 هكذا يوهم القاريء بالحيدة العلمية وأنه يذكر الآراء المخالفة لرأيه من مراجعها الأصلية، ويعزوها إلى أماكنها من الصفحات والأجزاء قبل أن يناقشها ويردها، فلننظر كيف كان رده لهذا الإجماع من المؤرخين !!

قال : "ونحن نرى أن تلك فرية لا أساس لها من الصحة، وإليك القرائن فالغزالي نفسه ذكر أن الداعي القرمطي كان يشترط على المستجيب للدعوة أن يحج إلى بيت الله ثلاثين حجة إن أخلَّ بواجباته، والطبري ذكر: أن القرامطة كانوا لا يغتسلون من الجنابة، وإنما اكتفوا بوضوء الصلاة لإزالتها، وفي موضع آخر روى: "أن أحد كبار الملاك ضاق ذرعًا بفلاح قرمطي يعمل في ضياعه لحرصه على أداء الصلاة، والمقريزي الشيعي أورد أن الداعي "زكرويه" القرمطي عظم قدره في أعين الناس، وصارت له مرتبة في الفقه والدين، وأن حمدان بن الأشعث ـ زعيم الحركة ـ عُرِفَ بالزهد والتعبد، وكان أنصاره يسمون أنفسهم "المؤمنون" بالله، والناصرون لدينه، والمصلحون في الأرض، هذه النصوص وغيرها تبطل الزعم بأن القرامطة دعوا إلى هدم أركان الشريعة والتنصل من العبادات...هـ بنصه بالحرف الواحد وبدون أي تلخيص ..

هكذا بهذه النصوص يدفع إجماع المؤرخين على أن القرامطة دعوا إلى هدم أركان الشريعة والتنصل من العبادات..

وسنضع الآن نص كلام الطبري الذي أشار إليه (الأستاذ الدكتور المؤرخ)، أمام القارئ ونترك له الحكم، جاء في الطبري ما نصه: "وفيها أي في سنة 278هـ وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة..فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة يظهر الزهد والتقشف، وسيف الخوص

(ينسجه) ويأكل من كسبه، ويكثر الصلاة فأقام على ذلك مدة، فكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين، وزهده في الدنيا، وأعلمه أن الصلاة المفترضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك عنه بموضعه، وكان للهيضم بن العلاء العجلي في تلك الناحية ضياع؛ فوقف على تقصير آكرته (الذين يعملون في مزرعته) في العمارة (تعمير الأرض وإصلاحها، فسأل عن ذلك فأخبر أن إنسانًا طرأ عليهم، فأظهر لهم مذهبًا من الدين، وأعلمهم أن الذي افترضه الله عليهم خمسون صلاة في اليوم والليلة، فقد شغلوا بها عن أعمالهم، فوجه في طلبه، فأخذ وجِيء به إليه، فسأله عن أمره فأخبره بقصته، فحلف أن يقتله فأمر به فحبس ....".

هذا ما ذكره الطبري وهو يتحدث عن بدء أمر القرامطة، ثم قال في الموضع الآخر الذي اقتبس من: "..فقدم قوم من الكوفة فرفعوا إلى السلطان أمر القرامطة، وأنهم قد أحدثوا دينًا غير الإسلام، وأنهم يرون السيف على أمة محمد، إلا من بايعهم على دينهم.. وأنهم جاؤوا بكتاب فيه: "... بسم الله الرحمن الرحيم: يقول الفرج بن عثمان، داعية إلى المسيح، وهو عيسى، وهو من قرية يقال لها (نصرانة) وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد بن الحنيفة، وهو جبريل، وذكر أن المسيح تصوَّر له في جسم إنسان، وقال له: إنك الداعية، وإنك الحجة، وإنك الناقة، وإنك الدابة، وإنك روح القدس، وإنك يحيى بن زكريا، وعرَّفه أن الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها، وأن الأذان في كل صلاة أن يقول : الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، مرتين، أشهد أن آدم رسول الله، أشهد أن نوحًا رسول الله، أشهد أن إبراهيم رسول الله، أشهد أن موسى رسول الله، وأشهد أن عيسى رسول الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأشهد أن أحمد بن الحنيفة رسول الله، وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح، وهي من المنزل على أحمد بن محمد بن الحنيفة، والقبلة إلى بيت المقدس، والحج إلى بيت المقدس، ويوم الجمعة يوم الاثنين لا يُعمل فيه شئ والسورة (الحمد لله بكلمته، وتعالى باسمه،

المتخذ لأوليائه بأوليائه، قل إن الأهلة مواقيت للناس، ظاهرها ليُعلم عدد السنين والحساب والـشهور والأيام، وباطُنها أوليائي الذين عرَّفوا عبادي سبيلي، اتقونِ يا أولي الألباب، وأنا الذي لا أسأل عـما أفعـل وأنا العليم الحكيم .

الفصل الثامن

ظهور التتار في عهد الخلافة العباسية

من هم التتر؟

التتار شعب بدوي يعيش على أطراف صحراء غوبيب أطراف بلاد الـصين وهـم سـكان بـراري، ومشهورون بالشر والغدر، حياتهم رعوية، ونظامهم قـبلي، يطيعـون رؤسـاءهم طاعـة كبـيرة، ويحبـون الحرب والسلب ويعبدون الكواكب، ويسجدون للشمس أثناء شروقها، ويأكلون لحوم جميع الحيوانات حتى الكلاب، وتنتشر عندهم الإباحية، وتعرف ديانتهم القديمة بالشامانية، يقـدمون الأضـاحي لـبعض الحيوانات الشريرة ويقدسون أرواح الأجداد.

والتتار هم أصل القبائل المتفرعة عنهم جميعًا

من مغول وترك وسلاجفة وغيرهم وقد يكون سيطرة قبيلة المغـول عـلى التتـار في مرحلـة مـن مراحل تاريخها هو الذي جعل اسم المغول يطلق على الجميع. وهنـاك مـن يقـول: إن التتـار والمغـول أخوان، وقد سيطر المغول مع الفرعين عندما قام جنكيز خان يدك الدول. وعـلى كـلٍّ، فـإن كلمـة تتـار اليوم تطلق على القبائل الموجودة في روسيا وسيبريا وشبه جزيرة القرم .على حين تطلـق كلمـة المغـول على القبائل الموجودة في الصين وأفغانستان .وكان المغول هم المـسيطرون أيـام جنكيـز خـان واسـمهم يعم القبائل جميعها، والتتار هم الذين سيطروا أيام تيمورلنك وشمل أسمهم القبائل كلها.

جنكيز خان

كان جنكيز خان ذا همة عالية وكان قومه متفرقين مغلوبين من منافسيهم من التتر، فعمل على لم شعثهم فنجح في ذلك فحارب جميع القبائل التركية وانتصر عليهم

جميعًا، بعد حروب شديدة، وكون مملكة واسعة مسكونة بتلك الأمم التي لا يعلم عددها إلا الله، وعاصمة ملكه مدينة قراقروم.

ثم فكر في وضع قانون لهذه الأمة العظيمة، يكون لهم دينًا يسيرون على مقتضاه، فوضع لهم اليساق أو إلياسة وهي كتابهم الذي يرجعون إليه في معاملاتهم وأحكامهم، وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين.

أسباب اتجاه التتار إلى البلاد الإسلامية

يقول المؤرخون: إن الخلاف الذي قام بين الخليفة الناصر وخوارزمشاه علاء الدين تكش، جعل الخليفة يستدعي التتر للخروج إلى مملكة خوارزمشاه كي ينشغل بهم عن مراده أن تكون السلطنة له.

لم يكن الخليفة يقصد ما تبع فعلته من أحداث، كان كل ما يريد هو ألا يعود من جديد نفوذ لغير دولة الخلافة، ولم يكن الخليفة كذلك يظن أن التتار بهذه القوة، وأن خوارزمشاه بهذا الضعف.

والحقيقة أن جنكيز خان لم يكن يرى أن ذلك سبب كاف للهجوم على دولة خوارزمشاه، وكان هناك وفاق بينه وبين خوارزمشاه، حتى كانت سنة 615هـ لما سافر تجار من بلاد جنكيز خان حتى وصلوا إلى بلدة بثغر خوارزمشاه بساحلسيمون، وبها والٍ من قبل خوارزمشاه، فلما ورد عليه هؤلاء التجار وكانوا زهاء 400 نفس ومعهم أموال جسيمة، طمع ذلك الوالي في أخذ أموالهم، فأرسل قاصدًا إلى خوارزمشاه يخبره أن جواسيس جنكيز خان قد قاموا في زي تجار، فأمره بقتلهم وأخذ أموالهم، ففعل.

فلما بلغ ذلك جنكيز خان أرسل إلى خوارزمشاه أن يبعث إليه الوالي الذي فعل هذه الفعلة ليقتص منه، ولكن خوارزمشاه قتل الرسول مما دعا جنكيز خان للخروج لمحاربته.

وبدأ خوارزمشاه بالعدوان وهجم على بلاد عدوه فلقي هناك جموعًا قليلة، إذ كانوا يحاربون أحد الأمراء، فقتل من وجد من الأطفال وسبي النساء، وعاد التتار وعلموا وهم في الطريق بالخبر فجد والسير فأدركوا خوارزمشاه ولم يغادر ديارهم بعد، فوقعت بينهما معركة رهيبة، كادت تفنيهما لما صبروا، وغادر كل صاحبه يائسًا من الحرب لما ناله، ورجع خوارزمشاه إلى بخارى وبدأ يستعد للقتال، فحصن بخارى وسمرقند، وسار يجمع الجند من خوارزم وخراسان.

زحفت جيوش جنكيز خان الجرارة وعبر نهر سيحون وسار حتى أتى بخارى، وكان بها عشرون ألفًا من الجنود الخوارزمية، وخوارزمشاه غائب للاستعداد، فهربوا وتركوا المدينة بلا حامية.

وفي 4 من ذي الحجة سنة 616هـ دخل التتار بخارى وأمر جنكيزخان التجار أن يأتوا بما استلبوه من تجارة، وأخرج رؤساء البلد منها وانتهبت الأموال وتقاسم الجند من بقي من الناس، وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وكذلك فعلوا بسمرقند في محرم سنة 620هـ

في طلب خوارزمشاه

ثم اختار جنكيز خان عشرين ألفًا من أشداء جنوده، وأمرهم أن يطلبوا خوارزمشاه أين كان، ولو تعلق بالسماء ففعلوا وكلما هموا أن يوقعوا به هرب منهم، وقد أصابه الهلع والرعب، حتى وصل إلى قلعة له في البحر، فلما نزل هو وأصحابه في السفن يئس التتر من اللحاق به فعادوا عنه، وكان ذلك آخر العهد به حيث توفي في جزيرة ببحر الخزرسنة 62هـ

فلما عادوا استولوا على كل قرية يمرون بها) مازندران، الري، همذان، قزوين (حتى وصلوا إلى البلاد الشمالية وهيدشت القفجاق وفيها أمم تركية كثيرة فأمعنوا فيهم قتلاً وسبيًا فتفرقوا في جميع الأقطار وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على

البلاد المصرية فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية، ومنهم المعز أيبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم.

ثم دخل التتر بلاد الروس ثم بلغار لكن البلغار انتصروا عليهم، وقتلوا كثيرًا من التتر أواخر سنة 620هـ

استطاعت هذه الفئة القليلة التي خرجت تطلب خوارزمشاه أن تثير الرعب والنهب والخراب، ثم أرسل جنكيز جيوشه تستولي على البلدان الواحدة تلو الأخرى فتم له مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتدئ شرقًا من بلاد الصين وتنتهي غربًا إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوبًا ببلاد الهند وشمالاً بالبحر الشمالي، كل ذلك تم له في مدة قصيرة.

ولما أحس بقرب منيته قسَّم الممالك الجنكيزية إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة كما سيأتي بيانه.

وفاة جنكيز خان

كان التتار يفسدون في الأرض والخليفة الناصر مشغول عن ذلك بلهوه وعبثه، ظالمًا للناس وسلب الأموال، وتوفي جنكيز خان سنة 624هـ فكان قبيح السيرة، وبقي في أواخر أيامه ثلاث سنين معطلاً عن الحركة، وقد ذهبت إحدى عينيه، والأخرى يبصر بها إبصارًا ضعيفًا حتى وافته المنية.

خلافة الظاهر بأمر الله بن الناصر من شوال 622هـ حتى رجب 623هـ

كان الظاهر بأمر الله عادلاً محسنًا قالوا إنه أعاد سنة العُمَرين، وكانت تأتيه الأخبار عن الناس والأحوال على عادة من قبله فيردها ويقول: أي غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم، فلا يكتب أحد لنا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا، فقيل له: إن العامة يفسدها ذلك ويعظم شرها، قال إنا ندعو الله أن يصلحهم، ولم يزل كل

يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعية، فجدد من العدل ما كان دارسًا، وأذكر من الإحسان ما كان منسيًّا حتى توفاه الله.

خلافة المستنصر بالله بن الظاهر

بويع المستنصر بالله بالخلافة من رجب 623 حتى جمادى الآخرة 640هـ بعد وفاة أبيه الظاهر بأمر الله، فنشر العدل بين الرعية، وبذل الإنصاف في القضايا، وقرب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والمدارس، وقد وضع ببغداد المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعة، وجعل فيها دار حديث وحمامًا ودار طب، وجمع الجيوش لنصرة الإسلام، وأحبه الناس، وكان له ذا شجاعة وإقدام، وقد هزم جنود التتار في الوقت الذي خافهم البشر، وكان أخ شجاع أيضًا صاحب همة عالية يقال له الخفاجي، فكان يقول: لئن وُلّيت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون، وآخذ البلاد من أيدي التتار وأستأصلهم. غير أنه لم يتول، وإنما تولى المستعصم بعد أبيه المستنصر.

وكان المستنصر جميل الصورة حسن السريرة جيد السيرة، كثير الصدقات والبر والصلات محسنًا إلى الرعية بكل ما يقدر عليه. وكان يبني الربُط والقناطر والخانات والقناطر في الطرقات من سائر الجهات، وقد عمل بكل محلة من محال بغداد دار ضيافة للفقراء، لا سيما في شهر رمضان. وقد أوقف كتبًا نفيسة على المدرسة المستنصرية، توفي المستنصر في العاشر من جمادي الآخرة من عام 640 فكان عمره ثلاثًا وخمسين سنة.

آخر خلفاء العباسيين ببغداد

خلافة أبي أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر

بويع المستعصم بالله بالخلافة في جمادى الآخرة 640هـ حتى قتل بين يدي هولاكو خان في محرم 656هـ

ففي آبائه سبعة عشر خليفة لم يغنوا عنه من اللــه شيئًا. وبقتله انتهت الخلافة العباسية ببغداد.

كان خيرًا متدينًا عفيف اللسان والفَرْج وكان يتقن تلاوة القرآن حفظًا وتجويدًا، خرج له الشرف الدمياطي 40 حديثًا، وأجيز له بالحديث، وأجاز جماعة بالحديث عنه، إلا أنه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش.

وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي صاحب التوجه الشيعي الناقم على الدولة العباسية وقيل إنه يهودي الأصل، وهو الذي كان يوافي التتار بأخبار المسلمين ويمنع أخبارهم من الوصول إلى المستعصم.

دخول التتار بغداد

يقول ابن كثير في وصف كيفية دخول التتار بغداد: ثم دخلت سنة 656هـ فيها أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها، حتى الخليفة، وانقضت دولة بني العباس منها، استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار، هولاكوخان، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفًا على نفسه من التتار ومصانعة لهم قبحهم اللـه تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر اللـه سبحانه وتعالى شيئًا، كما ورد في الأثر" لا يغني حذر من قدر"، وكما قال تعالى :(إِنَّ أَجَلَ اللـه إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ)نوح: 4

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك فزعًا شديدًا، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب: إذا أراد اللـه

إنفاذ قضائه وقدره، أذهب من ذوي العقول عقولهم. فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة.

وكان قدوم هولاكو خان بجنوده كلها -وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل- إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة، وهو شديد الحنق على الخليفة؛ بسبب ما كان تقدم من الأمر الذي قدره الله وقضاه وأنفذه وأمضاه، وهو أن هولاكو لما كان أول بروزه من همدان متوجهًا إلى العراق أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سَنِيَّة؛ ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم، فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره، وقالوا: إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشار بأن يبعث بشيء يسير، فأرسل شيئًا من الهدايا فاحتقرها هولاكو خان، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور، وسليمان شاه، فلم يبعثهما إليه، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية الشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، ولا يبلغون عشرة آلاف فارس وهم بقية الجيش، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله.

وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي، وذلك أنه لما كان في السنة الماضية كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة، حتى نهبت دور قرابات الوزير، فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد وإلى هذه الأوقات، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو خان، لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج

العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورءوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسًا، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة، فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خواجة نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئًا كثيرًا من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة.

وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو ألا يصالح الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك!! وحسَّنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان نصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وانتخب هولاكو نصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة، هوَّن عليه الوزير ذلك فقتلوه رفسًا، وهو في جوالق لئلاً يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل بل خنق، ويقال: بل أغرق، فالله أعلم. فباءوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده، ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما

بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم.

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبًا من مائة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكي لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعًا منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة منالفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتيين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشًا للتتار بعدما كان وزيرًا للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا، وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر وعفى قبره، وكان عمره يومئذ 46 سنة وأربعة أشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة

وثمانية أشهر وأيام، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله 25 سنة، ثم قتل ولـده الأوسـط أبـو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواتـه الـثلاث فاطمـة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيـل والـلــه أعلـم، فإنـا لله وإنا إليه راجعون.

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محي الدين يوسف بـن الـشيخ أبي الفـرج ابـن الجـوزي، وكـان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة: عبد الـلـه، وعبد الرحمن، وعبد الكـريم، وأكـابر الدولـة واحـدًا بعـد واحد، منهم الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد، وكان الرجل يستدعي به من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى مقبرة الخلال، تجاه المنظرة فيذبح كما يذبح الشاة، ويـؤسر مـن يختـارون مـن بناتـه وجواريـه، وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين على ابن النيار، وقتل الخطباء والأئمـة، وحملـة القـرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد، وأراد الوزير ابن العلقمـي -قبحـه الـلــه ولعنه- أن يعطل المـساجد والمـدارس والـربط ببغـداد ويـستمر بالمـشاهد ومحـال الـرفض، وأن يبنـي للرافضة مدرسة هائلة ينشرون عملهم وعلمهم بها وعليها، فلم يقدره الـلـه تعالى مـن ذلـك، بـل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة، وأتبعه بولـده، فاجتمعـا -والـلــه أعلـم- بالدرك الأسفل من النار.

ولما انقضى الأمراء المقدر وانقضت الأربعون يومًا بقيت بغداد خاوية عـلى عروشـها لـيس بهـا أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سـقط علـيهم المطـر فتغـيرت صـورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوبـاء الـشديد حتـى تعـدى وسرى في الهـواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فـاجتمع عـلى النـاس الغـلاء والوبـاء والفنـاء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقني والمقابر، وكأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضًا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، وكان رحيل السلطان المسلط هولاكو خان عن بغداد في جمادى الأولى من هذه السنة إلى مقر ملكه، أما الوزير ابن العلقمي فلم يمهله الله ولا أهمله، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر، في مستهل جمادى الآخرة عن ثلاث وستين سنة، وكان عنده فضيلة في الإنشاء ولديه فضيلة في الأدب، ولكنه كان شيعيًّا جلدًا رافضيًا خبيثًا، فمات جهدًا وغمًّا وحزنًا وندمًا، وإلى حيث ألقت رحلها أم قشعم، فولى الوزارة ولده عز الدين بن الفضل محمد، فألحقه الله بأبيه في بقية هذا العام، ولله الحمد والمنة.

وذكر أبو شامة وشيخنا أبو عبد الله الذهبي وقطب الدين اليونيني أنه أصاب الناس في هذه السنة بالشام وباء شديد، وذكروا أن سبب ذلك من فساد الهواء والجو، فسد من كثرة القتلى ببلاد العراق وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام، فالله أعلم.

الفصل التاسع

الخلافة العباسية وأساسها السياسي

قامت الدولة العباسية على أنقاض الخلافة الأموية، وقد كانت جهود الدعاة العباسيين أحد العوامل الرئيسية في إسقاطها، وإقامة صرح الدولة العباسية على أيدي الموالي في خراسان خاصة.

يعَدُّ قيام الدولة العباسية بالطريقة التي قامت بها انقلابًا في مسيرة التاريخ الإسلامي؛ إذ إن الخلافة الراشدة قد قامت على أساس الشورى، ثم قامت الدولة الأموية - في نشأتها - على نفس الأساس بعد تنازل الحسن بن علي لمعاوية رضي الله عنهم جميعًا، ولكن الدولة العباسية قامت بالخروج المسلح على الحاكم القائم دون شورى من المسلمين، كما كانت دماء المسلمين الأمويين هي وقود نار الثورة العباسية، وذلك أمر غير مسبوق في الإسلام.

وقد حاول المؤرِّخون كشف مكنونات هذا التحول وتفسيره منطلقين من مفاهيم مختلفة، فقد رأى فيه بعضهم:

- ثورة الفرس على الحكم العربي.
- في حين علَّلَه بعضُهم بأنه مجرد ثورة على حكم بني أمية لإزاحتهم عن الحكم وإحلال العباسيين مكانهم.
- وقال فريق آخر بحتمية هذا التحول نتيجة التطورات التي شهدها العالم الإسلامي خلال القرن الأول الهجري.
- ويرى فريق آخر بأنه اجتهاد فقهي خاطئ، فالشيعة يقولون بأولوية آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم بالخلافة، وأحق آل البيت هو عليٌّ كرم الله وجهه، وأن عليًّا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص

ينقلونها، ويُؤَوِّلونها على مقتضى مذهبهم الفاسد، لا يعرفها جهابذةُ أهل السنة، ولا نَقَلَةُ الشريعة. ومن هنا نشأت فكرة الوصية، ولُقِّبَ عليٌّ رضي الله عنه بالوصي، يريدون أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى لعلي بالخلافة من بعده، وهكذا كلُّ إمام وصيٌّ من قبله. وعندما قامت الدولة العباسية لم يَرُقْ للعلويين أن يظفر العباسيون بالخلافة دونهم، واعتبروا أن العباسيين خدعوهم؛ إذ لولا اتحادهم معهم ضد الأمويين لما مهد الطريق أمامهم إلى الخلافة.

- ويرى البعض بأنها حركة شيعية في ثوب سني.

والصواب أنها هذه الأسباب جميعًا.

قامت الفتوحات الإسلامية الأولى على سواعد العرب, وقد استقر أعداد من الفاتحين في المناطق التي دخلوها، بل إن قبائل وبطونًا كاملة قد استقرت في جهة معينة نتيجة وجود كثيرٍ من الفاتحين من أبنائها، وأما وجودهم في مراكز القيادة فهذا أمر طبيعي بصفتهم الفاتحين، وحيث الخلفاء من العرب، ويعتمدون على من يعرفون، وكما حدث هذا عند الأمويين حدث عند العباسيين.

وقد كانت العصبية بين القيسية واليمنية العربيتين أشد بكثير من العصبية بين العرب والفرس، وإن الخلاف بين الشاميين والحجازيين في الأندلس كان أشد مما هو بين العرب والبربر.

انطلاق الدعوة العباسية من الكوفة وقيامها اتخذت الدعوة العباسية من الكوفة مركزًا لها بصفة أن أنصار آل البيت فيها كثيرون, ومنها يمكن التوجه نحو خراسان والاتصال فيها بسهولة ويسر، ثم إن الدعاة والإمام قد رأوا ضرورة التركيز على الدعوة في خراسان، لا لأنها مركز ثقل بالنسبة إلى الفرس أو إلى الترك، وإنما لقيام الصراع على أشده بين القيسية واليمنية من العرب؛ إذ يمكن الإفادة من هذا الصراع وكسب العناصر المحايدة التي ضاقت ذرعًا به, أو كسب اليمنية التي تشكل أكثرية

المجموع العربية هناك، والتي تعادي والي خراسان نصر بن سيار الذي يعتمد على القيسية ويتعصب لها. وقد وجد الدعاة العباسيون - فعلاً - آذانًا مصغية في خراسان، وتمكنوا من النشاط حتى تمَّ لهم الأمر، ولم تكن خراسان لتختلف عن غيرها من الأمصار الإسلامية.

وهناك نقطة يمكن أن نلاحظها وهي أن سكان خُراسان ليسوا من الفُرس، وإنما هم من الأتراك، ومعروف أن حاضرتها كانت مدينة مرو، وهي ضمن بلاد التركمان التي تخضع اليوم للروس، وأن خراسان التي كانت تشمل ما يقع الآن في شمال بلاد الأفغان، وتشمل شرقي إيران، وبلاد التركمان، إن هذه المناطق تضم اليوم سكانًا من الترك بأكثريتهم، وكذا كانت يومذاك، وإن ضمت - إضافة إلى ذلك - مجموعاتٍ من الفُرْسِ من السكان الأصليين ومجموعات من العرب والفرس جاءوا فاتحين واستقروا فيها، إلا أن ارتباط قيام الدعوة العباسية بخراسان, وارتباط تلك الدولة في أذهاننا بالفُرس قد جعلنا نتصور دائمًا سكان خراسان من الفرس، وهو الأمر المفهوم لدى أكثرية الناس، وقامت عصبية على الوهم ضد الفرس، هذا بالإضافة إلى أن الرجل الذي قامت الدولة على كاهله، أبا مسلم الخراساني، قد نُسِبَ إلى خراسان، والواقع أنه ليس من خراسان وإنما من فارس، كما أن اسمه هذا إنما هو اسم حركي، أمّا اسمه الحقيقي فإبراهيم بن عثمان.

قيام الدولة العباسية

قامت الدولة العباسية نتيجة التخطيط والسرية على أيدي سكان خراسان، سواء كانوا عربًا أم فرسًا أم تُركًا، وشكلٌ طبيعي أن يحصل هؤلاء على مراكز كبيرة ومناصب عالية في الدولة، وكان من جملة هؤلاء أعداد من الفرس ـ مع أنهم أقل من غيرهم ـ ما داموا يشكلون جزءًا من السكان، وبرز منهم فئة، وظن بعضهم أن الدولة أصبحت لهم ما دام منهم كبير القادة وهو أبو مسلم الخراساني، ثم لم يلبث أن حدث

نزاع بينهم وبين الخلفاء العباسيين الذين لا يريدون أن يستأثر غيرهم بالسُّلطة سواءٌ أكان عربيًّا أم فارسيًّا أم تركيًّا, وكما تخلصوا من أبي مسلم الخراساني فإنهم قد تخلصوا أيضًا من عبد الله بن علي بن العباس الهاشمي عم الخليفة، وقائد الدولة، بل إن الخليفة المنصور قد ضرب أحدهما بالآخر، فلماذا ركَّز أصحاب العصبيات على أبي مسلم وأغفلوا التخلص من عبد الله بن علي؟

فكلاهما صاحب أطماعٍ بغضِّ النظر عن فارسية الأول وعربية الثاني.

وبالرغم من خطورة الفتنة الكبرى التي تمت بين الصحابة إلا أنها كانت أرحم بكثير من الفتنة التي صاحبت قيام الدولة العباسية، وذلك بسبب:

- انتهاء جيل الصحابة.

- أنَّ الصحابة كانوا مجتهدين؛ فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ ولكلٍّ أجره.

ولكن هنا كانت الدنيا محرِّكة لأطراف كثيرة في الصراع إلى حد كبير.

تميز تاريخ الدولة العباسية بشيوع الاضطرابات والثورات طوال تاريخ الدولة تقريبًا، وإن كانت هذه الاضطرابات تحدث في عصر خليفة قوي أحيانًا، وفي عصور خلفاء ضعافٍ أحيانًا أخرى كثيرة.

بدأت الدولة العباسية بعصر التأسيس الذي شمل عصر أول خلفائهم أبي العباس السفاح، ثم أخيه أبي جعفر المنصور، وقد شُغِلوا في هذه الفترة بتوطيد أركان الدولة، والقضاء على بعض العناصر التي أرادت اختطاف الثورة لصالحها، والتمكين لنفسها على حساب العباسيين كأبي سَلَمة الخلَّال وأبي مسلم الخراساني، كما شملت القضاء على رغبة الطالبيين (آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه) الذين خدعهم العباسيون في بداية الثورة بأن الدولة ستكون دولتهم.

الخلافة العباسية في عهد هارون الرشيد

تُعْتَبَر خلافة هارون الرشيد بداية عصر القوة في الدولة العباسية، ويشمل ذلك العصر خلافة ابنه المأمون، ثم المعتصم بن الرشيد، فالواثق بن المعتصم؛ حيث تميز هذا العهد بقوة السلطة المركزية، وبالتنظيمات الإدارية، والإصلاحات.

كما تميز أيضًا بالفتوحات العظيمة، وارتفاع شأن الخلافة الإسلامية، وصيرورتها القوة العظمى الوحيدة في العالم، وخضوع أقاليم الدولة لسيادتها - ما عدا الأندلس التي تمكن عبد الرحمن الداخل من الوصول إليها، وإقامة خلافة أموية هناك، ولم يستطع العباسيون المساس بجنابها -، وإن حفل هذا العصر - عصر القوة - بعديد من الثورات التي استطاعت الخلافة القضاء على أكثرها، واستمر بعضها طوال عهد الدولة العباسية، كما جرى فيه صراع داخلي كبير على السلطة بين الأخوين: الأمين والمأمون وليي عهد الرشيد، وجرت بينهما الحرب التي أسفرت عن مقتل الأمين الذي اعتمد على العرب، وانتصار المأمون الذي اعتمد على الفُرس، وتولِّيه الخلافة.

مميزات العصر العباسي الأول:

سيطرة شبه كاملة للفرس على الجهازين العسكري والإداري:

عندما قامت الخلافة العباسية كان للفُرس اليد العليا في قيامها وخاصة الخراسانيين، وقد سنحت الفرصة لهؤلاء للاستئثار بالسلطة وتولي الحكم، وساعد على ذلك شدة ميل العباسيين إلى الفرس، وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية، وقد أثار ذلك كراهية العرب بتقريب الفرس إليهم؛ لذا لا نعجب من انصراف العرب عن العباسيين، فقد دَبَّ في نفوسهم دبيبُ الكراهية لهم وللفرس الذي استأثروا بالسلطة دونهم؛ لممالأة العباسيين لهم واعتمادهم على ولائهم، فقامت الفتن والثورات في البلاد الإسلامية.

وكان من أثر ذلك الميل الذي أبداه العباسيون نحو الفرس وتلك الرعاية التي حاطوهم بها، أن أصبح نظام الحكم عند العباسيين مماثلاً لما كان عليه في بلاد الفرس أيام آل ساسان، قال "بالمر" في كتابه "هارون الرشيد": "ولما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي، كان طبيعيًا أن تسيطر الآراء الفارسية؛ ولهذا نجد وزيرًا من أصل فارسي على رأس الحكومة، كما نجد أيضًا أن الخلافة تدار بنفس النظام الذي كانت تدار به إمبراطورية آل ساسان".

كما اتخذ الخلفاء الموالي من الخراسانيين حرسًا لهم لاعتمادهم على ولائهم وإخلاصهم، واستبد هؤلاء الخلفاء بالسلطة، وتسلطوا على أرواح الرعية كما كان يفعل ملوك آل ساسان من قبل، وظهرت الأزياء الفارسية في البلاط العباسي.

وطبيعي أن يميل العباسيون إلى الفرس، الذين ساعدوهم على تأسيس دولتهم، وقاموا في وجه أعدائهم الأمويين، وإن مثل هذا الميل إلى الفرس، وتلك الكراهة التي أضمرها العباسيون للأمويين لتتمثل في تلك الخطب التي ألقاها داود بن علي وأبو جعفر المنصور وغيرهما، يشيدون فيها بمآثر الفرس، وما بذلوه من جهود في سبيل قيام الدولة العباسية.

*الوزارة:

عندما انتقلت الخلافة إلى العباسيين، اتخذوا نظم الحكم عن الفرس ومنها الوزارة، وكان أول وزير للعباسيين أبا سلمة الخلال، لكن معالمها لم تتحدد في عهده؛ ولأن الدعوة العباسية قد قامت على أيدي الفرس وبمساعدتهم فمن الطبيعي أن يكون وزراء العصر العباسي الأول من الأعاجم مثل: البرامكة وبني سهل، وعلى أيدي هؤلاء اكتسبت الوزرة شكلها النهائي في أواخر العصر العباسي الأول، وكان الوزير في أيام العباسيين:

ـ ساعد الخليفة الأيمن.

ـ نائبًا عنه في حكم البلاد.

ـ يعين الولاة.

ـ يشرف على الضرائب.

ـ يجمع في شخصه السلطتين: المدنية والحربية.

ـ صاحب المشورة التي يسترشد بها الخليفة.

وكان الوزراء في العصر العباسي الأول يتجنبون تسمية أنفسهم باسم "وزير"، على الرغم من قيامهم بأعمال الوزارة ومهامهم، فإليهم يرجع الفضل في ضبط أمور الدولة، ونشر لواء الأمن والعدل بين الرعية، ومَرَدُّ ذلك إلى تخوف الوزراء من الخلفاء بعد أن لقي البعض منهم حتفه على أيديهم, ولكن هذا لم يمنع الوزراء من الإقبال على اكتساب الألقاب المنسوبة إلى الدولة، مثل:

عماد الدولة، وعز الدولة، وركن الدولة.

وكانت الوزارة أيام العباسيين ضعيفة أمام قوة الخلافة، قوية كلما ضعفت الخلافة؛ لذا تطرق الفساد إلى منصب الوزارة في عهد الخليفة المقتدر 295- 320هـ/ 908- 932م لاتباعه سياسة خرقاء في تعيين وزرائه وعزلهم، حتى تقلَّد الوزارة في عهده اثنا عشر وزيرًا، عُزِل بعضُهم أكثر من مرة، وكان لضعف الوزراء في ذلك العصر وازدياد نفوذ القواد أن ضاعت هيبة الوزارة فلم يبق للوزراء شيء من النفوذ؛ فاقتصرت وظيفتهم على الحضور إلى دار الخلافة في أيام المواكب مُرتَدِين السواد متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعارات الوزارة، وأصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء الذي هيمن على شئون الخلافة والوزارة والدولة جميعًا, وبخاصة في عصر البويهيين والسلاجقة.

بروز الكُتَّاب:

اتسعت الدولة العربية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وضمت شعوبًا وطوائف عديدة من الناس، فكان لا بُدَّ لهذه الدولة من أن ينشأ فيها جهاز وظيفي

يتولى أعمال الكتابة التي يوجهها الخليفة إلى الوزير أو القضاة والـولاة في الأقـاليم، وتـسجيل الرسـائل الواردة من الولاة والقضاة إلى الخلافة، وكذلك في سائر الـدواوين كانـت هنـاك الحاجـة إلى مـن يتـولى الأعمال الكتابية فيها.

وفي العصر الأموي والعصر العباسي استمرت تلك الحاجة إلى مجموعة من الموظفين أو الكتـاب للقيام بالأعمال الكتابية، خاصة في العصر العباسي الأول بعدما تعـددت الـدواوين لمـساعدة الـوزير في أعماله الواسعة، وللإشراف على هذه الدواوين المختلفة وإدارة شئونها، فاقتـضى طبقًـا لـذلك أن يكـون لكل وزير كاتب أو كتَّاب يساعدونه، وأن يكون لكل والٍ من ولاة الأقاليم ورجال الدولة كاتب أو أكثر.

ويرأس جماعة الكتّاب الوزير، وأحيانًا كثيرة كان بعض الكتاب يتدرجون في الرقي إلى أن يتولوا الوزارة معتمدين على كفايتهم الكتابية وبلاغة أقلامهم.

وتولى الأعمال الكتابية في الخلافة العباسية الفرس؛ لأن الفـرس كانـت لهـم القـدرة الفائقـة في الكتابة، بينما كان العرب يفخرون بالسيف لا بالقلم، لـذا نجـد كثـيرًا مـن الكتـاب في العـصر العبـاسي يحذون حذوَ أجدادهم الفرس، حتى في مظهرهم الخارجي، وكان لامتلاك بعـض الكتـاب ثقافـةً أوسـعَ من ثقافة غيرهم، ودائرة معارفهم الواسعة، ودرايتهم بـأحوال النـاس الاجتماعيـة, وتقاليـدهم الكبـيرة الفضلُ في سيطرة الفُرس على ميدان الكتابة، هذا فضلاً عن إن إجادتهم عملهم كـان يتطلـب درايـة في اللغة والأدب وعلوم الدين والفلـسفة والتـاريخ والجغرافيـا، إلى جوانـب كثـيرة قـد تعـرض في مـسائل للخليفة أو الوزير أو الوالي.

ولما كانت الأعمال الكتابية مهمة وخطيرة يجب على من يتولاها أن يتحلى بأخلاق حميدة وثقافة واسعة ودقيقة، فقد تعددت الكتب التي أُلِّفَـتْ لجماعـة الكُتَّـاب بـصفة خاصة، فأَلَّف ابنُ قتيبة كتابًا اسمه "أدب الكاتب"، أوضح فيه الكثـير مـن ألـوان المعرفـة التي اعتقـد "ابـن قتيبـة" أن الكاتـب بحاجـة إليهـا، كـما أَلَّـف أبـو بكـر الـصولي كتـاب

"أدب الكاتب" توسَّع فيه في شرح أمور كثيرة لم يعرض لها ابن قتيبة، ونـصح "عبـد الحميـد الكاتـب" الكُتّاب فقال: "فنافسوا معشرَ الكتَّاب في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين، وابدءوا بعلم كتـاب الـلـه عز وجل والفرائض, ثم العربية فإنها ثقافة ألسنتكم, وأجيـدوا الخـط فإنـه حليـة كتـبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك معين لكم عـلى مـا تسعون إليه، ولا يضعفن نظركم في الحساب؛ فإن قوام كتاب الخراج منكم".

تنوع الكتَّاب تبعًا لتنوع الدواوين في ذلك العصر، فكان مـنهم كتـاب الرسـائل وكتـاب الخـراج وكتاب الجند وكتاب الشرطة وكتاب القاضي, وقد كان صاحب ديـوان الرسـائل الكاتـب الأهـم والأعـلى شأنًا من غيره، إذ كان عليه إذاعة المراسيم وإبراءات وتحرير الرسائل السياسية، وختمها بخاتم الخلافـة بعد اعتمادها من الخليفة، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في صيغتها النهائية، وكانت مهمة كاتب الرسائل تشبه وزارة الخارجية اليوم؛ فكان يتولى مكاتبة الملـوك والأمـراء عـن الخليفـة بأسـلوب عـذب بليغ؛ لذا روعي في الكاتب رصانة الأسلوب، وسعة العلم فضلاً عن عراقة الأصل.

وقد زَخَرَ العصر العباسي الأول بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم، فقـد اشـتُهِرَ يحيـى بن خالد البرمكي، والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد، واشتهر الفضل والحسن ابنا سهل، وأحمـد بن يوسف في عهد المأمون, واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات، والحسن بن وهب، وأحمد بن المـدبر في عهد المعتصم والواثق.

الحركة العلمية

شهد عصر القوة العباسي نهضة علمية بالغة القوة والتنوع، ويتحـدث الأسـتاذ "نيكلسون" عن النهضة الثقافية في العصر العباسي قائلاً: "وكان لانبساط رقعة الدولـة العباسية ووفرة ثروتها، ورواج تجارتها أثـر كبـير في إنـشاء نهـضة ثقافيـة لم يـشهدها الشرق من قبل، حتى لقد بدا أن الناس جميعًا من الخليفة إلى أقل الأفراد شأنًا غـدوا

فجأة طلابًا للعلم، أو على الأقل أنصارًا للأدب. وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيًا إلى موارد العلم والعرفان؛ ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين, ثم يصنِّفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التي هي أشبه شيء بدوائر للمعارف، والتي كان لها أكبر الفضل في إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعةً من قبل".

اشتغال الموالي بالعلم:

مما يسترعي نظر الباحث في تاريخ الثقافة الإسلامية أن السواد الأعظم من الذين اشتغلوا بالعلم كانوا من الموالي، وخاصة الفرس، وكانت اللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين المسلمين إلى أن أزال المغول الخلافة العباسية من بغداد في القرن السابع الهجري.

تقسيم العلوم:

لقد ميز كُتَّابُ المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم وبين العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم، ويُطلَق على الأولى: العلوم النقلية أو الشرعية، وعلى الثانية: العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحيانًا علوم العجم، أو العلوم القديمة. وتشمل العلوم النقلية: علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو واللغة، والبيان، والأدب. وتشمل العلوم العقلية: الفلسفة، والهندسة، وعلم النجوم، والموسيقى، والطب، والكيمياء، والتاريخ، والجغرافيا.

وفي العصر العباسي الأول اشتغل الناس بالعلوم الدينية، وظهر المتكلمون, وتكلم الناس في مسألة خلق القرآن، وتدخل الخليفة المأمون في ذلك؛ فأوجد مجالس للمناظرة بين العلماء في حضرته، ولهذا عاب الناس عليه تدخله في الأمور الدينية، كما عابوا عليه تفضيله علي بن أبي طالب على سائر الخلفاء الراشدين، وذهب البعض إلى أن المأمون أراد بعقد هذه المجالس إزالة الخلاف بين المتناظرين في المسائل

الدينية، وتثبيت عقائد من زاغوا عن الدين، وبذلك تتفق كلمة الأمة في المسائل الدينية التي كانت مصدر ضعفهم، وكان "المأمون" يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة؛ لأنه أكثر انفلاتًا من الشرع، وأكثر اعتمادًا على العقل في الأمور التي لا يصل إليها، فقرَّب أتباع هذا المذهب إليه؛ ومن ثَمَّ أصبحوا ذوي نفوذ كبير في قصر الخلافة.

- العلوم النقلية:

- علم القراءات:

ومن العلوم التي اشتغل بها العباسيون علم القراءات، ويعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن. وقد وجدت سبعة طرق في القراءات، تمثل كل طريقة منها مدرسة معترف بها ترجع قراءتها إلى إمام ترتبط باسمه، ويرجع أغلب الاختلافات في القراءات إلى رجال موثوق بهم ممن عاشوا في القرن الأول كابن عباس، وعائشة، وعثمان صاحب القراءة وابنه أبان، وإلى قُرَّاء معترف بهم كعبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب، وهؤلاء قد أثنى عليهم التابعون وغيرهم.

ومن أشهر أصحاب القراءات في العصر العباسي الأول يحيى بن الحارث الذماري المتوفى سنة 145هـ/ 763م، وحمزة بن حبيب الزيات المتوفى سنة 156هـ/ 773م، وأبو عبد الرحمن المقرئ المتوفى سنة 213هـ/ 829م، وخلف بن هشام البزار المتوفى سنة 229هـ/844م.

التفسير:

اتجه المفسرون في تفسير القرآن اتجاهين: يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور: وهو ما أُثِر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة رضوان الله عليهم، ويعرف ثانيهم باسم التفسير بالرأي: وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل، ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة والباطنية.

على أن النوع الأول من التفسير وهو التفسير بالمأثور، قد اتسع على مر الزمن بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام، والذين كانت لهم آراء

أخذوها عن التوراة والإنجيل مثل: كعب الأحبار اليهودي، وعبد الله بن سلام، وابن جريج، ولقد كان إسلام هؤلاء فوق التهمة والكذب, ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم.

ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين في صدر الإسلام اعتُبر التفسير جزءًا من الحديث أو فرعًا من فروعه، حتى إن التفسير في ذلك العهد كان تفسيرًا لآيات مبعثرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات إلا تفسير ابن عباس، ولو أن كثيرين يشككون في نسبته إليه.

أمَّا الطريقة المنظمة في تفسير القرآن فإنها لم تحدث إلا في العصر العباسي، فقد روى "ابن النديم" في "الفهرست": "أن عمر بن بكير كان من أصحاب الفرَّاء صاحب كتاب (معاني القرآن) المتوفى سنة 207هـ/ 823م, وكان منقطعًا إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفرَّاء: إن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً، أو تجعل في ذلك كتابًا أرجع إليه فعلت. فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتابًا في القرآن. وجعل لهم يومًا، فلما خرج إليهم وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة، فالتفت إليه الفراء فقال له: اقرأ. وبدأ بفاتحة الكتاب ففسرها، ثم استوفى الكتاب كله، فيقرأ الرجل، ويفسر الفراء، فقال أبو العباس: لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحدًا يزيد عليه".

ومن ذلك نرى أن القرآن الكريم قد أصبح منبعًا لكثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي، فعلماء النحو اتخذوا منه مادة خصبة يعتمدون عليها في استنباط قواعد اللغة العربية، كما ساعد "الإعراب" على تفسير القرآن وكشف غوامض بعض الآيات القرآنية، حتى لقد وضع علماؤهم كالكسائي والمبرد والفراء وخلف النحوي كتبًا أطلقوا عليها "معاني القرآن"، كما اعتمد الفقهاء في آرائهم الفقهية

على القرآن أساسًا للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه، وألَّفوا في المذاهب المختلفة كتبًا سموها "أحكام القرآن"، ومن هؤلاء الشافعي وأبو بكر الرازي، أضف إلى ذلك ما كتبه المؤرخون من تفسير الآيات القرآنية التاريخية من حيث صلتها بتاريخ الأمم الأخرى، وغير خافٍ أن القرآن الكريم من أهم المصادر التاريخية على الإطلاق؛ لأنه أقدمها وأصدقها وأوسعها مجالاً.

الحديث:

ومن أهم مصادر التشريع الإسلامي "الحديث"، وهو ما أُثِرَ عن النبي صلى الله عيه وسلم من قول أو فعل أو تقرير لشيء رآه، ويأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم.

وكانت دراسة علوم القرآن الكريم باعثًا قويًّا على ظهور علوم الحديث الشريف؛ وذلك لأنه يفصل ما أجمله القرآن الكريم، ويفسر ما يصعب على الناس فهمه، فقد شرح الحديث الكثير من الآيات القرآنية، ولم يُدوَّن الحديث الشريف تدوينًا شاملاً منظمًا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم, وفي عهد صدر الإسلام. ويُروَى أن الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم نهى عن تدوين الحديث حتى لا يختلط بالقرآن الكريم حيث قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار».

وقد ظهرت بدايات تدوين الحديث الشريف في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الذي كلف بعض من يثق بهم من علماء الحديث بجمعها، فقال لأبي بكر بن محمد بن حزم (ت120هـ/ 738م) عندما كلفه بهذه المهمة ما نصه: "انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو سنة ماضية، أو حديث عمرة فاكتبه؛ فإني خشيت دروس العلم، وذهاب أهله".

فكتب الأحاديث في دفاتر، وأُرْسِلَتْ منها نسخ إلى أنحاء الدولة الإسلامية.

حتى إذا جاء القرن الثاني للهجرة أخذ المسلمون يـدونون الأحاديـث النبويـة، وأتـاحوا الفرصـة لظهـور طائفـة مـن أئمـة الحـديث الـذين ظهـروا في العـصر العبـاسي، واشـتهر مـنهم سـفيان الثـوري (ت161هــ/ 778م)ــ أمـير المـؤمنين في الحـديث ـ ولـه مـن الكتـب "الجـامع الكبـير"و"الجـامع الصغير"،كلاهما في الحديث.

والإمام مالك بن أنس (ت 179هــ/ 796م) أحـد الأئمـة الأربعـة عنـد أهـل الـسنة، وجَّـه إليـه الرشيد العباسي ليأتيه فيحدثه، فقال: العلم يُؤتَى. فقصد الرشيد منزله واستند إلى الجدار، فقـال مالـك: يا أمير المؤمنين، من إجلال رسول اللـه إجلال العلم. فجلس بـين يديـه فحدّثـه، ومـن مؤلفاتـه كتـاب "الموطأ".

وسفيان بن عيينة (ت 198هـ/ 814م) كان حافظًا ثقة، واسع العلم، قـال عنـه الـشافعي: لـولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. له كتاب "الجامع" في الحديث. والإمام أحمد بن حنبل (ت241هــ/ 856م) صاحب كتاب "المسند" الذي اشتمل على أربعين ألف حديث تكرر فيها عشرة آلاف، ويعدّ هذا الكتاب من الكتب المعتمدة في علم الحديث.

وشهد علم الحديث في القرن الثالث الهجري نشاطًا كبيراً عندما اتسعت حركة الجمع, واسـتقر نقد الحديث للتمييز بين الصحيح والضعيف، وجمعت الأحاديث في كتب خاصة، وأفردت عن الـشروح الفقهية، فظهرت المصنفات الصحيحة وأشـهرها صـحيح البخـاري (ت256هــ/870م)، وصـحيح مـسلم (ت261هـ/ 875م)، وسنن ابن ماجه (ت273هـ/887م)، وسـنن أبي داود (ت275هــ/ 889م)، وجـامع الترمذي (ت279هـ/ 893م)، وتسمى هذه الكتب (بالصحاح الستة)، وأشهرها توثيقًا صـحيحا البخـاري ومسلم.

الفقه:

كان اختلاف أئمة الفقه في بعض النصوص الفقهية، واستنباط الأحكام منهـا قـد أدى إلى تعدد المذاهب الفقهية، واشتهر من هذه المذاهب أربعة هي: مذهب مالـك

إمام أهل الحجاز، وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة أهل الحديث. ومذهب أبي حنيفة إمام أهل العراق، وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الرأي والقياس. ومذهب الشافعي وكان يسير أولاً على طريقة أهل الحجاز، ثم جعل مذهبه وسطًا بين الطريقتين. ومذهب أحمد بن حنبل، وكان من كبار المحدثين، واختص هو وأصحابه بالمذهب الحنبلي الذي يبعد عن الاجتهاد؛ مما أدى إلى قلة عدد المتمسكين بمذهبه.

ظهور المدارس الفقهيه

ظهرت في ميدان الفقه مدرستان: مدرسة أهل الحديث في المدينة وعلى رأسها الإمام مالك الذي كان يأخذ بمبدأ التوسع في النقل عن السنة، ومدرسة أهل الرأي في العراق وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المولود بالكوفة سنة 80هـ/ 700م، ومات ببغداد سنة 150هـ/ 767م.

وقيل: إنه حج وهو في السادسة عشرة من عمره مع أبيه، وشهد عبد اللـه بن الحارث أحد الصحابة يحدّث بما سمع عن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، كما روي أيضًا أنه سمع مالك بن أنس، وكان أبو حنيفة بجانب اشتغاله بالعلم يحترف التجارة؛ فيبيع الخز، ويجلس في الأسواق مما أكسبه خبرة عظيمة, وجعله يعرف حقيقة ما يجري في الأسواق من معاملات الناس في البيع والشراء.

وقد تعلم أبو حنيفة الفقه في مدرسة الكوفة، وأخذ عن عطاء بن أبي رباح، وهشام بن عروة، ونافع مولى عبد اللـه بن عمر، ولكنه أخذ أكثر علمه عن أستاذه حماد بن أبي سليمان الأشعري، وكان أبو حنيفة يتشدد في قبول الحديث، ويتحرّى عنه وعن رجاله.

ولم يصل إلينا أي كتاب في الفقه لأبي حنيفة، غير أن ابن النديم ذكر من بين كتبه كتاب الفقه الأكبر ـ وهو في العقائد ـ ورسالته إلى البُستي، وكتاب الرد على القدرية، والعلم برًّا وبحرًا شرقًا وغربًا بعدًا وقربًا.

ومن فقهاء ذاك العصر مالك بن أنس الذي قضى حياته بالمدينة المنورة، روي أنه أخذ قراءة القرآن عن نافع بن أبي نعيم، وأخذ العلم عن ربيعة الرأي، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة كابن شهاب الزهري، ونافع مولى عبد الله بن عمر، وروى عنه الأوزاعي.

ومن أشهر أئمة هذا العصر أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الذي جمع بين مدرستي النقل والعقل بما آتاه الله من سعة العقل والقدرة على الابتكار، وهو أول من تكلم في أصول الفقه، وأول من أخذ في وضع مبادئه، وكان الشافعي مُعظِّمًا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنه إذا أراد أن يحُدِّث توضأ وجلس على صدر فراشه, وسرح لحيته, وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة.

قال عنه أحمد بن حنبل رحمه الله: ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي؟! فإني سمعتك تكثر من الدعاء له. فقال: يا بني, كان الشافعي كالشمس للدنيا, وكالعافية للبدن، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض؟

ومن هؤلاء الأئمة أحمد بن حنبل رحمه الله الذي قال عنه الإمام الشافعي رحمه الله عندما خرج من بغداد إلى مصر: "خرجت من بغداد وما خلَّفتُ بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل". غير أن مذهبه قليل الأتباع، وأكثرهم بالشام ونجد والبحرين، وقد شهد له أئمة عصره بالانفراد بالزهد والورع والتقوى، وموقفه من مشكلة خلق القرآن يدل على قوة عزيمته, وشدة تمسكه بالدين.

ومن فقهاء ذلك العصر أبو يوسف (ت182هـ/ 798م)، وقد تولى القضاء للمهدي والهادي والرشيد، وكان في أيام الرشيد يتقلد منصب قاضي القضاة. وكان أبو يوسف من أكبر تلاميذ أبي حنيفة، أخذ عنه الفقه، وعمل على نشر مذهبه ومبادئه بعد أن تقلد قضاء بغداد. ومن مؤلفات أبي يوسف كتاب "الخراج" الذي ألفه

للرشيد, وتعرض فيه لأهم أمور الدولة المالية التي لا يستطيع الإلمام بها إلا مـن كـان في مثـل منـصبه, وقربه من الخلفاء, وتضلعه في الفقه الإسلامي.

ومن أشهر فقهاء هذا العصر - كذلك - الليث بمـصر، وقـد أطنـب العلـماء في الإشـادة بعلمـه، روي عن الشافعي أنه قال: إن الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به. وقال ابـن وهـب: مـا رأينا أحدًا قَطُّ أفقه من الليث ت 157هـ/ 774م

علم الكلام:

من العلوم التي اشتغل بها العباسيون علم الكلام، ويقصد به الأقـوال التـي كانـت تُـصاغ عـلى نمط منطقي أو جدلي للدفاع عن عقيدة المتكلم، كما يسمى المشتغلون بهذا العلـم "المتكلمـين"، وكـان يطلق هذا اللفظ أول الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية، غير أنه أصبح يطلق على من يخـالفون المعتزلة ويتبعون أهل السنة والجماعة.

وكان من أثر ذلك أن أخذت كل فرقة تدافع عـن عقيـدتها، وتعمـل عـلى دحـض الأدلـة التـي وردت في عقائد مخالفيها، وكانت المناظرات تعقد بين المتكلمين في قصور الخلفاء، وفي المعاهد الدينيـة كالمساجد، وغير الدينية كبيوت الحكمة. ومن أشهر المتكلمين: واصل بن عطـاء، وأبـو الهـذيل العـلاف، وإبراهيم النظام، وعمرو بن بحر الجاحظ، وبشر بن غياث، وثمامة بن أشرس.

وقد ظهر في عهد المأمون جماعـة مـن كبـار العلـماء والمتكلمـين الـذين تنـاولوا أصـول الـدين والعقائد، وحَكَّموا عقولهم في البحث، ونشأت بسبب ذلك اعتقادات تخالف اعتقادات عامة المسلمين، وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث، وكان اعتماد المتكلمين في مباحثهم على العقل دون النقـل، ومال المأمون إلى الأخذ بمذهب المعتزلة الفاسد، القائم على نبذ الـشرع وتقـديم العقـل عليـه؛ فقـرَّب أتباع هذا المذهب إليه، ومن ثَمَّ أصبحوا ذوي نفوذ كبير في قصر الخلافة ببغداد, ووافقهم فيما ذهبـوا

إليه من أن القرآن مخلوق وهي بدعة ضالة، وعمد إلى تسخير قوة الدولة لحمل الناس على القول بخلق القرآن؛ ربما لفساد عقيدته, وربما لشغل الناس عن القضايا السياسية ومحاسبة الحكام، كما يرى بعض الباحثين.

وصفوة القول: إن بعض خلفاء العصر العباسي الأول، كالمأمون والمعتصم والواثق شجَّع بعض الآراء الفلسفية والبحث العقلي في المسائل الدينية، وأن هؤلاء الخلفاء وقعوا فيما وقع فيه الروم من قبل، فأخذوا ببعض هذه الآراء واضطهدوا المعارضين لها، وعضدوا علماء الكلام فيما ذهبوا إليه من المسائل الدينية، وبخاصة مسألة خلق القرآن التي شغلت عقول الخلفاء وعلماء الكلام نحو خمس عشرة سنة 218- 232هـ/ 833- 847م.

النحو:

نشأ علم النحو في البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة في القرن الأول الهجري، وفي هاتين المدينتين كانت تقيم جاليات عربية تُنسَب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة، وآلاف من الصُّنّاع والموالي الذين كانوا يتكلمون الفارسية، ومن ثَمَّ تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شيء غير قليل من الفساد, ودعت الضرورة إلى تقويم اللسان العربي؛ حتى لا يتعرض القرآن الكريم للتحريف، وكان أبو الأسود الدؤلي أول من اشتغل بالنحو في عهد الأمويين، وقد قيل: إنه تلقى أصول هذا العلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومن علماء البصرة المبرزين في العصر العباسي الأول أبو عمرو بن العلاء (ت 153هـ/770م)، والخليل بن أحمد (ت 174هـ/ 791م) واضع علم العروض، وصاحب كتاب "العين" الذي يُعتَبر أول معجم وُضِعَ في اللغة العربية, وسيبويه الفارسي، ويعرف كتابه باسم "كتاب سيبويه"، والمبرد صاحب كتاب "الكامل"، ومن أشهر علماء الكوفة الكسائي الذي عهد إليه هارون الرشيد بتهذيب ابنيه الأمين والمأمون، وتلميذه الفراء المتوفى سنة 207هـ/ 823م.

ويعدّ الرؤاسي (ت235هـ/ 850م) مؤسس مدرسة الكوفة ورأس علمائها، قد غلبت عليه الناحية الصرفية التي اهتم بها الكوفيون, وتقدموا بها على أهل البصرة حتى عَدَّهم المؤرخون الواضعين لعلم الصرف.

وعندما تأسست مدينة بغداد وانتقلت الحركة العلمية إليها تكونت فيها مدرسة جديدة للنحو وقفت بين مدرستي البصرة والكوفة، وشجع الخلفاء العباسيون المناظرات العلمية بين علماء المدرستين، وأشهرها مناظرة الكسائي إمام الكوفة وسيبويه إمام البصرة، وفيها تغلب الكسائي فكان ذلك فوزًا لمدرسة الكوفة في بغداد، وقد أدى الخلاف بين المدرستين إلى بلورة علم النحو.

الأدب:

لقد شهد العصر العباسي ثورة ضخمة في الشعر، وظهر كثير من الشعراء الذين نهجوا بالشعر مناهج جديدة في الموضوعات والمعاني والأساليب والألفاظ حتى فاقوا في كل ذلك من سبقهم من الشعراء الإسلاميين والمخضرمين والجاهليين، ونشأت فيه أغراض لم تكن موجودة من قبل، وذهبت أخرى؛ فقد ضعف الشعر السياسي والحماسي والغزل العذري، وقوي شعر المدح والرثاء، وازداد الشعر الحكمي، وظهر الشعر الزهدي والصوفي والفلسفي والتعليمي والقصصي، وأسرف الشعراء المتأخرون في استعمال ضروب البديع من جناس وطباق، واهتموا بتزويق اللفظ.

وقد ازدهرت الحركة الشعرية والأدبية في العصر العباسي بفعل عملية الامتزاج بين المجتمعات والعناصر المختلفة وانتقال الثقافات الأجنبية عن طريق الترجمة، وتبلور الخلافات السياسية والمذهبية بين الفرق الإسلامية مع بعضها البعض من جهة، ومع غيرها من جهة أخرى، فضلاً عن تشجيع الخلفاء والحكام للشعراء في بغداد والمدن الأخرى، ولمع في سماء الأدب العباسي شعراء عديدون كبار أمثال: بشار بن برد

(ت168هـ/ 785م)، وأبي نواس (ت198هـ/ 814م)، وأبي تمام حبيب بن أوس الطائي ت228هـ/ 843م

(أ) الشعر

نال الشعر من الاهتمام ما لم ينله أي لون أي لون من ألوان الأدب العربي؛ لما عرف عن صلة العرب بالشعر، فقد قيل: "الشعر ديوان العرب". وكان الشعر والأدب ينقل شفهيًّا منذ العصر الجاهلي رغم ضياع أكثره، وفي إطار هذا الجهد التدويني للشعر الجاهلي ظهرت مجموعات شعرية مهمة كالمعلقات والمفضليات والأصمعيات، فالمعلقات هي أقدم ما بقي لنا من مجموعات الشعر الجاهلي، وهي سبع قصائد طوال لسبعة من شعراء الجاهلية المشهورين، جمعها حماد الراوية (ت156هـ/ 773م) وسماها المعلقات، والمفضَّليات هي المجموعة الشعرية الثانية للمفضل بن محمد الضبي الكوفي (ت164هـ/ 781م)، والأصمعيات لعبد الملك بن قُرَيْب الأصمعي (ت216هـ/ 831م)، وهناك مجموعات شعرية أخرى كديوان الحماسة لأبي تمام (ت231هـ/ 846م)، وطبقات الشعراء لابن سلام (ت231هـ/ 846م)، وغيرها من المصنفات التي دونت أهم ما حفظته ذاكرة الرواة من الشعر الجاهلي بعد الإسلام؛ فصانته لنا من الضياع.

وكان للفرق الدينية كالشيعة والمعتزلة التي نشأت في القرن الأول الهجري، ونمت في العصر العباسي الأول، شعراء يدافعون عن مبدئِهم, ويحفزون أتباعهم لمقاومة كل اعتداء يحيق بهم من خلفاء ذلك العصر.

وقد حفَّزت الانتصارات المتوالية التي ظفر بها الخلفاء العباسيون على الروم كثيرًا من الشعراء إلى إنشاد القصائد الرائعة للإشادة ببطولتهم, وما أحرزوه من نصر وظفر في سبيل دفع خطر الأعداء عن المسلمين. من ذلك ما قاله أبو العتاهية في مطلع قصيدته التي نظمها على أثر انتصار الرشيد على الروم في هرقلة:

ألا نادت هرقلة بالخراب   من الملك الموفق بالصواب

ومدح أبو تمام الخليفة المعتصم على أثر انتصاره في عمورية بقصيدته التي قال فيها:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به   نظم من الشعر أو نثر من الخطب

(ب) النثر:

أمّا النثر فلم يكن أقل ثراءً وخصبًا من الشعر، فقد بدأ النثر في صدر الإسلام بسيطًا مباشرًا موجز العبارة، وبأشكال عديدة منها: الرسائل والخطب والأحاديث والأمثال والقصص، وبتقدم الحياة الاجتماعية والعقلية تقدم النثر وتنوعت موضوعاته، وتعددت فنونه؛ فظهرت صنعة الكتابة، ومن أبرز الكُتَّاب "عبد الحميد الكاتب" الذي يُعتَبَر شيخ صناعة الكتابة، والذي قيل فيه: بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد.

حركة التعريب والترجمة والتأليف

- التعريب: نقل الكتب والنصوص من لغة أجنبية إلى اللغة العربية.
- الترجمة: نقل الكتب وترجمتها من لغة إلى لغة أخرى.

ففي عصر المأمون (عصر الازدهار العلمي) أصبحت بغداد أعظم منارة للعلم والمعرفة في العصور الوسطى، وكان التعريب من كل اللغات، وقدم لكل مترجم قُبالة كل كتاب عرَّبه زنته ذهبًا.

وعندما انتصر المأمون على تيوفيل ملك الروم سنة 215هـ/ 831م علم بأن اليونان كانوا قد جمعوا كتب الفلسفة من المكتبات، وألقوا بها في السراديب عندما انتشرت النصرانية في بلادهم، فطلب المأمون من تيوفيل أن يعطيه هذه الكتب مكان الغرامة التي كان قد فرضها عليه؛ فقبل تيوفيل بذلك وعدَّه كسبًا كبيرًا له لنجاة أمته من أدران الفلسفة اليونانية العقيمة الفاسدة. أمّا المأمون فعدَّ ذلك نعمة عظيمة عليه،

بينما كانت – في الواقع – نقمة كبيرةً على المسلمين؛ إذ تسببت تلك الكتب في إشغال المسلمين بالجدل فيما لا طائل وراءه، بل أدخلت في الإسلام عقائد وثنية مما كان يؤمن به فلاسفة الملل الأخرى كعقيدة الحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، والعقول العشرة، وغيرها.

ومن المترجمين في هذه الفترة شيخ المترجمين حنين بن إسحاق، وثابت بن قرَّة، والحجاج بن مطر.

ضعف وسقوط الخلافة العباسية

كان هذا هو الوضع في عصر القوة في الخلافة العباسية، وكانت هذه هي سماته، وقد انقلب الوضع في عصر الضعف، وهو الذي يشمل بقية خلفاء الدولة حتى سقوط بغداد عاصمة الخلافة على أيدي التتار، وقتل الخليفة المستعصم عام 656هـ/ 1258م.

فما أهم سماته؟

إن من أهم سمات عصر الضعف بالخلافة العباسية ما يلي:

سيطرة القادة والجند الترك على الخلفاء:

إذا كان عصر القوة العباسي الأول قويًّا فلم تقم فيه سيطرة عسكرية أو زعامة ذات قوة تعتمد عليها في حكمها للمنطقة، وإذا ما تمَّ وحدَّثت نفسُ بعض القادة بذلك فقد كان يُقضَى عليها بسرعة، وهذا ما حدث لعبد الله بن علي، وأبي مسلم الخراساني، ولم تقم في ذلك العصر سوى دولة واحدة هي دولة الأغالبة في تونس، إذ كان إبراهيم بن الأغلب أمير المنطقة، واعتمد على نفوذه، وجنده فأسس دولته، وسكت عنه العباسيون لتقف إمارته هذه في وجه الإمارات الأخرى الخارجة على العباسيين، والمخالفة لهم، وهي إمارات الخوارج في "تاهرت" و"سِجِلْماسة"، وإمارة

الأدارسة في المغرب الأقصى في فاس، ودولة الأمويين في الأندلس، وبهذا فلم تقم سوى دولة واحدة في عصر القوة العباسي اعتمدت على الجند.

وشعر الخليفة المأمون أن بعض القادة الذين أصبح لهم نفوذ لم يعد بالإمكان وضع حدٍّ لهم بسهولة، وخاف مغبة الأمر؛ لذا فقد طلب من أخيه المعتصم الإكثار من جلب الأتراك من بلاد ما وراء النهر على شكل مماليك، فحياة المدن لم تُفسد طباعَهم بعدُ، ويمكن تدريبهم تدريبًا عسكريًّا كي يكونوا أداةً طيعةً بيد الخليفة تحمي بهم الثغور، وتضرب بهم خصوم الدولة في الداخل، وبدأت أفواج الترك تفد إلى بغداد حتى ضَجَّ منهم سكانها، وما أن أصبحوا جنودًا لهم نفوذ حتى كثرت تعدياتهم فقد أفسدتهم حياتهم الجديدة، وحدث الخلاف بينهم وبين البغداديين، واضطر المعتصم إلى بناء مدينة "سامراء" والانتقال بهم هناك، ومع الزمن أصبح منهم قادة اشتهر منهم "الأفشين" و"بغا" و"وصيف" وغيرهم, وزاد نفوذهم في الدولة, وأخيراً تآمروا مع المنتصر على قتل أبيه المتوكل عام 247هـ/ 862م.

ومع مجيء هؤلاء الجند إلى مركز السلطة أصبحت الأمور بأيديهم، وبقي الخليفة اسمًا أو صورة في قصره ليس عليه سوى التوقيع على التعليمات في كثير من الأحيان, أو إصدار الأوامر حسب رأي القادة، حتى وصف الخليفة أحد الشعراء فقال:

خليفة في قفصٍ بين وصيف وبُغا يقول ما قالا له كما تقول البَبُّغا

وأصبح الحكم بالسيف لا بالرأي, والتنفيذ بالسوط لا بالحكمة، والناس مجبرون على الخضوع سواءٌ أكان الأمر حقًّا أم باطلاً، وقد قال أحد الشعراء معبراً عن هذا الوضع:

لله دَرُّ عصابةٍ تركيةٍ جعلوا نوائب دهرهم بالسيف

قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكسوا جميع الناس ثوب الخوف

وهكذا فسد الوضع فلم يأمن الناس بعد ذلك على أرواحهم، ولا على أموالهم، ولا على أعراضهم، وهُدِرَت الكرامة، وفَقَدَ الناس حريتهم، وضاعت العزة، وأصاب الأمة الذل، ومتى وقع ذلك فقدت الأمة مقوماتها، ولم تعد قادرة على القتال، ولا على المجابهة، وأصبح المجتمع مضطرًا للخضوع للقادة المتسلطين، وقبول كل رأي يقوله العسكريون، وهذا ما يريدونه عادة، ولم يعرفوا نتائجه، وإنما يعرفون مصالحهم، وبسط نفوذهم وسيطرتهم, وإشباع رغبات نفوسهم؛ هذا في الداخل، وهو نفسه ما يريده أعداء الإسلام في الخارج، ولا يختلف الوضع العسكري في أي زمان ولا أي مكان عن هذا أبدًا.

وليس معنى هذا أنه لا يوجد قادة عسكريون صالحون على مدار التاريخ، فقد وُجِدَ أمثال: نور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين الأيوبي وغيرهما، ولكن هذه نسبة قليلة، وما أن ينتهي الضابط الصالح حتى يرجع العرف العسكري، بل إن العسكري الصالح قلَّما يطول أمره لأنه يقف أمام أهواء الذين دونه، فيشعرون بالضغط والكبت فيعملون على إزاحته بصورة أو بأخرى، ومن هنا كان أصحاب القوة من العسكريين في العصر العباسي الثاني من أسباب الضعف الذي أصاب الأمة سواءٌ أكانوا عربًا أم تُركًا أم فُرسًا، فالسيف واحد بأية يدٍ كان.

انغماس المجتمع في الترف:

بينما كان العصر العباسي الأول عصر فتوحات عظيمة، وتوسعت بالدولة إلى آفاق غير متخيَّلة، وأصبح المستوى المادي طاغيًا؛ ويبدأ المجتمع في التمتع بثمارها، وبالنعيم الدنيوي الذي صنعه لهم المال الوفير، ووفرته لهم القصور الشاهقة، والحدائق الغنَّاء، والجواري الحسان؛ فانزلقوا إلى اللهو والمجون والفساد، وازدهرت صنعة الغناء بدل الجهاد، وصار المغنون أشهر من العلماء، وطغى حب الدنيا في القلوب، وكان من الطبيعي - والحال هكذا - أن تتوقف الفتوحات، ويركن الناس إلى الدنيا؛ فيصير الأمر إلى زوال.

وقد نشأ على إثر حالة المجون هذه حركة مضادة تدعو للزهد في الدنيا ومتاعها، برز فيها الشاعر الكبير أبو العتاهية، لكن موجة الفساد كانت طاغية؛ فغمرت الدولة العباسية حتى أسقطتها، كما أسقطت من قبلُ الإمبراطورية الفارسية.

ازدهار الشعوبية:

الشعوبية قوم متعصبون ضد العرب مفضِّلون عليهم العجم، ظهرت دعوتهم بعد عصر الخلفاء بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط في خدمة الدولة الإسلامية، فنشأت العداوات بين العرب أصحاب الدولة، وبين العجم الذين انتحلوا الإسلام، وكما حدثت هذه المفاضلة بين العرب والعجم، حدثت أيضًا بين العرب أنفسهم في صيغة أخرى، وهي: قيس ويمن، هذا مع أن هدي الكتاب العزيز يقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللـه أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللـه عَلِيمٌ خَبِيرٌ [الحجرات: 13.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: 10].

وقد قال الرسول الكريم صلى اللـه عليه وسلم في حِجة الوداع» :أيها الناس، إن اللـه قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء، ليس لعربي على عجمي فخر إلا بالتقوى، كلكم لآدم، وآدم من تراب«،ويقال على الجملة: إن الإسلام الذي جاء لإسقاط الجنسية، حاول بعضهم - للحرية التي استمتعوا بها على عهد عز العرب - أن يعيدوا نغمتها، وألَّف الشعوبيون رسائل وكتبًا، وصنَّفوا المسامرات والخطب، وراجت أسواق الممادح والمقابح، ورد العرب على العجم برفق لئلاً ينفِّروهم، وكانوا يرمون إلى تأليف القلوب لا إلى تمزيقها، شأن الأمم العاقلة التي ترمي أبدًا إلى تكثير سوادها، وجمع القلوب على حبها، تتحاشى العبث بمقدسات الناس، وتحفظ لهم حرمتهم وكرامتهم.

الحركات الانفصالية:

لقد مضى العصر العباسي الأول ولا تزال للمسلمين دولة واحدة، وجميعهم يتبعون خليفة واحد، وإن وُجِدت ولاياتٌ لا تقر بالخليفة القائم بالأمر، أو تختلف

معه قليلاً أو كثيرًا، فإننا يمكن أن نعدها إمارات على خلاف مؤقت مع أمير المؤمنين؛ وذلك مثل: الدولة الأموية في الأندلس، وكذلك قامت دولتان للخوارج في المغرب الأوسط حوالي عام 140هـ/ 758م إحداهما للإباضيين في "تاهرت"، والأخرى للصفرية في "سِجِلماسة"، ورغم أن الخوارج يختلفون فكريًّا مع أهل السنة؛ إذ يُكفِّرون من لم ير رأيهم، ومع ذلك فلم تعلن هاتان الإمارتان الخلافة، وقامت دولة الأدارسة عام 172هـ/ 789م في المغرب الأقصى على يد إدريس بن عبد الله بن حسن, ومع أنه كان قد نجا من معركة "فخ" عام 169هـ/ 786م في أحد شعاب مكة، وقد قتل فيها كثير من أهله وذويه، وفر ناجيًا بنفسه، خائفًا من تعقُّب العباسيين وأنصارهم، وعندما تمكن من إقامة دولته لم يعلن نفسه خليفة، وتأسست دولة الأغالبة في المغرب الأدنى عام 184هـ/ 800م، ولكنها بقيت تتبع العباسيين، واستمرت إمارة عباسية أو ولاية تتبع بغداد، ولكنها وراثية في ولاتها.

أمَّا في عصر الضعف العباسي الطويل، فقد نشأت دويلات في مشرق الدولة الإسلامية إضافة إلى ما نشأ في مغربها؛ فقامت في المشرق الإسلامي دول انفصالية منها الدولة الطاهرية (205- 259هـ/ 821- 872م)، والدولة الصفارية (254- 298هـ/ 868- 911م)، والدولة السامانية (261- 389هـ/ 875- 999م).

وكذلك زادت الدول المستقلة في مغرب الدولة الإسلامية وخاصة في مصر، فقد قام المماليك بتأسيس دول لهم في مصر مثل: الدولة الطولونية (254- 292هـ/ 868- 904م)، والدولة الإخشيدية (323- 358هـ/ 934-968م)، والدولة الفاطمية في بلاد المغرب ومصر (297- 567هـ/ 909- 1171م).

وظهرت دول أيضًا في وسط الدول الإسلامية، فقد قامت الدولة الحمدانية في الموصل (317- 380هـ/ 929- 990م)، وفي حلب (333ـ 394هـ/ 944- 1003م).

وأخيرًا يمكن القول: إن وجود هذه الدويلات إنما يعود إلى الضعف الذي أصاب الدولة العباسية، وإن وجود دويلات قد زاد في الضعف، أو هو سبب من أسبابه، ومَرَدُّ كل ذلك إلى ضعف الإيمان في النفوس، وتراجع الفكر الإسلامي من العقول، وعدم فهم طبيعة الإسلام في الجهاد، والسير وراء أصحاب المنكرات والأطماع بمجرد ادعائهم الانتساب إلى آل البيت مع وضوح ضلالهم وضلالاتهم، مما دفعهم إلى القيام بحركات ضد الدولة استغلها أهل السوء، وقد نُرْجِع ذلك إلى الجهل الذي يؤدي إلى ذلك، ولكن الجهل ليس إلا من ظواهر ضعف الإيمان، وكل ذلك أدَّى إلى وجود أكثر من خليفة في بلاد المسلمين، وتعدد الدول المنفصلة عن جسم الخلافة.

إنَّ سنن الله عز وجل لا تتخلَّف، ولا تتبدل، ولا وساطة فيها لأحدٍ كائنًا مَن كان؛ لذا كان لا بد من أن تجري تلك السنن على الدولة العباسية التي خالفت المنهج الإسلامي من أول يوم، وقد جرت تلك السنن باجتياح التتار لأراضي الخلافة بكل وحشية، حتى حاصروا بغداد، بينما الخليفة العباسي لاهٍ يستمتع برقص الجواري، ويقرِّب منه الخونة، كالوزير الشيعي ابن العلقمي الذي تعاون مع هولاكو ضد المسلمين.

وكانت النهاية الحزينة، بل المفجعة باستباحة بغداد أربعين يومًا، وقتل مليون من سكانها، بعد قتل العلماء، والأئمة، والقادة المجاهدين، والأعيان، وكبار التجار، ثم قتل الخليفة المستعصم نفسه رفسًا بالأقدام.

تسلسل حكم الخلفاء العباسيين في العصر العباسي الأول و الثاني:

خلفاء العصر العباسي الأول هم

- أبو العباس السفاح (132- 136 هج / 750-754 م)
- أبو جعفر المنصور (136- 158 هج / 754 -775 م)
- المهدي (158 – 169 هج / 775- 785 م)
- الهادي (169 – 170 هج / 785 – 786 م)

- هارون الرشيد (170- 193 هج / 786 – 808 م)
- الأمين (193 – 198 هج / 808 – 813 م)
- المأمون (198 – 218 هج / 813 – 833 م)
- المعتصم (218 – 227 هج / 833 – 842 م)
- الواثق (227 – 232 هج / 842- 847 م)

خلفاء العصر العباسي الثاني هم

- المتوكل علي الـلـه (232 – 247 هج / 847 – 861 م)
- المنتصر بالـلـه (247 – 248 هج / 861 – 862 م)
- المستعين بالـلـه (248 – 252 هج / 862 – 866 م)
- المعتز (252 – 255 هج / 866 – 869 م)
- المهتدي (255 – 256 هج / 869 – 870 م)
- المعتمد علي الـلـه (256- 279 هج/ 870 – 892 م)
- المعتضد بالـلـه (279 – 289 هج/ 892 – 902 م)
- المكتفي بالـلـه (289 – 295 هج/ 902 – 908 م)
- المقتدر بالـلـه (295 – 320 هج / 908 – 933 م)
- القاهر بالـلـه (320 – 322 هج / 933- 934 م)
- الراضي بالـلـه (322 – 329 هج/ 934 – 940 م)
- المتقي لله (329 – 333 هج / 940 -944 م)
- المستكفي بالـلـه (333 – 334 هج/ 944 – 946 م)
- المطيع لله (334 – 363 هج / 946 – 974 م)

- الطائع لله (363 – 381 هج / 974 – 991 م)
- القادر بالله (381 – 422 هج / 991 – 1031 م)
- القائم بأمر الله (422 – 467 هج / 1031 – 1075 م)
- المقتدي بأمر الله (467 – 487 هج / 1075 – 1095 م)
- المستظهر بالله (487 – 512 هج / 1095 – 1118 م)
- المسترشد بالله (512 – 529 هج / 1118 – 1135 م)
- الراشد (529 – 530 هج / 1135 – 1136 م)
- المقتفي لأمر الله (530 – 555 هج / 1136 – 1160 م)
- المستنجد بالله (555 – 566 هج / 1160 – 1170 م)
- المستضئ بالله (566 – 575 هج / 1170 – 1180 م)
- الناصر لدين الله (575 – 622 هج / 1180 – 1225 م)
- الظاهر بامر الله (622 – 623 هج / 1225 – 1226 م)
- المستنصر بالله (623 – 640 هج / 1226 – 1242 م)
- المستعصم بالله (640 – 656 هج / 1242 – 1258 م)

الخلاصة

لم يكن قيام الدولة العباسية مجرد تسليم السلطة من خليفة إلى آخر، أو انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين في حكم الجماعة الإسلامية، بل يُعَدُّ هذا الحدث تطورًا محوريًا وخطيرًا في خط سير الأمة الإسلامية..

وقد حاول المؤرخون كشف مكنونات هذا التحول وتفسيره منطلقين من مفاهيم مختلفة، فقد رأى فيه بعضهم:

1. ثورة الفرس على الحكم العربي.
2. في حين علَّلَه بعضُهم بأنه مجرد ثورة على حكم بني أمية لإزاحتهم عن الحكم وإحلال العباسيين مكانهم..
3. وقال فريق آخر بحتمية هذا التحول نتيجة التطورات التي شهدها العالم الإسلامي خلال القرن الأول الهجري..
4. ويرى فريق آخر بأنه اجتهاد فقهي خاطيء، فالشيعة يقولون بأولويةآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم بالخلافة، وأحق آل البيت هو عليٌّ كرم الله وجهه،وأن عليًا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها،ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهابذةُ أهل السنة، ولا نَقَلَةُ الشريعة،هذا في مذهبهم الفاسد..

ومن هنا نشأت فكرة الوصية، ولُقِّبَ عليٌّ رضي الله عنه بالوصي يريدون أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى لعلي بالخلافة من بعده، وهكذاكلُّ إمام وصيٌّ من قبله..

وعندما قامت الدولة العباسية لم يَرُقْ للعلويين أن يظفر العباسيون بالخلافة دونهم، واعتبروا أن العباسيين خدعوهم إذ لولا اتحادهم معهم ضد الأمويين لما مهد الطريق أمامهم إلى الخلافة..

ويرى البعض بأنها حركة شيعية في ثوب سني، والصواب أنها هذه الأسباب جميعًا..

وأرى ان السبب ماتم ذكره في رقم 3 والـلـه أعلم „

الثورة الخراسانية (عرب ـ فرس ـ أتراك)

قامت الفتوحات الإسلامية الأولى على سواعد العرب، وقد استقر أعداد من الفاتحين في المناطق التي دخلوها، بل إن قبائل وبطونًا كاملة قد استقرت في جهة معينة نتيجة وجود كثيرين من الفاتحين من أبنائها، وأما وجودهم في مراكز القيادة فهذا أمر طبيعي بصفتهم الفاتحين، وحيث الخلفاء من العرب،ويعتمدون على من يعرفون، وكما حدث هذا عند الأمويين حدث عند العباسيين..

وقد كانت العصبية بين القيسية واليمنية العربيتين أشد بكثير من العصبية بين العرب والفرس، وإن الخلاف بين الشاميين والحجازيين في الأندلس كان أشد مما هو بين العرب والبربر.

وعندما قامت الدعوة العباسية اتخذت من الكوفة مركزًا لها بصفة أن أنصار آل البيت فيها كثيرون، ومنها يمكن التوجه نحو خراسان والاتصال فيها بسهولة ويسر، ثم إن الدعاة والإمام قد رأوا ضرورة التركيز على الدعوة في خراسان لا لأنها مركز ثقل بالنسبة إلى الفرس أو إلى الترك، وإنما لقيام الصراع على أشده بين القيسية واليمنية من العرب حيث يمكن الإفادة من هذا الصراع وكسب العناصر المحايدة التي ضاقت ذرعًا به، أو كسب اليمنية التي تشكل أكثرية المجموع العربية هناك، والتي تعادي والي خراسان نصر بن سيار الذي يعتمد على القيسية ويتعصب لها، وقد وجد الدعاة العباسيون- فعلاً- آذانًا مصغية في خراسان، وتمكنوا من النشاط حتى تم لهم الأمر، ولم تكن خراسان لتختلف عن غيرها من الأمصار الإسلامية..

وهناك نقطة يمكن أن نلاحظها وهي أن سكان خراسان ليسوا من الفُرس،وإنما هم من الأتراك، ومعروف أن حاضرتها كانت مدينة مرو، وهي ضمن بلاد

التركمان التي تخضع اليوم للروس، وأن خراسان التي كانت تشمل ما يقع الآن في شمال بلاد الأفغان، وتشمل شرقي إيران، وبلاد التركمان، إن هذا المناطق تضم اليوم سكانًا من الترك بأكثريتهم، وكذا كانت يوم ذاك، وإن ضمت -إضافة إلى ذلك- مجموعاتٍ من الفُرْسِ من السكان الأصليين ومجموعات من العرب والفرس جاؤوا فاتحين واستقروا فيها،إلا أن ارتباط قيام الدعوة العباسية بخراسان، وارتباط تلك الدولة في أذهاننا بالفُرس قد جعلنا نتصور دائمًا سكان خراسان من الفرس، وهو الأمر المفهوم لدى أكثرية الناس،وقامت عصبية على الوهم ضد الفرس، هذا بالإضافة إلى أن الرجل الذي قامت الدولة على كاهله، أبو مسلم الخراساني، قد نُسِبَ إلى خراسان، والواقع أنه ليس من خراسان وإنمامن فارس كما أن هذا إنما هو اسم حركي، فاسمه إبراهيم بن عثمان..

قامت الدولة العباسية نتيجة التخطيط والسرية على أيدي سكان خراسان سواء كانوا عربًا أم فرسًا أم تُركًا، وشكل طبيعي أن يحصل هؤلاء على مراكز كبيرة ومناصب عالية في الدولة، وكان من جملة هؤلاء أعداد من الفرس ـ مع أنهم أقل من غيرهم ـ ما داموا يشكلون جزءًا من السكان، وبرز منهم فئة، وظن بعضهم أن الدولة أصبحت لهم ما دام منهم كبير القادة وهو أبو مسلم الخراساني، ثم لم يلبث أن حدث نزاع بينهم وبين الخلفاء العباسيين الذين لايريدون أن يستأثر غيرهم بالسلطة سواء أكان عربيًا أم فارسيًا أم تركيً، وكما تخلصوا من أبي مسلم الخراساني فإنهم قد تخلصوا أيضًا من عبد الله بن علي بن العباس الهاشمي عم الخليفة، وقائد الدولة، بل إن الخليفة المنصور قد ضرب أحدهما بالآخر، فلماذا ركزّ أصحاب العصبيات على أبي مسلم وأغفلوا التخلص من عبد الله بن علي؟

فكلاهما صاحب أطماع بغض النظر عن فارسية الأول وعربية الثاني..

إن النزاع الذي حصل بين العرب والفرس في العصر العباسي الأول ـ على زعمهم،ولم يحدث نزاعٌ- ليس هو بالمعنى العصبي القومي الذي عرفته البلدان الإسلامية في أيامهاالأخيرة نتيجة العدوي التي انتقلت إليها من أوروبا، وإذا سلطنا الأضواء

على ذلك الصراع بين العرب والفرس فلماذا نغفل الخلاف بين القيسية واليمنية ؟ وعندما نعلم أن اليمنية وقفت مع الفرس تقاوم الأمويين الذين يدعمون القيسية، عرفنا أن النزاع لم يكن قوميًا وإنما لتحقيق الأطماع والمصالح، وهو ما حدث تمامًا من خلاف بين الشاميين والحجازيين في الأندلس..

وإن النزاع الذي حدث بين التجمعات في العصر العباسي الأول إنما هو تكتلات لتحقيق أغراض قبل أن يكون عصبية قومية، فقد بقى عدد من الفرس بجانب الخلفاء العباسيين بعد أن ضربوا أبا مسلم الخراساني، والبرامكة وغيرهم، وقام بعضهم بضرب فرسٍ آخرين، إن القومية العلمانية الحديثة هي التي ركزت على ذلك التعصب،وزادت فيه، وأعطته تلك الصفة ووصفت العصر العباسي بنزعة خاصة، إن هذه الصفة وتلك النزعة لم تكونا معروفتين يومذاك أبدًا..

وأرى أنه بالرغم من خطورة الفتنة الكبرى التي كانت بين الصحابة إلا أنها كانت أرحم بكثيرمن الفتنة التي صاحبت قيام الدولة العباسية وذلك بسبب:

- انتهاء جيل الصحابة.
- أن الصحابة كانوا مجتهدين؛ فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ ولكل أجره..ولكن هنا كانت الدنيا إلى حد كبير محركة لأطراف كثيرة في الصراع...

خصائص عامة للعصر العباسي :

إيجابيات:

1ـ التعاون في مواجهة الأخطار الخارجية:

لقد أرسل صلاح الدين الأيوبي في المشرق إلى يعقوب بن يوسف الموحدي في المغرب، يطلب دعمه لمحاربة الصليبيين، فجهز المنصور يعقوب بن يوسف ثمانين ومائة سفينة، وحال دون وصول الصليبيين لقتال صلاح الدين، وبرهن ابن خلدون بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية، كما يجب ألا

ننسى أن الخلافة العباسية والعبيدية قد عملت كلاهما على قتال الصليبيين -في بعض الفترات- رغم ما بينهما من عداء..

2ـ نمو البحرية الإسلامية في المحيط الهندي:

كان لنمو البحرية الإسلامية في المحيط الهندي أثر عظيم في التجارة، فقد أتاح هذا النمو لتجارة الهند أن تدخل أسواق العراق بطمأنينة، كما أتاح للثقافة الهندية أن تواكب التجارة، وقد أدى تفاهم العباسيين مع ملوك الفرنجة إلى إتاحة لفرصة لتجارتهم أن تمتد إلى غربي أوروبا وشمالها الغربي..

3ـ النشاط العلمي:الملحوظ في العلوم الشرعية والحياتية..

الترجمة:

قام عبد الله بن المقفع (ت 142هـ) بأول نقْل في الدولة العباسية؛ فقد نقل عددًا من كتب السلوك إلى اللغة العربية، ووضع كتاب كليلة ودمنة بالاستناد إلى قصص فارسية وهندية، ومنذ عهد أبي جعفر المنصور (ت158هـ) أصبح النقل في رعاية الدولة..

وفي زمن هارون الرشيد أصبح التعريب عملاً منظمًا، وممن قام به يوحنا بن ماسويه، وسَلَمٌ أمين مكتبة "بيت الحكمة"، والحجاج بن مطر..

وفي عصر المأمون (عصر الازدهار العلمي) أصبحت بغداد أعظم منارة للعلم والمعرفة في العصور الوسطى، وكان التعريب من كل اللغات، وقُدِّمَ لكل مترجم قبالة كل كتاب عرَّبه، زنته ذهبًا..

وعندما انتصر المأمون على تيوفيل ملك الروم سنة 215هـ علم بأن اليونان كانوا قد جمعوا كتب الفلسفة من المكتبات، وألقوا بها في السراديب، عندما انتشرت النصرانية في بلادهم،فطلب المأمون من تيوفيل أن يعطيه هذه الكتب مكان الغرامة

التي كان قد فرضها عليه،فقبل تيوفيل بذلك، وعَدَّه كسبًا كبيرًا له، أما المأمون فعَدَّ ذلك نعمة عظيمة له..

ومن المترجمين في هذه الفترة، شيخ المترجمين حنين بن إسحاق، وثابت بنقرة، والحجاج بن مطر..

سلبيات:

1. عدم الوفاء بالعهد: كان يزيد بن هبيرة ـ أحد ولاة بني أمية ـمتحصنًا في واسط؛ فأرسل أبو سلمة الخلال جيشًا بقيادة الحسن بن قحطبة حاصره فيها،وجرت مناوشات بين الطرفين لم تسفر عن نتيجة؛ مما دفع أبا العباس أن يرسل أخاه أباجعفر ليقود حصار واسط بنفسه، وعندما أتى ابنَ هبيرة خبرُ مقتل مروان الثاني طلب الصلح، وجرت مفاوضات بين الطرفين أسفرت عن منح ابن هبيرة وأنصاره الأمان، وبعث أبو جعفر بكتاب الأمان إلى الخليفة الذي استشار أبا مسلم في ذلك، وبناء على نصيحة هذا الأخير، أمر أبو العباس أخاه أبا جعفر بقتل ابن هبيرة وعدد من أصحابه، وبقتل ابن هبيرة تمت تصفية الجيوب الأموية..
2. تراجع النشاط الحربي والجهادي بصفة عامة، وفي الغرب والبحر المتوسط بصفةخاصة: لقد تراجع النشاط الحربي والجهادي الكبير الذي شهده العصر الأموي على الجبهة الغربية في عالم البحر المتوسط، ونظر العباسيون إلى شواطئه على أنها حدود، ونهايات لدولتهم، ينبغي الدفاع عنها لا الهجوم منها.. ونتيجة لهذا التراجع تولت الإمارات الإسلامية في المغرب والأندلس مسئولية الدفاع عن الحوض الغربي لهذا البحر..
3. الاهتمام بأجزاء من العالم الإسلامي دون أجزاء: لقد اهتم العباسيون بالمشرق على حساب المغرب، ومن ثم نُقِلت العاصمة من دمشق إلى بغداد

لتكون قريبة من المشرق مركز الثورة العباسية، ثم لأن الشام كانت موالية للأمويين..

كما نتج عن انتقال العاصمة، والابتعاد عن الاهتمام بالشئون الغربية أن ضعف النفوذ العباسي في المغرب الإسلامي مما أدى إلى انفصال تلك الأطراف الغربية عن السلطة المركزية، فاستقلت الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل الأموي، وانفصل المغرب الأقصى على يد الأدارسة العلويين، واستقل بنو رستم الخوارج الأباضية بالمغرب الأوسط، واكتفى العباسيون بإقامة دولة حاجزة موالية لهم في المغربالأدنى هي دولة الأغالبة..

4. التأثر بالعادات والتقاليد الفارسية: لقد تأثر العباسي ون ببعض العادات والتقاليد الفارسية، حيث وجدت طريقة خاصة للتسليم على الخليفة مثل :الانحناء، وتقبيل الأرض، أو ذيل الثوب، وقد خالف العباسيون بذلك الروح الإسلامية العربية التي ظللت حياة الأمويين.. وتأثرت حياة الخلفاء، وأساليبهم في العمل وطريقتهم في الحكم بالأساليب الفارسية، وطغت على نظمهم الإدارية تقاليد الديوان الفارسي، كما شهد بلاطهم قيام الخدم والجواري..

من التأثيرات الفارسية التي دخلت العصر العباسي، منصب الوزارة، وأضحى للوزير من حيث المظهر والاختصاص والتسمية طابع جديد لم يكن من قبل، ويُلاحظ أن معظم الوزراء العباسيين كانوا من أسر فارسية،كالبرامكة، وبني سهل، وبني طاهر، وبني خاقان وغيرهم، واتبع الوزراء والكتاب ورجال الدولة التقاليد الفارسية القديمة في العمل والمراسلات..

5. الخلافات المذهبية: كان لتعدد المذاهب واختلاف الفرق أثر سيىء على الإسلام والمسلمين، فقد حدث الصراع بين أهل السنة والشيعة أو بين الشيعة

وبعضهم البعض، وأحيانًا خلاف بين المذاهب السنية،وبسبب هذا التعصب الأعمى، وضيق الأفق أزهقت أرواح الآلاف من أبناء الأمة الإسلامية،والإسلام من كل ذلك براء..

6. دخول أفكار غريبة على المنهج الإسلامي:سواء عن طريق الترجمة ومعرفة المسلمين بالفلسفة اليونانية، أو عن طريق الفرس.. فظهرت قضايا خطيرة مثل :خلق القرآن وغيرها، وظهرت فرق متعددة كالمعتزلة والمرجئة والجهميةوغيرهم..

7. حتجاب الخلفاء عن العامة وظهور الحرس:وبرغم أن هذا كان ضروريًا لكثرة الفتن و حوادث القتل فإنني أرى أنه كان مبالغًا فيه في كثير من الأحيان...

8. اعتماد الخلفاء في العصر العباسي على نظرية "الحق الإلهي المقدس:"وهذه النظرية كانت سائدة بين الفرس، وأصبت عقيدة آمن بها المسلمون في العصر العباسي..

9. ظهور الدول المستقلة وكثرتها في العصر العباسي: لقد تجزأت الدولة الإسلامية في وقت مبكر في العصر العباسي، ولم تفلح محاولات الخلفاء العباسيين في إعادة الوحدة إلى الدولة الإسلامية، فقد قامت الدولة الأموية في الأندلس، وكذلك قامت دولتان للخوارج في المغرب الأوسط حوالي 140هـ إحداهما للأباضيين في "تاهرت"، والأخرى للصفرية في" سجلماسة"، وقامت دولة الأدراسة عام 172هـ في المغرب الأقصى، وتأسست دولة الأغالبة في المغرب الأدنى عام 184هـ ولكنها بقيت تتبع العباسيين، واستمرت إمارة عباسية أو ولاية تتبع بغداد ولكنها وراثية في ولاتها..

كما قامت الدولة السامانية الفارسية ومقرها سمرقند، والدولة الغزنوية التركية في غزنة، والدولة الطولونية والإخشيدية في مصر، والدولة الحمدانية في الموصل

وحلب، ودولة المرابطين ودولة الموحدين في المغرب، وفي اليمن دولة بني زياد في زبيد، ودولة بني نجاح في زبيد أيضًا، ودولة الصليحيين في صنعاء، ودولة بني زريع في عدن، والدولة الغورية فيالهند، والدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر، وغيرها من الدول..

ووجود هذه الدويلات يرجع إلى الضعف الذي أصاب الدولة العباسية، وإن وجود الدويلات قد زاد في الضعف أو هو سبب من أسبابه..

10. تعاون بعض المسلمين مع أعداء الأمة ضد المسلمين: لقد أسرع بعض أمراء المسلمين، فقد جاء "بدر الدين لؤلؤ" أمير الموصل ليتحالف مع "هولاكو"،كما تحالف سلطانا السلاجقة وهما "كيكاوس الثاني و"قلج أرسلان الرابع " مع هولاكو ـأيضًا ـ أما السلطان "الناصر يوسف" أمير حلب ودمشق فقد أرسل ابنه "العزيز" إلى هولاكو..لا ليقدم فروض الطاعة فقط، بل ليبقى في جيشه كأحد أمرائه، وكذلك جاء" الأشرف الأيوبي" أمير حمص ليقدم ولاءه لزعيم التتار..

لم يكن قيام دولة الخلافة العباسية مجرد بيعة خليفة دون آخر، أو انتقال الأمر من الأمويين إلى العباسيين في حكم المسلمين، ويعتبر هذا الحدث أكثر من مجرد تغيير في الأسرة الحاكمة، لقد كانت الثورة العباسية، وما نتج عنها من تغيير جذري في المجتمع الإسلامي نقطة تحول مهمة وفاصلة في هذا المجتمع، لازمته طوال العصر العباسي الأول..

وقد ثبت أن التنظيم العقدي في فترة التحضير للثورة ينم عن عبقرية فذة في الإعداد والترتيب، لقد وضع العباسيون الأوائل نهجًا في التنظيم السري أضحى مثالاً يُحتذَى طبقته بعض الدول التي قامت في كَنَفِ الخلافة العباسية كالفاطميين،بالإضافة إلى الحركات السرية التي قامت في بلاد المسلمين كالقرامطة، ويقوم هذا التنظيم على

السرية المطلقة وقد انتهج العباسيون الأوائل هذا الأسلوب السري على أثر الكوارث التـي حلَّـت بـآل البيت طيلة العصر الأموي، وما عمدت إليـه الدولـة الأمويـة منالقـضاء عـلى الحركـات العلويـة وعـلى زعمائها بشكل خاص بحيث لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة..

وتقوم الدعوة السرية حول إمام من آل البيت يدير دفَّة هذه الحركات السرية، ويرعـى هـذه التنظيمات، ويوجه النقباء والدعاة ويقودهم، وقد آلتِ الإمامة فيهذا التنظيم السري إلى بنـي العبـاس في فترة مرحلية بالغة الأهمية..

وأدرك الإمام محمد بن علي العباسي (118 ـ 125هـ) الذي آلت إليه الدعوة العباسـية، والـذي سعى لنيل الخلافة، أن نقل حق الإمامة من بيت إلى بيت آخر لابـد أن يـسبقه إعـداد الأفكـار وتهيئـة النفوس لتقبل الوضع الجديد، لذلك التزم جانب الحيطة والحذر حين طلب من أتباعه دعوة الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد..

ومن مقره في الحميمة أخذ ينظم الدعوة، ويدير شؤونها ويرسل الـدعاة والنقبـاء إلى الجهـات الملائمة وأهمها خراسان، وذلك عـن طريـق شـبكة سريـة متعـددة الحلقـات حملـت اسـم "دعـوة آل البيت "آخذًا بعين الاعتبار الحرص على إخفـاء أطماعـه نحـو الخلافـة، ولا ريـب في أن ذلـك قـد خـدع الكثيرين من مؤيدي الدعوة إذ ظنوا أنهم يعملون لذرية علي بن أبي طالب رضي اللـه عنه.

وتجلت مقدرته في وضع هيكلية التنظيم السري الذي قام على الشعارات الدعائية من اختيـار مركز الدعوة وشعاراتها والأمصار التي تنطلق منها، وتحديد مقر الدعاة ومهنتهم، وطريقة التعامل مع الناس..

فمن حيث مركز الدعوة، فقد اختارالحميمة بفعل موقعها الجغرافي عـلى خـط القوافل التجارية وطريق الحج من جهة، كما أنها تقع بعيـدًا عـن المـسرح الـسياسي..

من حيث الشعار فإنه نادى بشعار المساواة، والدعوة إلى الرضا من آل محمد، والإصلاح، وقد أسهم هذا الشعار في نجاح الدعوة عن طريق:

- اندماج الشعوب التي أسلمت في الدولة الإسلامية..
- ضمان تكتل الطالبيين وراء الدعوة..

ومن حيث الأمصار التي تنطلق منها الدعوة، فإن محمد بن علي أمر الدعاة بالتركيز على خراسان، فقد شعر بتأزم الوضع فيها واقترابه من الانفجار بفعل الصراعات القبلية وتذمر الموالي، فرأى أن مرو، وهي قصبة خراسان هي المكان الملائم لاستقطاب الأنصار لجيش الثورة؛ فأثبت بذلك أنه كان على تفهم تام للأوضاع السياسية، وتوزيع الولاءات السياسية في الأقاليم الإسلامية..

ومن حيث تحديد مقر الدعاة، فقد اتخذ الإمام العباسي الكوفة،المعروفة بالولاء لآل البيت وهي تصلح لأن تكون حلقة الوصل بين الهاشمية في الحميمة،وميدان المعركة في مرو، بفعل جوها الموالي للثورة، والمناهض للأمويين..

وقد أشار محمد بن علي على دعاته أنه يتعاطوا مهنة التجارة لإخفاء هدفهم الدعائي عن السلطة، كما أوصاهم بنشر الدعوة بالحكمة..

وهكذا توفر للدعوة العباسية القيادة الفذة والدعاة المخلصون، والبيئة الصالحة..

أطوار الدعوة العباسية :

مرت الدعوة العباسية بطورين مهمين:

الطور الأول:

يبدأ هذا الطور في مستهل القرن الثاني للهجرة، وينتهي بانضمام أبي مسلم الخراساني إلى الدعوة،ويغطي الفترة الزمنية بين عامي _100ـ128هـ/ 718ـ 746م

وقد تميزت الدعوة في هذا الطور، بالسرية التامة وخلوها من أساليب العنف، في الوقت الذي كانت فيه دولة الخلافة الأموية متماسكة..

نظَّم الدعوة في العراق ثلاث دعاة هم: ميسرة العبدي، وهو مولى لعلي بن عبد الله بن العباس، وبكير بن ماهان ويعتبر أهم دعاة العراق، وأبو سلمة الخلاّل الذي قاد الدعوة في الأعوام الخمسة الأخيرة قبل تسلم بني العباس السلطة..

أما في خراسان فقد قامت الدعوة على أكتاف جماعة من الدعاة أشهرهم أبو عكرمة السراج (مولى ابن عباس)، ومحمد بن خنيس، وحيان العطار، وكثير الكوفي، وخداش البلخي، ونقيب النقباء سليمان بن كثير الخزاعي..

وقد علمت السلطات الحاكمة بأمر الدعوة فطاردت الدعاة وقتلت بعضهم، كما أن بعضهم الآخر راح ضحية تطرفه كخداش البلخي..

وأحدث الإمام محمد بن علي العباسي تغييرًا استراتيجيًا مهمًا في فحوى الدعوة حين خصصها لنفسه، وكشف ذلك لدعاته، على أن يبقى هذا الأمر وقفًا عليهم فقط دون العامة..

وتوفي الإمام محمد في عام (125هـ/ 743م) بعد أن قطعت الدعوة شوطًا بعيدًا وقد أوصى بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم..

الطور الثاني:

يبدأ هذا الطور بانضمام أبي مسلم الخراساني إلى الدعوة العباسية واستمر حتى عام (132هـ/ 750م) وهو العام الذي سقطت فيه دولة الخلافة الأموية، وقامت دولة الخلافة العباسية..

تعرضت الدعوة العباسية بعد وفاة الإمام محمد بن علي إلى الاهتزاز بفعل قيام حركات شيعية مستقلة عنها، في خراسان فخشي الإمام إبراهيم أن يفلت زمام الأمور من يده، وتكتسح هذه الحركات دعوته، لذلك قام ليعيد طاعة الخراسانيين العرب

بشكل خاص، واستطاع بنفوذه الشخصي أن يستميل زعيمهم سليمان بن كثير الخزاعي الذي تمكن من إعادة التلاحم بين الجماعة الخراسانية، وبين الرئاسة في الحميمة..

وقد تميزت الدعوة في هذا الطور باستعمال القوة لتحقيق هدفها؛ فبعد اتساع خلاياها، وتعمُّق جذورُها في المجتمع الخراساني، أضحى لابد لها من رئيس على درجة عالية من الكفاءة والمقدرة يشرف على شؤونه، ويعد الخطط للتحركات المقبلة..

عرض إبراهيم الإمام القيادة على نقيب النقباء سليمان بن كثير، وكان شيخًا مسنًا فاعتذر عن قبولها، ثم عرضها على إبراهيم بن سلمة فاعتذر أيضًا، عندئذٍ اتخذ الخطوة الحاسمة واختار أبا مسلم الخراساني ممثلاً له في خراسان، فقلَّده الأمر وأرسله هناك..

كان اختيار أبي مسلم خطوة موفقة وفاتحة مرحلة جديدة في استنهاض حياة الدعوة بفعل أن مولى يدير دفة الأمور في خراسان ذات النفوذ الفارسي الواضح، والمضطربة قَبَليًا، أجدر بالثقة من عربي حر، وتدل الرسالة التي بعث بها الإمام إليه عندما ولاه الشروع للعمل في خراسان، أن استمالة العرب اليمانية هو حجر الأساس ومفتاح النصر، فاستقامت أمور العباسيين في خراسان نتيجة جهوده السياسية والعسكرية، واستطاع هذا الرجل بما تمتع به من كفاءات أن يصبح الداعية العباسي، المتحكم في الشرق كله بعد أن اكتسب ثقة سليمان بن كثير..

هذا وقد حفلت الأعوام الأربعة الأخيرة من حياة دولة الخلافة الأموية (129ـ 132هـ/746ـ

لتعريف بأبي العباس السفاح 132ـ 136هـ:

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد بالحميمة من الشراة في الأردن عام 105هـ

توفي والده محمد بن علي عام 125هـ بالحميمة،وهو الذي بدأ بالدعوة العباسية، وكان السفاح قد ناهز العشرين من العمر، وعرف الكثير من الدعوة وأسرارها، وعهد والده من بعده لابنه إبراهيم (أخي السفاح) الذي عرف فيما بعد بالإمام، وقد عمل على نجاح الدعوة فقوي أمره؛ فأظهر نفسه في الموسم فعرف، كماوقع كتابٌ وجَّهَه إلى أبي مسلم الخراساني في يد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية؛فأرسل إلى واليه على دمشق، فبعث من أخذه إلى حران (1) (قاعدة مروان) فسجن هناك،وكان قد أوصى من بعده لأخيه السفاح، وأمره أن يسير بأهله إلى الكوفة وذلك عام 129هـ

سار السفاح من الحميمة باتجاه الكوفة عن طريق دومة الجندل (2) ومعه من أهله ثلاثة عشر رجلاً هم أعمامه وأخواه، وأبناء إخوته وأبناء عمه..

وفي الكوفة بُويِع له بالخلافة يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الآخر عام132 هـ.

وألقى أبو العباس على عادة الخلفاء لدى انتخابهم خطبة في مسجد الكوفة أوضح فيها الهدف الذي من أجله قامت الثورة العباسية وندد بالأمويين الذين وصفهم بمغتصبي الخلافة، ووعد الكوفيين الذين ساندوا الثورة، بزيادة أعطياتهم

ولم ينس أن يذكرهم بأنه:"السفاح المبيح، والثائر المبير"..

عبد الله أبو جعفر المنصور 136هـ ـ158 هـ

التعريف به:

هو عبد الله بن محمد بن علي العباسي، أبو جعفر المنصور، ولد في الحميمةعام 95هـ وأمه أم ولد تدعى سلامة، ترعرع في وسط المجتمع الهاشمي، وطلب العلم وهوشاب من مظانة وتفقه في الدين، ونال قسطًا من علم الحديث، فنشأ أديبًا فصيحًا ملمًابسِيَر الملوك..

انتقل أبو جعفر مع أخيه وأهله من الحميمة إلى الكوفة،وعندما أفضت الخلافة إلى أخيه أبي العباس، كان ساعده الأشد في تدبير أمور الخلافة،فولاه الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان، ووجهه إلى خراسان لأخذ البيعة له، كما عهد إليه من بعده..

توفي السفاح، وأبو جعفر في الحجاز أميرًا على الحج، فأخذ لها لبيعة ابن أخيه عيسى بن موسى في الأنبار، وكتب إليه بذلك..

اتصف المنصوربالشدة والبأس، واليقظة والحزم والصلاح والاهتمام بمصالح الرعية، كَرِهَ سفك الدماء إلا بالحق، وعرف بالثبات عند الشدائد، ولا شك أن هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التي كفلت له النجاح..

الأوضاع الداخلية في عهد المنصور:

عصيان عبد اللـه بن علي:

تولى أبو جعفر المنصور الخلافة ولم تكن قد توطدت دعائمها بعد، وقد خشيمن منافسة عمه عبد اللـه بن علي الذي كان يطلب الخلافة، كما انتابه الخوف من تعاظم نفوذ أبي مسلم الخراساني، ومن خروج بني عمه آل علي بن أبي طالب على حكمه فكيف واجه المنصور هذه المشاكل الثلاث؟

الواضح أن الخليفة كان يجمع الجرأة وبُعد الهمة والمكر والدهاء، فعزم على ضرب أعدائه بعضهم ببعض، حتى تخلو له الساحةالسياسية..

كان لعبد اللـه بن علي رؤية خاصة في مشكلة الحكم، فهو بالإضافةإلى طمعه بالخلافة، فإنه انزعج من ابني أخيه أبي العباس وأبي جعفر بفعل ميلهم الشديد للفرس..

وكان أبو جعفر على حقٍّ حين خشي من طموحات عمه الذي خرج غازيًا البيزنطيين في عهد أبي العباس على رأس جيش ضم عددًا كبيرًا من العرب، وعند ماوصل إلى دلوك بنواحي حلب، علم بوفاة السفاح وبيعة المنصور، فتوقف عن

الزحف، ورحل إلى حران حيث اجتمع بأركان حربه، وتقرر ترشيح نفسه للخلافة فبايعه الجند، ومن ثمراح يزحف متجهًا نحو الجزيرة.

وهكذا استخدم عبد الله هذا الجيش الذي أعد أساسًا لغزو البيزنطيين لتحقيق أطماعه في الخلافة، مدعًيا أن أبا العباس أقامه وليًا لعهده حينما أرسله لقتال مروان الثاني..

تصرف المنصور تجاه هذا الخطر تصرفًا حكيمًا، دلَّ على أنه لا يحكِّم العواطف في القضايا الأساسية، فندب أبا مسلم لقتاله رغم حقده عليه، مظهرًا بذلك براعة سياسية، لضرب أعدائه بعضهم ببعض، بالإضافةإلى أنه كان يأمل باستقطاب الخراسانيين في جيش عمه عن طريق حاكم خراسان الذي أبدى استعدادًا للتصدي لحركة التمرد..

وتمكن أبو مسلم بدهائه السياسي والعسكري من التغلب على عبد الله بن علي في معركة جرت بينهما قرب نصيبين في منطقة الجزيرة، وفرعبد الله بعد هزيمته إلى البصرة ملتجئًا إلى أخيه سليمان بن علي، وظل متواريًا عنده إلى أن علم المنصور بذلك فأرسل يطلبه، وأعطاه من الأمان ما وثق به، وعندما جاءه قبض عليه وسجنه، وذلك عام 139هـ وظل مسجونًا حتى عام 147هـ حين قتله المنصور

كما نجح أبو جعفر المنصور في القضاء على أبي مسلم عام 137هـ والطالبيين الخارجين عليه عام 145هـ (محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم) وقد سبق الحديث عن هذه الحركات..

الأوضاع الخارجية في عهد المنصور:

العلاقة مع البيزنطيين:

اتسمت الحروب بين المسلمين والبيزنطيين في عهد المنصور بالمهادنة إذ لم تتعد المناوشات الحدودية المحدودة وذلك يعود إلى اهتمام العباسيين بتدعيم مركزهم

الداخلي.. بالمقابل كان اهتمام الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس منصبًا على التجهيزات لحرب البلغار في البلقان من جهة،ومشكلة عبادة الأيقونات من جهة أخرى..

حيال هذا الواقع، كان الخليفة العباسي يتطلع إلى إعادة بناء ما تهدم من حصون، وثغور مستغلاً الهدوء النسبي المتوقع..

والواضح أن المنصور اتبع تجاه الدولة البيزنطية، السياسة التي تتفق مع الوضع الهجومي الذي نفذه الإمبراطور البيزنطي، وهي محاولة إيقاف الهجوم عن طريق إعادة تحصين الثغور، وترميم المخربة منها وإعادة بناء المهدمة، ثم تنظيم وسائل الدفاع عنها، والجدير بالذكر أن مناطق الثغور كانت تنقسم إلى قسمين:

الأولى: منطقة الثغور الجَزَرِيَّة، وهي التي خصصت للدفاع عن الجزيرة أي شماليها، ومن أهم حصونها ملطية، المصيصة،ومرعش..

الثانية: منطقة الثغور الشامية، وتقع غربي الثغور الجزرية، وقد خصصت للدفاع عن بلاد الشام، ومن أهم حصونها طرسوس وأذنة وعين زربة..

لقد حصن المنصور هذه المناطق وخصصها بحكم إداري مستقل وحشد فيها آلاف المقاتلين والمرابطين، ومنحهم الإقطاعات، والمزارع وبني لهم البيوت والإصطبلات،وأنفق عليهم الأموال، ووضع لهم نظامًا عسكريًا ينفذونه..

هذا وقد امتازت منطقة الثغور الشامية بأن الحملات التي كانت تخرج منها برية وبحرية في آنٍ واحد،وقد أدت أساطيل مصر والشام دورًا مشتركًا مهمًا انطلاقًا من هذه المنطقة..

وبهذا النظام الثغري استطاع المنصور أن يضع حدًا لمطامع البيزنطيين..

بناء مدينة بغداد:

كان من بين أهم الأعمال التي قام بها الخليفة أبو جعفر المنصور،وتركت أثرها في مستقبل الدولة الخلافة العباسية، بناؤه مدينة بغداد والواقع أن تاريخ هذه المدينة

باعتبارها قاعدة من القواعد الإسلامية يسير جنبًا إلى جنب مع قيام دولة الخلافة العباسية وسقوطها، وقد ظل العباسيون قبلذلك ثلاثة عشر عامًا منذ وصولهم إلى الحكم دون عاصمة لملكهم حتى بنوا بغداد..

لقد أدرك المنصور المخاطر التي أحاطت بدولته الناشئة، والتي تهدف إلى تقويض حكم الأسرة العباسية، لذا عمد إلى البحث عن مكان يكون ملائمًا لعاصمة جديدة تكون تعبيرًا عن سيادة أسرته فاختار موضعًا عند التقاء نهر الصراة بنهر دجلة وأقام فيه مدينة بغداد..

واسم بغداد مشتق على الأرجح من صيغة فارسية مركبة من كلمتين هما "باغ" و"داد" تعني عطية الله، وذكر المؤرخون والجغرافيون العرب عدة اشتقاقات لهذا الاسم، وسماها المنصور "مدينة السلام" تيمنًا بجنة الخلد، أو لأنوادي دجلة كان يقال له: وادي السلام، وكان هذا هو الاسم الرسمي الذي يذكر في الوثائق وعلى المسكوكات والأوزان..

وقد شرع المنصور في بناء عاصمته عام 145هـ وقد استغرق بناؤها أربعة أعوام تقريبًا انتهى عام 149هـ.

ويعتبر المخطَّط الذي نفذه المنصور مبتكرًا، فقد جعل المدينة مستديرة تحيط بها أسوار مزدوجة تؤلف حلقتين متتابعتين، وهذا اتجاه جديد في فن بناء المدن الإسلامية، ويبدو أنه قد تأثر ببناء بعض المدن الفارسية القديمة مثل: همذان..

شيدت مدينةبغداد على شكل حصن كبير وتألفت من ثلاثة عناصر معمارية هي: التحصينات، الأسوار الخارجية، ثم المنطقة السكنية الداخلية، وضم وسط المدينة قصر الخليفة والجامع وقصور أولاده ودواوين الحكومة، ولم يكن يُسمح لأحد بركوب الخيل أو غيرها من الدواب داخل المدينة الداخلية إلا للخليفة، وإن من يريد القصر

عليه الترجل عند مداخل المدينة الداخلية، ويسير على الأقـدام باسـتثناء المهـدي، وداود بـن عـلي عـم المنصور الذي سمح لهبأن يحمل في محفة نظرًا لمرضه..

وعندما فرغ المنصور من بناء بغداد أقطع أهل بيته وأعيـان دولتـه قطـائع مـن الأرض بجـوار الأبواب خارج مدينته، ومنح جنوده الأرباض ليبنوا عليها دورهم، وذلك رغبة في تخفيـف الـضغط عـن المدينة من جهة، ومكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة من جهة أخرى، وسرعان ما عمرت القطائع وازدحمت بالسكان،وأضحت كل قطيعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها..

ويظهر الأثر الفارسي في تخطيط المدينة، إذ فُصِل الخليفةُ عـن الرعيـة، وجُعِـل لـه مقـامٌ سـامٍ يصعب الوصول إليه،كما أن ضخامة القصر والإيوان تظهر روعة الملـك، ثـم إن فكـرة الاستدارة،وحـصر بيوت السكان في أحياء منفصلة، يمكن غلقها ليلاً وحراستها بـصورة دقيقـة، يـشيرإلى الـسلطة المطلقـة المتأثرة بالفرس والتي تتعارض مع سماحة الإسلام وما عُرِف عن الأمويين..

وبنى المنصور في عام 151هـ مدينـة الرصـافة أو بغـداد الـشرقية لابنـه المهـدي عـلى الجانـب الشرقي من دجلة مقابل مدينة بغداد الغربية، وقد عرفـت باسـم "عـسكر المهـدي"، وتعـود الأسـباب الاستراتيجية لتبرز من جديد في بنائهـا حيـث وضـع المهـدي جنـده فيهـا ليكـون مـن في خـارج مدينـة المنصور عونًا في قمع الاضطرابات التي قد تنشب داخلها،ويبدو أن الخليفة أدرك أنه لن يكون آمنًا كل الأمن على نفسه بإقامته في بغداد،وجهزت الرصافة بسور وميدان وبستان وأجرى عليها الماء وربط بـين المدينتين بثلاثة جسور على نهر دجلة، ومنح القواد فيها القطـائع، وسرعـان مـا عمـرت الرصـافة حتـى قاربت بغداد في الاتساع، وانتهى بناء الرصافة في عام 159هـ في عهد الخليفة المهدي..

ولاية العهد:

من الأحداث المؤثرة التي وقعـت في عهـد المنـصور خلعـه لابـن أخيـه عيـسى بنموسى من ولاية العهد، وأخذه البيعة لابنه المهدي، بالرغم مـن أن هـذا الأول كـان

قد أنفذ له ملكه أكثر من مرة، ويبدو أن الخليفة فكر في خلع ابن أخيه في بداية عهده، فيذكر الطبري أنه أوفد عيسى بن موسى لمحاربة العلويين وفي نيته أن يتخلص إما من ولي عهده ليحوِّل الخلافة إلى ابنه المهدي، أو من محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم،وقال: ".لا أبالي أيهما قتل صاحبه"..

لكن كبار رجال الدولة كانوا قد أقسموا في حياة السفاح على بيعة عيسى بن موسى، ولم يكن من السهل عليهم نقضها، ولم يكن ثمة مناص لتحللهم منها إلا بحمل عيسى بن موسى على الانسحاب طوعًا والتخلي عن ولاية العهد، ويبدو أنه لم يكن راغبًا في ذلك مما دفع المنصور إلى استعمال وسائل الترغيب والترهيب التي أدت بدورها إلى اضطراره إلى خلع نفسه، ومبايعة المهدي في عام 147هـوأضحت ولاية العهد للمهدي أولاً ثم لعيسى بن موسى من بعده..

وأسرع المنصور فحمل الناس على بيعة المهدي، وأوصاه بوصية تكشف عن السياسة الرشيدة التي يجب عليه تطبيقها تجاه رعيته فحثه على الرأفة بهم، والسهر على راحتهم، وبسط العدل بينهم، والتقرب إلى الله بحسن السيرة وإجلال أهل العلم والدين، وعمارة الأرض وتخفيف الخراج، ونشر الإسلام والجهاد في سبيل إعلاء كلمته..

وفي عام 158هـ تُوُفي المنصور، وهو في طريقه لأداء فريضة الحج... (13)

هارون الرشيد170هـ ـ 193هـ

التعريف به:

هو أمير المؤمنين هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفرعبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو محمد، ويقال: أبو جعفر، وأمه الخيزران أم ولد، بويع له بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي سنة 170هـ بعهد من أبيه المهدي..

روى الحديث عن أبيه وجده، وحدث عن المبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اتقوا النار ولو بشق تمرة"..

وقد غزا الصائفة في حياة أبيه مرارًا، وعقد الهدنة بين المسلمين والروم بعد محاصرته القسطنطينية، وقد لقي المسلمون من ذلك جهدًا جهيدًا وخوفًا شديدًا، وكان الصلح مع امرأة ليون وهي الملقبة "بأغسطة" على حمل كثير تبذله للمسلمين في كل عام، ففرح المسلمون بذلك، وكان هذا هو الذي حد ابأبيه إلى البيعة له بعد أخيه في سنة 166هـ ثم لما أفضت إليه الخلافة في سنة 170هـكان من أحسن الناس سيرة، وأكثرهم غزوًا وحجًا...

ولهذا قال فيه أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففي أرض العدو على طمر وفي أرض الترفه فوق كور

وما حز الثغور سواك خلق من المتخلفين على الأمور

كان الرشيد يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق لدنيا إلا أن تعرض له عِلَّة، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته، وكان إذا حجَّ حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحجَّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة.

كان يحب التشبه بجده أبي جعفر المنصور إلا في العطاء، فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون من بعده، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، ولايؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه، وكان يحب العلم وأهله، ويعظم حرمات الإسلام، ويبغض المراء في الدين، والكلام في معارضة النص ويقول: هو شيء لا نتيجة له وبالحري ألايكون فيه ثواب..

وبلغه عن بشر المريسي القول بخلق القرآن، فقال: لئن ظفرت به لأضربنَّ عنقه، كما قتل الرشيد رجلاً آخر قال بخلق القرآن، وحدثه أبو معاوية يومًا عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث احتجاج آدم وموسى، فقال عَمُّ الرشيد: أين التقيا يا أبا معاوية؟ فغضب الرشيد من ذلك غضبًا شديدًا، وقال: أتعترض على الحديث؟ عليَّ بالنطع والسيف، فأحضر ذلك فقام الناس يشفعون فيه؛ فقال الرشيد: هذه زندقة ثم أمر بسجنه، وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا، فأقسم عمه بالأيمان المغلظة ما قال هذا له أحد، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها؛ فأطلقه...

وقد قال له بعض أهل العلم يومًا: ياأمير المؤمنين انظر هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر، ويقدمونهما فأكرمهم بعز سلطانك، فقال الرشيد: أولست كذلك؟! أنا والله أحبهم، وأحب من يحبهم، وأعاقب من يبغضهما..

دخل عليه ابن السماك يومًا؛ فاستسقى الرشيد فأُتِيَ بقُلة فيها ماء مبرد، ثم قال لابن السماك: عظني، فقال: يا أمير المؤمنين !!

بكم كنت مشتريًا هذه الشربة لو مُنِعْتَها؟فقال: نصف ملكي، فقال: اشرب هنيئًا، فلما شرب قال: أرأيت لو منعت خروجها من بدنك بكم كنت تشتري ذلك؟ قال: بنصف ملكي الآخر، فقال: إن ملكًا قيمة نصفه شربة ماء، وقيمة نصفه الآخر بولة، لخليق أن لا يُتَنَافس فيه.. فبكى هارون الرشيد..

كان الرشيد يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح ويشتريه بالثمن الغالي، فقد ذكر أن مروان بن أبي حفصة دخلعليه ذات يوم فأنشده شعره الذي يقول فيه:

وسُد تبهارون الثغور فأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائرُ

وما انفك معقودًا بنصر لواؤه ... له عسكر عنه تُشَظَّى العساكرُ

وكل ملوك الروم أعطاه جزية ... على الرغم قسرًا عن يدٍ وهو صاغرُ

إلى آخر الأبيات، فأعطاه خمسة آلاف دينار، وكساه خلعته، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على برذون من خاص مراكبه.

تعظيمه لأهل العلم:

لقد كان الرشيد معظمًا لأهل العلم محبًا لهم، فقد روى أبو معاوية الضرير قائلاً: ما ذكرتُ عنده ـ أي الرشيد ـ حديثًا إلا قال صلى الله عليه وسلم على سيدي، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبلَّ الثرى، وأكلت عنده يومًا، ثم قمت لأغسل يدي فصبَّ علي الماء وأنا لا أراه، ثم قال: يا أبا معاوية أتدري من يصب عليك الماء؟ قلت: لا.. قال: يصب عليك أمير المؤمنين قال أبو معاوية: فدعوت له، فقال: إنما أردت تعظيم العلم.

الأوضاع الداخلية في عهد الرشيد:

العلاقة مع الطالبيين:

أراد الرشيد في مستهل حكمه أن يستميل الطالبيين عن طريق الرفق بهم بعد سياسة الهادي العنيفة تجاههم، فمال إلى التساهل، والتعاطف معهم، وبذل لهم الأمان، ورفع الحَجْر عمَّن كان منهم في بغداد،وأعادهم إلى المدينة باستثناء العباس بن الحسن بن عبد الله، وعزل والي المدينة الذي اضطهدهم.

لكن الطالبيين لم يُعدِّلوا اعتقادهم الراسخ بأحقيتهم بالخلافة ولم يتوقفوا عن النضال في سبيل الوصول إليها، ومن أجل ذلك لم يدم الصفاء بين الجانبين العباسي والعلوي، وعاد الصراع عنيفًا بينهما..

وكانت موقعة "فخ" بعيدة الأثر، فقد نجا منها اثنان من زعماء الطالبيين هما: إدريس بن عبد الله بن الحسن، وقد ذهب إلى إفريقية، وأخوه يحيى الذي يمم وجهه شطر بلاد الديلم في المشرق..

أما إدريس فقد استقر في إقليم طنجة بالمغرب الأقصى، وحظي بالتفاف البربر حوله، وأقام لنفسه دولة مستقلة هي دولة الأدارسة، وهي أول دولة طالبية تنفصل عن جسم الخلافة العباسية..

لقد هددت هذه الدولة النفوذ العباسي في شمالي إفريقية؛ لذلك قرر الرشيد القضاء عليها، ولكنه تردد في إرسال جيش بفعل بُعْدِ المسافة، وخشيته من امتداد نفوذ إدريس إلى مصر وبلاد الشام إن هو تغلب على الجيش العباسي، وبالتالي القضاء على دولة الخلافة العباسية..

فلجأ عندئذ إلى الحيلة ليتخلص من إدريس، ووقع اختياره على رجل مشهور بالدهاء هو سليمان بن جرير المعروف بالشماخ، فاستخدمه لاغتياله، وفعلاً تمكن هذا الرجل من قتل إدريس بالسم في عام 177هـ.

ولكن موته لم يقضِ على دولة الأدارسة فقد كان متزوج من أمة بربرية، حملت منه فانتظر أتباعه حتى وضعت، وكان مولودًا ذكرًا فأسموه إدريس، ولمابلغ الحادية عشرة من عمره ولاه البربر أمورهم وبايعوه بالخلافة، وأصبح المؤسس الحقيقي لدولة الأدارسة في المغرب..

وعندما ازداد خطر هذه الدولة أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب ولاية إفريقية ليقف في وجهها.

وأما يحيى فقداشتدت شوكته في بلاد الديلم، وقوي أمره بمن التف حوله من الأتباع، ثم أعلن خروجه في عام 176هـ (24) وبذلك هدد يحيى دولة الخلافة العباسية وأقلق بال الرشيد، ومما أعطى حركته قوة، بُعْدَ المنطقة التي خرج فيها عن بغداد، ومناعتها الطبيعية..

واستقر رأي الخليفة على القضاء على حركة يحيى، فندب الفضل بن يحيى البرمكي لهذه الغاية الذي نجح في استمالته، بعد أن انفضَّ أتباعه من حوله،فمال إلى

الصلح على أن يكتب له الرشيد أمانًا بخطه على نسخة يبعث بها إليه، فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد؛ فسره وعظم موقعه عنده وكتب أمانًا ليحيى بن عبد الله أشهد عليه الفقهاء والقضاة وجِلَّة بني هاشم ومشايخهم، واستقبله الرشيد في بغداد..

ويبدو أن الخليفة لم يطمئن إلى نوايا يحيى، وأدت الحاشية دورًا في إفساد العلاقة بينهما، فوضعه تحت رقابة الفضل بن يحيى وقد أثر يحيى عليه حتى أطلقه بدون علم الخليفة وذهب إلى الحجاز، ثم بلغ الرشيد أن يحيى يدعو إلى نفسه في الحجاز،فوافق ذلك ما كان في نفسه، فقبض عليه وسجنه ثم قتله..

وكان الرشيد يراقب تحركات الطالبيين في الحجاز، فعلم بالتفاف الناس حول الإمام موسى الكاظم بن جعفر،وأنهم يحملون إليه خُمْسَ أموالهم، وهذا يعني أنهم يعتقدون بإمامته، فقبض عليه وسجنه، وتوفي عام 183هـ والراجح أنه قُتِل..

حركة الخوارج:

لم يكن الاضطراب الذي ساد بعض أجزاء دولة الخلافة العباسية ناشئًا عن حركات الطالبيين وحدهم، بل وُجِدَ فريقٌ من المسلمين أنكر على الخلفاء العباسيين استبدادهم، وخروجهم على الأحكام الشرعية، وهؤلاء هم الخوارج الذين نشطوا في عهد الرشيد في منطقة الجزيرة في عام 178هـ بقيادة طريف الشاري وبسطوا هيمنة فعلية على أرمينيا وأذربيجان، وهددوا السواد في العراق على نهرديالي، ووصلوا إلى حلوان..

اهتم الرشيد بأمر هذه الجماعة فأرسل قوة عسكرية في عام 179هـ بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني اصطدمت بها في حديثة الفرات على بعد فراسخ من الأنبار، وقضت عليها وعلى زعيمها.

الاضطرابات في أفريقية:

سادت الاضطرابات في أإفريقية اعتبارًا من عام 171هـ بفعل خروج الخوارج وقادة الجند والبربر، فأرسل الرشيد هرثمة بن أعيَن واليًا على إفريقية، وأمره بقمع الانتفاضات وتوطيد الأمن، فنجح في مهمته، ودخل القيروان وأمَّن الناس..

ويبدو أن الخلافات بين الفئات الإسلامية المتعددة كانت واسعة فتجددت القلاقل، ولم يتمكن هرثمة من رأب الصدع، فعزله الخليفة بناء على طلبه عام 180هـ كما لم يتمكن الولاة الذين جاؤوا من بعده من السيطرة على الموقف فاستغل إبراهيم بن الأغلب عامل إقليم الزاب (في الجزائر اليوم) هذه الأوضاع القلقة، وطلب من الخليفة توليته على إفريقية،ووعده بتهدئة الوضع..

استجاب الخليفة لطلب عامله وعهد إليه بالولاية على أفريقية عام 184هـ ونجح إبراهيم في تحقيق الاستقرار متبعًا في ذلك سياسة معتدلة،وازدهرت إفريقية في عهده، وشهدت حركة عمرانية واسعة ونشاطًا اقتصاديًا كبيرًا، وقدمهَّد إبراهيم هذا لقيام دولة الأغالبة التي ما لبثت أن استقلت عن الإدارة المركزية في بغداد واتخذت القيروان حاضرة لها..

الاضطرابات في المشرق:

أطلق الرشيد يدعماله على الأقاليم ولم يتهمهم في تصرفاتهم فاشتاط بعضهم، وحجَّ الرشيد فيعام (186هـ/ 802م) واصطحب معه ولديه لتنفيذ ما اتفق عليه.. فأخذ العهد عليهما بألا يتدخلا في شؤون بعضهما البعض، وفي شؤون أخيهما المؤتمن.. وعلَّق نسخة من العهد في فناء الكعبة ليزيد في قدسيته وليؤكد تنفيذه..

خرج الرشيد من بغداد في عام (193هـ/ 808م) قاصدًا خراسان لوضع حَدٍّ لثورة رافع بن الليث، واستخلف ابنه محمدالأمين على بغداد، واصطحب معه ابنه عبد الله المأمون، وكان الرشيد يشكو من عِلَّة في بطنه ويرتدي حزامًا من حرير لتسكين الألم، ولما وصل إلى طوس في شهر صفر، اشتدت عليه العلة حتى عجز عن القيام..

وتوفي ليلة السبت لثلاث خلون من شهر جمُادَى الآخرة 193هـ/ شهر آذار عام 809م..

شبهات حول الخليفة العباسي هارون الرشيد:

عندما نقرأ في تاريخ القادة والزعماء الأوروبيين، وأصحاب الإمبراطوريات والممالك، لا نجد أحدًا من المؤرخين يلقى بالاً للسيرة الشخصية، أو يُعْنَى بتفاصيلها لواحد من الملوك أو الأباطرة، فلا يحكم على الرجل إلا بما قام من أعمال عامة تضر بالدولة أو ترفع من شأنها..

أما التاريخ الإسلامي فإننا نرى العجب في العناية بالسير الخاصة والأخلاق الشخصيةالمحضة للأعلام البارزين في تاريخ المسلمين، حيث يدخلون معهم في حجرة نومهم،ويتبعونهم في مجالسهم الخاصة ليسردوا من أخبارهم التي تستمد ـ غالبًا ـ من محض الخيال الذي يشتهي الحط من شأن تلك الشخصيات، أو من طريق الخدم الذين لا يُعتمد على أخبارهم، لأن أخبارهم لا تعدوا أن تكون أخبار آحاد، دفعتهم أغراض خاصة للتوسع في هذه الشائعات الكاذبة..

ومن هذا النوع ما ذكروه عن الخليفة العباسي هارون الرشيد، قالوا: إنه كان يتعاطى الخمر، ويسكر مع الندماء، وأبرزوه ـ على صفحات التاريخ ـ في صورة العِرْبيد الذي لا يفيق، وأفاضوا في الحديث عن وصف مجالس اللهو والمجون التي كانت تُعقد في قصره إلى طلوع الشمس حتى التصقت قصة ألف ليلة وليلة بحياة الرشيد..

دفع الشبهة:

فإذا كان الفتى ابن بيئته، فإننا نجد أن الرشيد وُلِد، وتربى فيبيت يحرص أهله على التقيد بأحكام الشريعة الإسلامية، حيث كان جده أبو جعفر المنصورمن كبار فقهاء عصره، وكان أبوه محمد المهدي من أشد الخلفاء طاعة لرجال الدين،وأعنفهم على الزنادقة والمارقين، أما أساتذته فإنه درس على أيدي كبار الشيوخ الذين عرفوا بالورع والتقوى، أمثال: علي بن حمزة الكسائي أحد شيوخ القراءات السبع، وإمام أئمة أهل الكوفة في اللغة والنحو والأخبار، كما جالس ـ في شبابه ـ فقهاء

عصره،الذين منهم: أبو يوسف القاضي صاحب الإمام أبي حنيفة، ومحمد بن الحسن، وغيرهما من العلماء والقضاة، وظل على صلة وثيقة بهم حتى آخر أيامه..

وعلى الرغم من أن المصادر الموثوق بها من كتب التاريخ أبرزت جانب الصلاح والتقوى لهارون الرشيد، إلاأن بعض هذه المصادر اعتمدت على الروايات المدسوسة التي تغض من كرامة الرشيد، وتحطمن قدره..

ولننظر مثلاً إلى قول إمام من أئمة المؤرخين المسلمين ألا وهو ابن خلدون حيث قال بعد ما ذكر حديث المفترين على الرشيد: "وأين هذا من حاله وقيامه بمايجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحبة العلماء والأولياء،ومحاورته للفضيل بن عياض، و ابن السماك، والعمري، ومكاتبته لسفيان الثوري وبكاؤه من مواعظهم، ودعاؤه بمكة في طوافه، وما كان عليه من المحافظة على أوقات الصلاة، وشهود صلاة الصبح لأول وقتها.."

ثم يقول: حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة، وكان يغزو عامًا ويحج عامًا..

أما ابن الأثير فإنه ينقل المناقضات والأخبار المتضاربة عن الرشيد فيقول في مجونه عندما تحدث عن نكبة البرامكة، كما أنه كان لا يصبر عن جعفر بن يحيى البرمكي، كما أنه كان لا يصبر عن أخته عباسة بنت المهدي، وكان يحضرهما إذا جلس للشراب.."

بينما يذكر في مكانآخر هذه العبارة: "كان الرشيد يصلي كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا منمرض، وكان يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته، وكان إذا حج أحج ثلاثمائةرجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة، وكان يحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء في الدين.."

ويستمر ابن الأثير يقدم الأدلة على تقوى الرشيد وورعه فيقول: "إن الرشيد اعتمر في شهر رمضان وعاد إلى المدينة عام179 هـ وأقام بها إلى وقت الحج، وحج بالناس ومشى من مكة إلى منى ثم منها إلى عرفات،وشهد المشاعر كلها ماشيًا على قدميه"...

ومن المتناقضات العجيبة في كتب التاريخ أيضًا ما ذكره ابن طباطبا الشيعي في كتابه "الفخري في الآداب السلطانية "حيث قال: "إن الرشيد لما أراد أن يقتل جعفر بن يحيى البرمكي أرسل إليه مسرورًا الخادم ليقتله، فلما دخل مسرور على جعفر، وأخبره بأمر الرشيد، وقع على قدميه، وقال له: عَاوِدْ أمير المؤمنين، فإن الشراب قد حمله على ذلك.."

وهذا القول واضحفي الدلالة على أن الرشيد كان يشرب الخمر..

ولكننا نرى بعد ذلك بصفحة واحدة قولاً آخر عن ابن طباطبا يناقض قوله السابق حيث قال: "إن الرشيد كان قد أقام الحدَّعلى ابنه المأمون في جارية وُجِدَ معها... أو في خمر شربه.."

فتأمل معي أيها القارئ الكريم ما بين الروايتين من التناقض: إذ كيف يبيح الرشيد لنفسه شرب الخمر،ثم يقيم الحد على ابنه في شربها؟!

المستشرقون ينصفون الرشيد:

في الوقت الذي يتناقض فيه المؤرخون العرب في أمر الرشيد، ولا يقطعون برأي في الحكم عليه، نجد أحد المستشرقين لم يطاوعه قلمه ليخوض فيما خاض فيه المؤرخون المسلمون بالنسبة لهارون الرشيد وترفَّع ـ بعقله وعلمه ـ عن الهوى النازل عن مستوى الشرفاء..

هذا المستشرق هو: ل.أ. سيدبو في كتابه "تاريخ العرب العام" حيث قال في الرشيد ما يأتي: "وكان الرشيد ـ وهو المتدين المتصدق ـ قائمًا بجميع الفروض، كأشد

المسلمين إيمانًا، وكان لصفات الرشيد العالية،أبلغ الأثر في العرب، ولا يزال مجد الرشيد يتألق في سماء المشرق بأسطع نور ."

شهادة الفضيل بن عياض لهارون الرشيد:

وتلك شهادة عالم ناسك من أهل الورع والتقوى كـان معـاصرًا للرشـيد، نقلهـا أبـو المحاسـن في كتابه"النجوم الزاهرة" حيث قال" :قال عبد الرازق بن همام: كنت يومًا مع الفـضيل بـن عيـاض بمكـة، فمَرَّ هارون الرشيد،فقال الفضيل: الناس يكرهون هذا، وما في الأرض أعـز عـليَّ منـه "لـو مـات لرأيـت أمورًا عظامًا.."

ويذكر السيوطي:أن الرشيد كان من عادته في كل حجة يحجها، أن يوزع أموالاً طائلة وصدقات عظيمة على سكان الحرمين الشريفين وفقراء الحجيج.. ثم يقول: "ولم يسبقه في مثل هذا خليفـة قبلـه، وربما كان السبب في عنايته بالحج واهتمامه بالترفيه عن أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة، أنه قد رأى النبي صلى اللـه عليه وسلم في المنام قبل توليته الخلافة؛ فقال لـه: إن هـذا الأمـر صـائر إليـك، فـاغزُ، وحِجَّ، ووَسِّعْ على أهل الحرمين.."

مظاهر تدين الرشيد:

لم يكن التدين في سلوك الرشيد صلاة يظهر بها أمام الناس، أوحجًا يباهي بـه في كـل موسـم أو صدقات يعلنها ليمدحه رجال الدين.

وإنما كان الوازع الديني يقظًا في سر الرشيد وعلانيته، ويتمثـل ذلـك في تـصرفاته وحرصـه عـلى سيطرة الدين في المجتمع الإسلامي بالصور الآتية:

1ـكراهيته لعلماء الكلام:

فقد كان ـ لشدة تمسكه بالدين ـ يكره المراء والجدل فيه ويقول: "إن الجدال في الـدين شيء لا فائدة فيه ..وبالأحرى لا ثواب فيه.."

وسمع أن رجلاً يقول بخلق القرآن، فأحضره وسأله عما قيل عنه؛ فاعترف الرجل برأيه في القرآن بأنه مخلوق؛ فضرب عنقه في الحال.."

ولقد وصل كرهه للجدل في الدين حدًا جعله يفهم أن كثرة المناقشة في المسائل الدينية تسبب التشويش والخلط عند البسطاء من العامة، فتفتح عليهم طرق الانحراف بالدين عن وجه الصواب..

بل وصل به الأمر إلى وضع العلماء الذين عُرِفُوا بالجدل في السجن حتى لا ينشروا البلبلة والتردد في المسائل الدينية..

2ـ انقياده للصواب كلما تبين له وجه الحق:

ظل الرشيد يحول بين علماء الكلام وبين عامة الناس حتى تبين له أنه في حاجة إلى مثل هؤلاء العلماء للدفاع عن الدين بتفوقهم في الجدل، وقدرتهم على إقامة الحجة، وقد ظهرت له هذه الحقيقة بسبب القصة الآتية: وهيأن أحد ملوك السند طلب من الرشيد أن يبعث إليه من يناظره في الدين الإسلامي ليرى فيه رأيه، فبعث إليه الرشيد أحد القضاة، وجرت بين هذا القاضي وبين رئيس علماء السند مناظرة أمام الملك، حيث سأل كبير علماء السند قاضي المسلمين قائلاً: أخبرني عن معبودك: هل هو القادر؟ قال القاضي: نعم، قال السندي: قادر على أن يخلق مثله؟ فامتنع القاضي عن الإجابة، وقال: هذه المسألة من علم الكلام وهو بدعة، وأصحابنا ينكرونه فاتجه السندي للملك، وقال له: قد كنت أعلمتُك دينهم، فكتب ملك السند بذلك إلى الرشيد فغضب غضبًا شديدًا، وقال: أليس لهذا الدين من يناضل عنه؟! فقالت الحاشية :بلى يا أمير المؤمنين هم الذين نهيتهم عن الجدل فيه، وألقيت جماعة مهم في السجن؛فقال: أحضروهم، فلما حضروا سألهم: ما تقولون في هذه المسألة؟ فقال أحدهم: هذا السؤال محال لأن المخلوق لا يكون إلا محدثًا، والمحدث لا يكون مثل القديم، فقد استحال أن يقال: يقدر أن يخلق مثله أو لا يقدر، كما استحال أن

يقال: يقدر أن يكون عاجزًا أو جاهلاً، فاختار الرشيد أحد هؤلاء العلماء فأرسله إلى ملك السند، ثم أطلق سراح العلماء المسجونين، واختار من بينهم حاشيته وفي مقدمتهم "ثمامة بنالأشرس.."

3ـ حرصه على تراث المدينة وبرهب أهلها:

يروي ابن قتيبة أن الرشيد ـ عندما حج في عام 174هـ ـ حضر مجلسه في المدينة الإمام مالك بن أنس، وقال له: "إن أباك يا أمير المؤمنين بعث إليّ في هذا المجلس، كما بعثت إليّ، وحدثته بما حدثتك به من شأن أهل المدينة، وما يصبرون عليه من البلاء وشدة الزماة وغلاء الأسعار، صبرًا على ذلك واختيارًا لجوار الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فقال الرشيد: ذلك أبي وأنا ولده، وسوف أفعل ما فعل، وأمر في الحال لأهل المدينة بعشرة أبيات مال، وهو ما كان أمر لهم به أبوه، ثم قال الرشيد للإمام مالك: ما تقول في منبر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا،فإني أريد أن أنزع ما زاد فيه معاوية بن أبي سفيان وأرده إلى الثلاث درجات التي كانت على عهد رسول الله؟ فقال مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنما هو من عود ضعيف قد تخرمته المسامير، وقد ذهب أكثره، ومع هذا يا أمير المؤمنين فإنك لو أعدته إلى ثلاث درجات لم آمن عليه أن ينتقل من المدينة، إذ قد يأتي بعدك أحد فيقول: أويقال له: ينبغي لمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون معك حيث كنت، فإنما المنبر للخليفة؛ فيُنقَل ـ كما نقل من المدينة ـ كل ما كان بها من آثار النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأنه ما تُرِك له بها نعلٌ ولا شعرٌ، ولا فراش، ولا عِصِي ولا قدحولا شئ مما له هنا من آثار..

فأطاعه الرشيد وانتهى عن تغيير منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم..

4ـ بكاؤه عند الموعظة الحسنة:

خصوم الرشيد وأصدقاؤه اتفقوا على أنه كان أرقَّ الخلفاء وجهًا وأكثرهم حياءً، وأخشعهم قلبًا، وأغزرهم دمعًا عند سماع الموعظة الحسنة وكثيرًا ما كان يسمع بواعظ

زاهد فيعمل على اللقاء معه فيرسل إليه، فإن لم يحضر ذهب إليه بنفسه ليسمع منه ما يبكيه بين يديه؛ من ذلك ذهابه إلى زاهد عصره الفضيل بن عياض.

لماذا كان الرشيد يبكي عند كل موعظة؟

كان الرشيد يبكي عند كل موعظة بسبب:

تأثره بالموعظة المخلصة التي تنبع من قلب رجل مخلص أو عالم زاهد..

لعل الرشيد وقد كانت الدنيا كلها بين يديه كان يأخذ حظه مها ويندفع في استمتاعه بها،اندفاع أمثاله من أصحاب الملك والسلطان، ثم ينازعه بعد ذلك شعوره الديني، ويستيقظ ضميره فيداخله الخوف من اللـه ويتوقع العقاب العاجل في تراجع عن زخارف الدنيا، ويتذكرما وقر في نفسه من تتبعه لحياة الزاهدين، من أصحاب رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم ويتمثل الدنيا بمتاعها الفاني، فيخشى أن يضيع عليه المتاع الباقي في الآخرة، وهنا يطلب خاصته أن يحضروا أحد الزهاد من العلماء المعروفين ليعيد إليه شعوره المبدد ويعطيه شحنة من الإيمان باللـه، ويفتح له أبواب الرجوع إلى اللـه، فحين يحضر إليه من يثق به من أهل الصلاح والتقوى يقول له: عظني، فيعظه بمنطق سليم، وبيان عذب، وديباجة رقيقة، فيخشع قلبه، ويمتليء صدره بالإيمان، وتدمع عيناه؛ فترتاح بعد ذلك نفسه..

5ـ شدة حبه لرسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، وإتقانه لرواية الحديث:

يروي أبو معاوية الضرير، محمد بن حازم فيقول: كنت أجالس الرشيد وأروي له، الأحاديث فما ذكرت أمامه كلمة "النبي صلى اللـه عليه وسلم" إلا سمعته يقول: صلى اللـه على سيدي رسول اللـه..

كما ذكر ابن كثير أيضًا أنه يروي في خطبته الأحاديث النبوية بأسانيدها، وأن عددًا من الناس أخذوا عنه تلك الأحاديث،أمثال سليمان الهاشمي، ونباتة بن عمرو وغيرهما..

ولعل هذا يبدو غريبًا عند من يعرف أن الرشيد لم تسعفه الظروف بنصيب وافر من العلم في صغره، بسبب انشغاله بالغزو والجهاد، وتولى بعض شئون الإدارة من بداية نشأته، ولكن نزعته الشديدة إلى تحصيل العلم ورغبته الملحة في الاستزادة من المعرفة، كانت تدعوه إلى انتهاز الفرص للقراءة والمطالعة ومجالسة العلماء، وسؤاله معن كل ما يخفي عليه جعلته يكتسب ثروة كبيرة من الثقافة العامة..

ولم يقف عندهذا الحد من حرصه على بلوغ الغاية المرجوة من العلم في خلافته، بل زادت عنايته بمجالسة العلماء، وشعر بلذة شديدة في سماع مناقشة العلماء والفقهاء، وارتياحه إلى إشارات الزُّهَّاد والنُّسَّاك؛ فدعاه كل ذلك إلى أن يعقد في قصره ندوات يحضرها أقطاب العمل وأهل الورع، فكانت تلك المجالس والندوات أشبه بمدرسة تلقَّى فيها الرشيد قدرًا وافرًا من الثقافة والمعرفة تناسب مع ما عرف به عصره من النهضة الحضارية التي بلغت أَوْجَ عزها في مختلف المجالات.

يتضح مما سبق أن الرواة الذين تحدثوا عن مجون الرشيد وفسقه، هم بأنفسهم رواة تعبده وتهجده فكيف جازفي أذهانهم أن حياة امريء مسئول تتسع لهذين اللونين من الحياة مع وضوح الأدلة على تقواه، وظهورها لكل ذي عينين؟!!

أما لون حياته الآخر ـ وهو حياته الشخصيةبعيدًا عن الناس ـ فكان سرًا لا يعلمه أحد، ومن هنا ـ ومن هذا الباب ـ يسهل الافتراء على أي إنسان ما دام الافتراء لا يحتاج إلى بينة..

ويقول الدكتور شَعْوَط:ويغلب علي الظن أن الذي تولى كبر هذا الدس في حياة الرشيد هم جماعة الشيعة الذين كانوا حريصين على تلويث تاريخ الشخصيات العظيمة من العباسيين حتى يتقربوا إلى العلويين وآل البيت

كما أن هناك طائفة أخرى من الشعوبيين الفرس، الذين أصابتهم نكبة البرامكة بالحرمان من النفوذ والعطاء، فأخذوا يتقولون على الرشيد ما لم يقله،وينسبون إليه ما لم يفعله من الأمور التي تزري به، وتطمس محاسنه من صفحات التاريخ .

أبو موسى محمد الأمين 193 – 198 – هـ /809 – 813 مـ:

التعريف به:

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور، أبوموسي الهاشـمي العبـاسي وأمه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، وُلِدَ بالرصافة عام (170 هــ / 786 م2) بويـع له بالخلافة بعد وفاة والده الرشيد وبعهد منه. اشتهر بحسن الأدب، وكان عالما بالشعر، فصيح اللـسان لكن غلب عليه الهوى واللعب وضعف الشخصية، وتأدَّب على الكسائي وقرأ عليه القرآن.اشـتُهِرَ بحبـه لأصحابه وعطفه عليهم، ولكنه فشل كقائد وكحاكم.

أسباب النزاع بين الأمين والمأمون :

ترجع جذور النزاع بين الأخوين الأمين والمأمون إلى ثلاثة أسباب هـي: مـشكلة ولايـة العهـد – الصراع العنصري العربي والفارسي – أطماع الحاشية.

أ- مشكلة ولاية العهد:

تعتبر هذه المشكلة أحد أقوى الأسباب بفعل الطموح إلى الـسلطان، والعوامـل النفـسية التـى انتابت الأمين تجاه أخويه، فكان الباديء بنقض بنود العهد، واتخذ عدة خطوات كانت كفيلـة بتفجـير الوضع، منها: محاولاته في بادئ الأمر، بسط نفوذه على ولايات أخويه، ثم تقديم ابنه موسى علـيهما في البيعة .

في الوقت الذي كتب فيه والده العهد عليه وعلى أخيه المـأمون وعلقـه في فنـاء الكعبـة، نـوى الأمين الغدر. إذ عندما طلب منه جعفر البرمكي أن يحلف بعدم نقض البيعة أجابه إلى ذلك: " خـذلني اللـه إن خذلتُه " ورددها ثلاث مرات. ولما خرج قال للفضل بن الربيع "يا أبا العباس، كنت أحلف وأنا أنوي الغدر" تصريحات الأمين حين عزم على خلع المأمون ومبايعة ابنه موسى إذ قال ليحيي بـن سـليم الذي استـشاره في هـذا الأمـر، وحـاول أن يثنيـه عـن عزمـه " إن رأي الرشـيد كـان فلتـة شـبهها عليـه جعفـر بـن يحيـي بـسحره واسـتماله بِرُقَـاه، فغـرس لنـا غرسـا مكروهـا لا ينفعنـا مـا نحـن فيـه إلا

بقطعه،ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتثاثه والراحة منه،وقال للفضل بن الربيع يوما: " ويلك يا فضل، لا حياة مع بقاء عبد الله وتعرضه، ولابد من خلعه"..

نستنتج من ذلك أن نية الغدر كانت موجودة عند الأمين، ومبيتة في نفسه منذ اللحظة الأولى، التى عين فيها والده أخاه المأمون وليًّا للعهد من بعده، وهذه المشكلة،هي التى فجرت النزاع بين الأخوين، وقد كان ما بينهما متباعدا في حياة أبيهما،فلما مات لم يُرِدْ أحدهما الآخر، أما المأمون فظل قابعا فى خراسان لم يبرحها، وأما الأمين فقد خشي عاقبة هذا الاعتكاف، فكان طبيعيا أن تسوء ظنون الأخوين أحدهما بالآخر.

ب- صراع الحزبين العربي والفارسي :

أخذت ملامح الدور السياسي الذي أداه كل من الفضل بن سهل كاتب المأمون ومدبره الذي مثل العنصرية الفارسية في الإدارة العباسية، والفضل بن الربيع الذي مثَّل التطلعات العربية، تظهر بشكلها المحدد في الفترة التي سبقت وفاة الرشيد مباشرة .

فأخذ الأول، مدفوعا بنزعته العنصرية، وخشيته من وفاة الرشيد بعد تفاقم مرضه يسعى ليضمن حق المأمون في الخلافة، ويحميه من استبداد أخيه وحاشيته،ولعل أول خطوة أقدم عليها لتحقيق آماله أنه أقنع المأمون بمرافقة والده إلى خُرَاسان ليلتمس فيها الأنصار، وليبعده عن سطوة الأمين وحزبه.

وانكشفت نوايا كل من الطرفين بعد وفاة الرشيد، وظهر التناقض بينهما واضحًا في وجهات النظر السياسية، وكان الرشيد، لدى اشتداد المرض عليه، قد جدَّد البيعة للمأمون بعد الأمين.. ولما علم الأمين بشدة مرض والده أرسل بكرا بن المعتمر إلى خراسان ومعه كتب ظاهرها عيادة والده، وباطنها أمر إلى القوم بالعودة إلى بغداد مع الأعتدة.

ولم يتردد الفضل بن الربيع وكان على نفقات الرشيد وتدبير أموره، في العودة بالعسكر والأعتدة بعد وفاته، ولم يُعَرِّج على المأمون، ولم يلتفت إليه بالرغم من محاولة

هذا الأخير مناشدته ومن معه بعدم المغادرة، وذكرهم بالعهود والمواثيق التى أخذها الرشيد عليهم، وقد ضايق ذلك المأمون فعلا وآلمه، وشعر بعد مصفاء نية الأمين تجاهه. والواقع أن النصر الذي أحرزه العنصر العربي في تغلبه على البرامكة، وسعيه الدائم لكسب مزيد من تأكيد النفوذ والسلطان ' قد لا يتحقق إلا في ظل خليفة كالأمين وذلك ما دفع الفضل بن الربيع لإلقاء ثقله خلفه معتبرا أن هذه فرصته لكسب جولة أخرى من الصراع.

أما ابن سهل فقد رفض طلب الأمين، ولطَّف الأمر للمأمون، فخاطبه قائلا: "نَازِلٌ في أخوالك، وبيعتك في أعناقهم؛ فاصبر قليلا وأنا أضمن لك الخلافة.

ولاشك بأن ابن سهل هذا بتشجيعه المأمون على البقاء في خراسان، ومساندته ورفضه طلب الأمين بالعودة الى بغداد كان مدفوعا بمطامع عنصرية،وأخرى شخصية وقد أوضح لأبي محمد اليزيدي أنه خدمه "ليحوز طابع هذا، يشير إلى الخاتم، في الشرق والغرب، لهذا خدمته، ولهذا صحبته " والحقيقة أن ابن سهل الذي كان يسعى لإيصال صاحبه إلى منصب الخلافة، أملا بأن تكون (مرو) عاصمةً لهذه الخلافة بدلامن بغداد، وأن تعود لخراسان عظمتها، وأدى دورًا بارزًا في تكتيل الخراسانية خلف قضيته، وقد رفضت هذه أن تعود إلى الظل بعد نكبة البرامكة؛ فوقفت بشدة خلف المأمون متمسكة به، فكان هو الإمام الذي التفت حوله الخراسانية الجديدة.

وهذك اتخذ تقضية النزاع بُعدا شعوبيا بين العرب والفرس، وراح يوجه الأحداثَ أشخاصٌ يتعصبون لأحد الفريقين، فظاهر العرب الأمين، وأخذ الفرس بيد ابن أختهم المأمون يشدون أزره .

جـ - أطماع الحاشية :

وقفت حاشية الأمين، خاصة الفضل بن الربيع وعلى بن عيسي بن ماهان، وراءه بقوة ودفعاه إلى نكث العهد، في حين كانت الدلائل تشير إلى ميله للوفاء لأخويه رغم تصريحاته السابقة، ونصحه الفضل بن الربيع بأن يستدعي أخاه المأمون

إلى بغداد حتى يظفر به كرهينة، ويفصل بيته وبين جنده، تمهيدا لخلعه وصرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى.

ومن جهته، فقد وقف الفضل بن سهل خلف المأمون، وأوعز إليه بالاعتذار عن الذهاب إلى بغداد بحجة أن أمور خراسان تستدعي بقاءه فيها.

وهكذا أدى تدخل رجال الحاشية إلى تأجيج النزاع الذي وصل إلى حد عدم العودة عن الصدام.

مراحل النزاع بين الأمين والمأمون:

مَرَّ النزاع بين الأمين و المأمون بمرحلتين: مرحلة المفاوضات السلمية التى انتهت في عام (195 هـ/ 811 م) ومرحلة الحسم العسكري التي انتهت بمقتل الأمين في عام (198 هـ / 813 م)

مرحلة المفاوضات:

اتخذ النزاع، في باديء الأمر، شكل سفارات ومراسلات متبادلة بين الأخوين حول قضية ولاية العهد،والصلاحيات الخاصة بالخليفة. ونهج الأمين السلوك السياسي المخادع لاستمالة أخيه،واستقطاب حاشيته وفي نيته عزله من ولاية العهد .

ومن جهته، فقد تصرف المأمون بشكل يبعث الطمأنينة في نفس أخيه، فبعث إليه بمراسلات تعظمه، وأهدى إليه هدايا كثيرة من طرف خراسان.

ثم حدث أن انتزع الأمين من أخيه المؤتمن كل ما بيده، واستقدمه إلى بغداد، وكتب في الوقت نفسه إلى جميع العمال بالدعاء لابنه موسي بالإمرة بعد الدعاءله وللمأمون وللقاسم، ولما سمع المأمون بذلك، أدرك أن الأمين ينوي تغيير العهد فقطع عالبريد عنه، وأسقط اسمه من الطرز.

ومضى الأمين في تودده دون أن يظهر نواياه؛ فكتب إلى المأمون يستدعيه إلى بغداد لحاجته إليه في تسيير شؤون الدولة، وفي نيته الغدر به.

ويبدو أن المأمون مال إلى إجابة طلب أخيه وكاد أن ينخدع، لولا تحذير وزيره الفضل بن سهل له،ونصحه بالاعتذار عن تلبية الدعوة، والعمل على تقوية جيشه، وتوطيد مركزه فيخراسان.

لم ييأس الأمين من محاولاته الإيقاع بأخيه المأمون، وقرر تجريده تدريجيًّا من كل ما بيده؛ فكتب إليه يطلب منه أن يتخلَّى له عن بعض كور خراسان سَمَّاها له، وأنه عازم على تعيين موظف من قِبَلِه على البريد ليكتب إليه بخبرها باعتباره خليفة للمسلمين، ويستطيع التصرف في أمور خراسان كما تقضي المصلحة العامة.

استشار المأمون شيعته في طلب أخيه؛ فأشاروا عليه جميعا بإجابته، باستثناء الفضل بن سهل الذي رفض العرض، فوافقه المأمون وكتب إلى أخيه بذلك، ورسم هذا الوزير الفارسي للمأمون السياسة التي يجب عليه اتباعها وهي :

- الاعتصام في خراسان، لأن الخراسانية لن ينقضوا بيعتهم له بحكم قرابتهم له .
- انتهاج سياسة دينية رزينة.
- الاهتمام شخصيا بأمور الدولة ورد المظالم .

فأحبه الناس، والتفوا حوله .

نتيجة لهذا الجفاء، اشتد التوتر بين الأخوين، وأُغلِقَتِ الحدودُ بينهم، واتخذ المأمون بعض الاحتياطات لقطع الطريق على الدعاية التى راح يبثها الأمين ضده لاستماله أهل خراسان، فأقام حراسة مشددة على طول الطريق بين العراق وخراسان، وأعطى الأوامر باعتقال المشبوهين الذين يفدون من العراق.

أوشكت دولة الخلافة العباسية أن تنقسم إلى قسمين ينازع كل منهما الآخر، القسم الغربي حيث مدينة بغداد وعلى رأسه الأمين تسانده العرب وعلى رأس قواته القائد العربي على بن عيسي بن ماهان، والقسم الشرقي أى خراسان والولايات الشرقية حيث يقيم المأمون في مدينة مرو بمساندة الفرس، وعلى رأس قواته طاهر بن الحسين.

وتفاقم النزاع بمرورالأيام، وفشل الأمين في حمل أخيه المأمون على التنازل عن ولاية العهد لصالح ابنه موسي، مما دفعه إلى خلعه في عام (195هـ وجلب كتابي العهد من فناء الكعبة وحرقهم،بالرغم من تحذير بعض بطانته.

أغضب هذا التصرف الخراسانيين، وغيرهم من أهالي الأمصار، فقاموا فى وجهه، واشتعلت الاضطرابات، وأضحى التحول إلى النزاع المسلح أمرا محتم، وأخذ كل طرف يستعد له .

مرحلة الحسم العسكري:

سيَّرالأمين جيشا بقيادة علي بن عيسى بن ماهان، والي خراسان السابق لقتال أخيه، تقدم إلى الري حيث كان جيش المأمون، بقيادة طاهر بن الحسين بانتظاره، والتحم الجيشان في رحى معركة قاسية، أسفرت عن انتصار جيش المأمون، ومقتل علي بن عيسى ولم تكد أنباء النصر تصل إلى مقر المأمون في مرو، حتى بايع الناسُ المأمونَ بالخلافة.

والواقع أن الأمين أخطأ تقديره الموقف السياسي والعسكري، أو غُرِّرَ به لتعيين علي بن عيسى على رأس قواته؛ لأن هذا التعيين كان قاضيًا على الأمل في استمالة الخراسانيين، نظرا لكراهيتهم له مما أثار حميتهم؛ فاستماتوا بالقتال.

ويبدو أن الأهواء الشخصية أدَّت دورًا في هذا الأختيار. فعلي كان يطمع في العودة إلى منصبه القديم، كحاكم لولاية خراسان، وربما عمد الأمين إلى إغاظة سكانها فولاه القيادة نكاية بهم. والراجح أن أحد عيون الفضل بن سهل، وهو العباس بن موسى هو الذي أشار على الأمين أن يؤمِّر عليا ليثير حمية الخراسانيين على القتال،أثارت أنباء هزيمة جيش الأمين الفزع في بغداد مما دفع الخليفة إلى تجهيز جيش آخر، وأرسله إلى خراسان بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنباري، للتصدى لزحف طاهر.

ووقعت المعركة الثانية بين القوتين في همذان، وانتصر فيها جيش المأمون أيض، وسيطر طاهر على المدينة، ثم واصل زحفه باتجاه بغداد يرافقه هرثمة بن أعين، ولما وصلها، ضرب عليها حصارًا مركزًا، فدبت فيها الفوضى، وشهدت شوارعها اصطدامات داخلية بين مؤيدي الطرفين، وتمكنت قوة خراسانية من دخولها وأسرت الأمين، وأعلنت خلعه، لكن العناصر العربية قامت بهجوم مضاد وتمكنت من إطلاق سراحه، وأخرجت الخراسانية من المدينة.

ونتيجة لضغط الحصار، خارت قوة الأمين، بعدما انهارت معنويات جنده وانتهت المقاومة، ودخل طاهر المدينة عنوة، ووجد الخليفة نفسه أمام أحد الخيارين إما القيام بمحاولة أخيرة لاختراق صفوف الخراسانية، وإما الاستسلام وطلب الأمان، ولما لم يكن معه من الرجال ما يساعده على المقاومة، فقد فضل الاستسلام للقائد هرثمة بن أعين، وقد اختاره بسبب قوة طاهر، ولكن هذا الأخير كمن له في النهر، وقبض عليه وسجنه، ثم اقتحم عليه سجنه عددٌ من الجنود الخراسانية وقتلوه، وكان ذلك في الخامس والعشرين من شهر المحرم عام 198هـ وسيطر طاهر على بغداد وأَمَّنَ أهله، وانتهت بذلك خلافة الأمين .

أبو جعفر عبد الله المأمون198-218هـ/813-833م :

التعريف به:

هو عبد الله المأمون ابن هارون الرشيد القرشي الهاشمي، أبو جعفر، أمير المؤمنين، وأمه أم ولد يُقال لها: مراجل الباذغيسية. وُلِدَ عام(170هـ/786م)، ولاه والده العهد وهو في سن الثالثة عشرة من عمره. بُويِع له بالخلافة في عام(198هـ/813م)، وكان بالري، وقدم بغداد فيعام(204هـ/819م)

اشتهر المأمون بصفات ميزته عن سائر الخلفاء العباسيين منها: ميله إلى العفو، وكراهيته للانتقام، وكرمه الذي فاق كرم كافة الخلفاء العباسيين، وقوة حُجَّة الإقناع

لديه. كان حاضر البديهة، سريع الجواب. أديبً، يعرف جيد الشِّع من رديئه. ويحب سماع الغناء.

أبو إسحق محمد المعتصم 218 – 227 هـ / 833 – 841 م

التعريف به:

هو أمير المؤمنين أبو إسحق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهد يـبن المنـصور العبـاسي، يقال له (المثمن) لأنه ثـامن ولـد العبـاس، وثـامن الخلفـاء مـن ذريتـه، ولأنـه تمكـن مـن إحـراز ثمـاني فتوحات، وأقام في الخلافة ثماني سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيام، وأنه ولد سنة ثمانين ومائة في شـعبان وهو الشهر الثامن من السنة،وأنه توفي وله من العمر ثمانيـة وأربعـون عـامً، وأنـه خلَّـف ثمانيـة بنـين وثمانيبنات، كان أُمِّيًّا لا يحسن الكتابة، إلا أنه يوصف بأنه جندي شجاع، مُدرَّب في الحرب، كما يوصـف بقوته الجسمية. بويع بالخلافة، يوم مات أخوه المأمون بطرسوس، وقد سـعى بعـض الأمـراء إلى توليـة العباس بن المأمون، لكن هذا الأخير أسرع بمبايعة عمه احتراما لوصية والده وتسكينا للجند.

حكم المعتصم الدولة العباسية حكما استبداديًّا، مقرونا بشيء من العطف وحسن التدبير،وتميز بالشجاعة والإقدام وشدة البأس والمهابة، و أولـع بـالعمارة والزراعـة، وكـرس وقتـه لتـشييد القـصور و تخطيط الحدائق والبساتين.

الأوضاع الداخلية في عهد المعتصم:

الحركات الطالبية :

لم تكن سياسة المعتصم نحو الطالبيين أقل شدة من سياسة الخلفـاء العباسـيين اللذين حكموا قبله باستثناء المأمون، وقد خرج في عهده محمـدبن القاسـم بـن عـلي الزيـدي في عـام ((219 هــ /834م)) بالطالقـان، فـالتف حولـه كثـير مـن سـكان كـور خراسـان. ولكـن حركتـه لم تكـن منظمـة، ولم تـشكل خطـرا جـديا عـلى حكـم

المعتصم،الذي أمر قائده عبد اللـه بن طاهر، أمير خراسان، بالتصدى له، وتمكن هذا القائد من هزيمته، وقبض عليه، وأرسله إلى سامراء حيث سجن فيها، إلا أنه فَرَّ من سجنه بمساعدة رجال من شيعته، وتوارى أيام المعتصم و الواثق ثم أُخِذَ في أيام المتوكل، فسُجِن ومات في سجنه.

ويبدو ان عوامل إخفاء حركته رغم إنتشارها، تعود إلى ثلاثةعوامل:

- قوة الدولة العباسية في عهد المعتصم.
- اعتقاد محمد بن القاسم بارآء الزيدية والجارودية التى لم نكن تُرضِي كثيرا من الزيديين، خاصة زيدية الكوفة، بالأضافة إلى بعض الشيعة الإمامية للشيعة الزيدية من أتباع أبي الجارود.
- اعتقاد محمد بن القاسم بآراء المعتزلة

وتوفي في عهد المعتصم في عام (220 هـ / 835م) محمد الجوَّاد بن على الرضاء تاسع أئمة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، وقد اطمأن المعتصم لهذه الوفاة، بعد أن خشي أن ينافسه على الحكم، ويطالبه بتولى الخلافة،على اعتبارات أولاده من سلالة المأمون من زوجته أم الفضل.

حركة الزط :

من المصاعب التى واجهت المعتصم وأثقلت كاهله أثناء خلافته، حركه الزط الذين تمكنوا من السيطرة على طريق البصرة، وهددوا مرافق الدولة، وفرضوا المكوس على السفن، وحالوا دون وصول الإمدادات إلى بغداد، فوجَّه إليهم قائده عجيف بن عنبسة فى عام (219 هـ / 834 م) لصدهم في البطيحة، وشدد عليهم، حتى طلبوا الأمان

القضاء على حركة بابك:

كان المعتصم عند حسن الظن به، فقد صعد حربه ضد البابية حتى قضى على حركتهم فى عام ((223هـ /835 م)) فقد ركز جهوده - بعد استقرار الوضع الداخلي- على حرب بابك، وأرسل الحملة تلو الحملة ضده، ومن جهة أخرى فقد تفاقم خطر بابك بعد ان دخلت أذربيجان فى حوزته، فنشر الرعب فى المنطقة الممتدة حتى إيران في عام (218 هـ/833/ م)

وعين المعتصم، في عام (220 هـ / 835 م) أعظم قادته وهو الأفشين حيدربن كاوس أميرا على الجبال، وأمره بقتال بابك، تميز هذا القائد بالحذر والخبرة الشديدة بالمسالك الجبلية. فاتبع خطة عسكرية مرنة تستند على التقدم البطئ. فعسكر فيبرزند من نواحي تفليس، وضبط الحصون و الطرق فيما بينه وبين أردبيل، ووزع جنده على مختلف القلاع والمواقع، وكان المعتصم يمده بالامدادات والمؤن، ونفقات الجند باستمرار، ورَتَّب البريد، ومهَّد الطرقات لتأمين المواصلات والاتصالات بسرعة وسلام حتى أضحى تبادل الرسائل بين سامراء ومعسكر الأفشين يستغرق مدة أربعة أيام أو أقل،كما استعمل الحمام الزاجل لنقل الأخبار لأول مرة في هذه الحرب، وكان يشرف على سير المعارك من سامراء، ويضع الخطط العسكرية بنفسه.

وبذلك أضحى للمسلمين سلسلة من الحصون المتماسكة في مواجهة بابك، ولجأ الأفشين إلى استعمال الأسلوب التجسسي كى يضعف خصمه، ويطلع علي خططه؛ فكان يستقطب من يظفر به من جواسيس؛ فيضاعف لهم العطاء،ويسخرهم في التجسس له.

أدرك بابك على الفور أنه يواجه هذه المرة قائدا محنكا، وحتى يخفف الضغط عن قواته فى أذربيجان، ناشد الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل أن يهاجم الأراضي الإسلامية، ووعده بأن يعتنق النصرانية.

نتيجـة هـذا الاحتقـان كـان لابـد أن يقـع صـدام بـين الجـانبين بعـد هـذه الاسـتعدادات العسكرية،فأصدر الخليفة أوامره إلى الأفشين ببدء العمليات العسكرية، وحدد له مدينـة (البـذ) كـأول هدف عسكري بعد اضطرار بابك إلى التحصُّن فيها إثر معركة أرشق.

لم يتسرع الأفشين في تقدمه نحو البذ، وأخذ يزحف متأنيًـا حتـى وصـلها وضرب عليهـا حـصار مركزا، واتخذ من مدينة روذ الروذ معسكرا جديدا لقواته، وحاول بابك في غضون ذلك اسـتمالته لكنـه لم ينجح، وبقي الأفشين محاصرًا البذ حتى تمكن من دخولها يوم الجمعة في (العاشر مـن رمـضان عـام 222 هـ / آب عام 837)

هرب بابك، بعد سقوط البذ. إلى أرمينيا؛ فكتب الأفشين إلى ملوكها وأمرائها بسد الطرق عليـه، وتذكر المصادر أن البطريق سهل بن سنباط تعرَّف على مكان اختبائه؛ فأمنه؛ ثـم غـدر بـه وسـلمه إلى الأفشين.

وجِيء ببابك إلى سامراء في (شهر صفر عام 223 هـ / شـهر كـانون الثـاني عـام 838 م) ومعـه أخوه عبد الـلـه وكان يوم وصوله يوما مشهودا؛ فقد ألبسه الجند ثيابه الأرجوانية، ووضعوه على ظهـر فيل، وطافوا به في شوارعه، وعندما أضحي في مجلس الخليفة نزع عنه الجند ما كان يلبس، ثم قطعـوا يديه ورجليه، وراحوا يغرزون سيوفهم ببطء في جسده، متجنبـين إصـابته بمقتـل ليطيلـوا أمـد عذابـه، وأخيرًا قطعوا رأسه وأرسله الخليفة إلى بغداد حيث عُرِضَ على الناس، بينما صُـلِبت جثتـه وعرضـت في سامراء، وصلب معه أخوه عبد الـلـه،فانتهت بذلك هذه الحركـة التـي شـغلت جانبـا مـن اهتمامـات الخلافة منذ عهد المأمون.

حركة المازيار:

ما كادت دولة الخلافة العباسية تتحلص من الأخطار التى كانـت تمثلهـا حركـة بابك الخزمي في المناطق الواقعة إلى الغـرب مـن بحـر قـزوين، حتـى واجهتهـا حركـة

فارسية أخرى، تمثلت في حركة المازيار بن قارن آخر الأمراء القاريانيين بطبرستان، الذي اتخذ من موطنه مسرحا لنشاطه الثوري المعادي للدولة

اعتنق المازيار الإسلام وتسمى باسم محمد، وولاه المأمون على طبرستان ورويان ودنباوند، ولقبه الأصب.

ويبدو أنه كان ذا نزعات استقلالية؛ فأراد الانفصال عن جسم الدولة فاستغل الخصومة بين الطاهريين - الذين كان يكرههم، وبين الأفشين الطامع في ولاية خراسان ليرفع راية الثورة، وكان هذا الأخير قد كاتب المازيار وشجعه على إعلان العصيان على حكمهم، آملا أن لا يتمكن هؤلاء من إخضاعه،فيتخذ- عندئذ- ذلك ذريعةً لانتزاع خراسان منهم.

لكن هذه العلاقة بين الأفشين والمازيار لم تكن بهذه السطحية وأن الصلة التى جمعت الرجلين بعيدة الغور عميقة الجذور، فقد اعترف المازيار بأن الأفشين حرضه على الخروج والعصيان لمذهب اجتمعوا عليه، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس كما كان المازيار يكاتب بابك،ويعرض عليه المساعدة، والراجح أنه كان على مذهب الخرمية، ذلك المذهب الذي أضحي يمثل ثورة الوعي الفارسي ضد سلطان العباسيين وضد المجتمع الذي أقاموه، وأن الدوافع التى حركت بابك، هى التى حملته على العصيان خاصة،إذا علمنا أنه كان حديث عهد بالإسلام،أي أن هذه الدوافع كانت مزيجا من الدوافع السياسية والعنصرية والدينية.

وتدل التدابير التى نفذها المازيار بعد إعلان حركته، على نزعة الخرمية الإشتراكية إذ أراد مصادرة الأراضي من الملاك، وتوزيعها على الفلاحين، ولهذه النزعة معنى سياسي إلى جانب المعنى الاقتصادي خاصة إذا علمنا أن قسما كبيرا من الملاك كانوا من العرب ومواليهم؛ لذلك أمر المازيار عامله على سرخستان بإن يجمع مائتين وستين من أبناء القادة ويسلمهم إلى الفلاحين ليقتلوهم باعتبارهم أناسا يشكلون

خطرً، كما أغرى هؤلاء بقتل أرباب الضِياع، وأباح لهم منازلهم وحُرمهم، في محاولة تهدف إلى ضم قوى الطبقات العامة ودفعها للتخلص من السلطان العربي.

وقد وقف الخليفة على أهداف هذه الثورة، حين ضبط عبد اللـه بن طاهر رسالة من الأفشين إلى المازيار، وبعد أن حصل هو على الرسائل الأخرى من المازيار نفسه.

والواقع أن هذه الحركة ولدت ميتة؛ ذلك أن توقيت إعلانها فى عام (224 هـ / 839 م) لم يكن مناسبا، فقد كانت دولة الخلافة العباسية آنذاك فى وضع مستقر، وعلى درجه عالية من القـوة ' وذلـك بعد أن تخلصت من العديد من الحركات المعادية التى قامت في وجهه، وبالتالى فإن القضاء على حركة المازيار لم يكلفها الكثير من الجهد، أما نهاية المازيار فقد كانت شبيهة بنهاية بايك حيث قتله الخليفة، ثم صلبه إلى جانب بابك .

ظهور العنصر التركي:

بويع للمعتصم بالخلافة في ظل ظروف من الـصراع العنيـف بـين العـرب مـن ناحيـة، والفـرس الذين حظوا بعطف المأمون خلال السنوات الأولى من خلافته من ناحية أخرى، واخـتلال في التوازنـات بين العناصر التى تكونت منها الدولة العباسية، فقد ساءت العلاقات بين العباسـيين والخراسـانيين منـذ انتقال المأمون من مرو، وظهر أثر ذلك في القضاء على بنى سهل،وقيام الحركات المناهضة للدولـة ذات الخلفيات الفارسية وبالتالى استحالة التوفيق بين تطلعات الخراسانيين ومصالح العباسيين، وبـدأت ثقـة المعتصم بالفرس تضعف.

ومنجهة أخرى، لم يركن المعتصم إلى العنصر العـربي، ولم يثـق بـالعرب نظـرا لكثرة تقلبهم،واضطرابهم، وقيامهم ضد الخلفاء، بالإضافة إلى أن هؤلاء فقدوا كثيرا من مقومات قوتهم السياسية، والعـسكرية فأصـبحوا أقـل خطـورة وأعـف شـأنا .

وحملت هذه المعطيات المعتصم على ان يوكل أمر سلامته الشخصية إلى فرقة من العنصر التركى وقد توافقت طباعه النفسية وصفاته الجسدية من حيث القوة والشجاعة ومتانة الجسم، مع صفات أخواله الأتراك كأُمَّةٍ عنيفة محاربة شديدة البأس، وأضحى لهذا العنصر أثر كبير في الحياة السياسية والاجتماعية بالرغم من أن الاتراك لم يكونوا أهل حضارة عريقة وأصبح الحرس التركي يمثل دعامة من دعائم الخلافة أيام حكمه . والواقع أن الأتراك نفذوا إلى المجتمع الإسلامي منذ العهد الأموي على إثر الفتوحات الإسلامية لبلاد ما وراء النهر، لكن لم يكن لهم أى تأثير سياسي فى المجتمع الإسلامي إلا أن هؤلاء وقد يظهرون على مسرح الأحداث في بغداد ظهورا واضحا منذ عهد المأمون الذي استخدمهم في الجيش ليحقق نوعا من التوازن بين العنصرين العربي والفارسي.

وتلقف المعتصم هذه العصبية الجديدة النامية لإستغلال مواهبها العسكرية للحفاظ على دولته والإبقاء على خلافته، في ظل الصراع العربي - الفارسي فاستخدم الأتراك في الجيش على نطاق واسع،وجعلهم تحت إمرة قادة منهم، مسددا بذلك ضربة عنيفة للقادة والجند العرب، ولسياسة المنصور التقليدية التى كانت تستهدف حفظ التوازن في الجيش بين الفرق الأعجمية،والفرق العربية

أما مصادر هؤلاء الأتراك، فقد جلبهم المعتصم من أقاليم ما وراء النهر، مثل: سمرقند وفرغانة وأشروسنة والشاش وخوارزم، وكان ذلك إما عن طريق النخاسة، أي الشراء، و إما عن طريق الأسر في الحروب، وإما عن طريق الهدايا التى كان يؤديها ولاة هذه الأقاليم على شكل رقيق إلى الخليفة، ومن ثم أصبحت بلاد ما وراء النهر مصدرا مهما للرقيق الترك.

ومكَّن المعتصم للأتراك فى الأرض، فقربهم إليه، وخصَّهم بالنفوذ، وقلَّ دهم قيادة الجيوش، وجعل لهم مركزا في مجال السياسة،وأسكنهم سامراء التى بناها

خصيصا لهم، ومن جهة ثانية حرم العرب مما كان لهم من قيادة الجيوش، ثـم أسـقط أسـماءهم مـن الدواوين، وقطع أعطياتهم.

كان لسياسة المعتصم هذه نتائج آنِيَّة وبعيدة :

فمن حيث النتائج الآنية، فقد أغضبت هذه السياسة العـرب، فانتفـضوا عـلى حكـم المعتـصم، كما دبروا مؤامرة لاغتياله بزعامة عجيف بن عنبسة والعباس بن المأمون لكن المؤامرة فشلت، وكانـت ردة فعل المعتصم أن تخلص من العباس فى الوقت الذي توفي فيه عجيـف، ثـم أقـصى العـرب والفـرس تدريجي، وأسقطهم من ديوان العطاء .

ومن حيث النتائج البعيدة، فقد تسببت هذه السياسة بحدوث أضرار بالغة وخطيرةعلى دولـة الخلافة العباسية، إذ خرجت بها عن مسارها العربي- الفارسي، وأدت إلى إضعاف سلطة الخليفة، وربمـا كان نشوء الدول الانفصالية فى مختلف أرجاء الدولة اعتبارا من العصر العباسي الثاني، أحد هذه النتائج لكنها لم تظهر بوضوح في عهد المعتصم، وسوف تتجلى فيما بعد، منذ مقتل المتوكـل فى عـام (247هـ / 861 م)

القضاء على الأفشين:

استغل بعض القادة الاتراك فى الدولة العباسية، مناصبهم القيادية ونفوذهم في البلاط ليحققوا طموحاتهم بالانفصال عن الدولة. وكان من بين هـؤلاء الـذين تمتعـوا بنزعـات اسـتقلالية،القائد الـتركي الأفـشين الـذي أراد تأسـيس دولـة انفـصالية لـه في أشروسـنة؛ فـراح يمهـد طريـق الوصـول إلى هدفـه بالخطوات التالية :

حاول استقطاب السكان حتى ينفضوا عن الوالى العباسي ويلتفوا حول دعوته.

حاول إزاحة والي خراسان عبد الـلـه بن طاهر الذي وقف في وجهه.

حرض كلا من المازيار ومنك جور الفرغاني بالثورة على حكم المعتصم .

فشل الأفشين في تحقيق هدفه، بعد أن انكشفت مؤامراته، فتغيرت سياسة الخليفة تجاهه، وأدركمن جانبه هذا التغير؛ مما دفعه إلى التفكير بالتخلص من الخليفة نفسه، ولكن قُبِضَ عليه وحاكمه المعتصم، لكن محضر المحاكمة لم يُشِرْ إلى المؤامرة، وإنما هي مجموعة تهم أُرِيدَ بها إثباتُ أن الأفشين لم يعتنق الإسلام حقيقة، ولا يزال يتعصب للمجوسية، ويسعى للقضاء على دولة الخلافة العباسية ولعل هدف المعتصم، كان منع تسرب النفرة والشك إلى القادة الأتراك الآخرين، وتوفي الأفشين في سجنه في عام 226 هـ 841 / م)

العلاقات الخارجية في عهد المعتصم:

العلاقة مع البيزنطيين:

توقف القتال بين المسلمين والبيزنطيين في السنوات الأولى لخلافة المعتصم، نتيجة انهماك الخلافة في القضاء على ثورة بابك الخرمي، وفي المقابل فقد انصرف الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل إلى التخطيط لاستعادة جزيرة صقلية من أيدى المسلمين، فشهدت مناطق الحدود هدوءا يكاد يكون تاما، إلا أنه ما كاد يمضى على خلافة المعتصم أربعة أعوام حتى رأى ثيوفيل أن يعود إلى قتال المسلمين على الحدود الشرقية لإمبراطوريته، وقد شجعه على ذلك نجاح المفاوضات التى أجراها مع بابك الذي وعده باعتناق المسيحية مقابل مساعدته في قتالهم، وظنًّا منه أن باستطاعته إحراز نصر عسكري عليهم؛ فأغار على منطقة أعالي الفرات ليؤمن اتصالا مع الخرمية في أرمينيا وأذربيجان، واستولى في طريقه على زبطرة مسقط رأس والدة الخليفة وأَسَرَ من فيها من المسلمين ومثَّل بهم وسبى المسلمات، كما هاجم سميساط وملطية وأحرقها. اعتبر المعتصم هذه الغارة البيزنطية تحديًا شخصيا له قبل أن تكون تحدي اللخلافة العباسية، فقبل التحدى وعزم على أن يثأر لزبطرة، فما كاد ينتهى من إخماد ثورة بابك الخرمي، في عام (223 هـ /838 م) حتى أعد جيشا كثيفا بهدف توجيه ضربة قاصمة

للإمبراطورية، تقضى بدورها على هيبة الإمبراطور، فخرج هو على رأس هذا الجيش متجها صوب عمورية مسقط رأس أسرة ثيوفيل، عازمًا على تدميرها، والجدير بالذكر أن الاستيلاء على عمورية يُعتَبر خطوة للوصول إلى القسطنطينية.

غادر الخليفةسامراء وهو على تعبئة، وجعل أنقرة أول هدف للحملة، فعين أشناس التركي قائد اللمقدمة، وإيتاخ قائدا للميمنة، وجعفر بن دينار على الميسرة، وعجيف بن عنبسة على القلب، وشارك الأفشين فى حملة على رأس فرقة عسكرية وكتب على ألوية الجيش وتروسه " عمورية " وقرر دخول الأراضي البيزنطية من ثلاثة محاور، فتوجه جيش الشرق بقيادة الأفشين نحو مدينة سروج ليدخل الأراضي البيزنطية في يوم محدد عن طريق درب الحدث،أما جيش الغرب بقيادة أشناس فكان عليه أن يتقدم عبر جبال طوروس إلى مدينة الصفصاف الواقعة قرب قلعة لؤلؤة على أن يلتقي بجيش الشرق في سهل أنقرة. وقاد الخليفة القسم الثالث من الجيش وزحف مباشرة نحو أنقرة، ورسم الخليفة خطته التكتيكية على أن تجتمع الأقسام الثلاثة عند سهل أنقرة لمهاجمة المدينة .

وغادر القسطنطينية فى هذه الأثناء الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل بعدما علم بما وضعه الخليفة من خطط عن أنقرة وعمورية، وتوقف في دوريليوم على بعد ثلاثة أيام من عمورية، وأمر بتحصين هذه الأخيرة، وبعث الإمدادات إليها، أما الخطة القتالية التى وضعها فكانت تقضى بمهاجمة القوات الإسلامية أثناء زحفها نحو الشمال باتجاه أنقرة، ومن أجل ذلك عسكر على نهره اليس، واستعد لعبوره ليفاجيء المسلمين ظنا منه بأنه هذه القوات سوف تجتاز درب كيليكيا في طريقها إلى أنقرة، ولم يكن يعلم شيئًا عن جيش الأفشين .

ثم حدثأن أصدر الخليفة أوامره بالتوقف ريثما يستطلع أخبار الجيش البيزنطي، وبعث برسالةإلى أشناس -وكان وقتئذ قد بلغ مرج الأسقف القريبة من لؤلؤة- يبلغه

بتطورات الموقف العسكري، ويأمره بالتوقف حتى توافيه الساقة لأنها تحمل العتاد الحربي.

ويبدوا أن ثيوفيل علم بتقدم جيش الشرق بقيادة الأفشين فغير خطته،واضطر أن يقسم جيشه إلى قسمين: تَرَأَّس هو القسم الأول ليواجه الأفشين، فيحين ترك القسم الثاني من الجيش للتصدي لجيش الخليفة حتى يمنعه من التقدم، محاولا بذلك منع التقاء الجيشين الإسلاميين.

ولما وقف المعتصم على خطة ثيوفيل أرادأن ينذر الأفشين بمسير الإمبراطور إليه، لكن الأفشين كان قد توغَّل في آسيا الصغرى،فلم يبلغه أى كتاب، أما أشناس فقد تابع زحفه باتجاه أنقرة وسار الخليفة وراءه،بينهما مسيرة يوم واحد دون أن يعلما شيئا عن مصير الأفشين .

وفي الوقت الذيكان فيه جيش الخليفة يقترب من أنقرة كان الأفشين يجتاز سيواس إلى توقات، فتحتم عليه، عند ذلك أن يشتبك في معركة مع الأمبراطور.ابتدأت المعركة في ساعات الصباح الأولى من يوم الخامس والعشرين من (شهر شعبان عام 223 هـ تموز عام 838 م) وعلى الرغم من ان البيزنطيين أحرزوا نصرا أوليًّا إلا أن فرسان المسلمين حولوا الموقف من الهزيمة إلى النصر، ووقع الاضطراب في صفوف البيزنطيين عندما شاع خبر أن الإمبراطورلقى مصرعه و المعركة دائرة؛ فانهزم البيزنطيون وهربوا لا يلوون على شيء، وترك الإمبراطور ساحة المعركة بعد قليل من العناء وسار حتى بلغ مدينة خليوكومن، شمالى أماسيا حيث جمع فلول جيشه الهارب، وعاد إلى معسكره على نهر هاليس، وأرسل أحد خصيانه إلى أنقرة للدفاع عنه، لكنه وصل بعد فوات الأوان؛ ذلك أنه حدث أن اجتمعت الجيوش الإسلامية المتفرقة في سهل أنقرة وأنزلوا بالمدينة الخراب والدمار.

لم يَسَعْ ثيوفيل بعد هزيمته وسقوط أنقرة، إلا أن يرسل إلى المعتصم يطلب الصلح معتذراعن مذابح زبطرة، ومتعهدا بإعادة بنائه، وإعادة السكان إليه، وإطلاق سراح من عنده من الأسرى المسلمين، إلا أن الخليفة رفض عرض الصلح،وتابع زحفه باتجاه عمورية، أما ثيوفيل فقد توجه نحو دوري ليوم منتظرا ما سوف يحلُّ بعمورية من المصير المحتوم.

وتقدم الخليفة باتجاه عمورية بعد تدمير أنقرة؛ فوصلها في سبعة أيام وشرع في حصارها،وعلى الرغم من مناعتها وحصانتها إلا انها استسلمت في السابع عشر من(شهر رمضان عام 223 هـ / 838 م) بعد أسبوعين من الحصار؛ فأسر المسلمون كثيرا من أهلها وغنموا غنائم وفيرة، وهدم المعتصم أسوارها،وأمر بالمقابل بترميم زبطرة وتحصينها.

كشفت حملة المعتصم عن ضعف الإمبراطورية البيزنطية، مما شجع الخليفة على مواصلة زحفه باتجاه القسطنطينية، التى باتت الطريق إليها مفتوحة، إلاأنه اضطر للعودة إلى العراق لأنه كشف مؤامرة دبرها الجند لصالح العباس.

وفي مطلق الأحوال تبقى حملة المعتصم إلى بلاد البيزنطيين مميزة عن الحملات السابقة التى كانت تستهدف الأطراف، فعمورية تقع بعيدا في جوف آسيا الصغرى،إذ اعتبرها الطبرى " من أعظم ما يُقصَد له من بلاد الروم "

وما ترتب علي غزو المعتصم من كوارث في آسيا الصغرى، وما جرى من تقدم مسلمي إفريقية في جزيرة صقلية،وما ألحقه المسلمون في جزيرة كريت بالإمبراطورية من هزائم، كل ذلك أقنع ثيوفيل بأن الإمبراطورية عاجزة عن مواجهة قوة المسلمين المتزايدة، فمال إلى الصلح.

وأخيرا تقررت الهدنة بين الطرفين في عام (227 هـ / 842 م). ثم حدث أن توفي كلٌّ من المعتصم وثيوفيل في العام نفسه، فتولى الخلافة الواثق، في حين تولى عرش الإمبراطورية البيزنطية ميخائيل الثالث بوصاية والدته تيودورا.

وفاة المعتصم:

احتجم المعتصم في اليوم الأول من شهر محرم عام 227 هـ / شهر تشرين الأول عام 841 م) فأصيب عقب ذلك بالمرض الذي قضى عليه لثماني ليالٍ مضت من شهر ربيع الأول أواخر شهر كانون الأول من العام الميلادى المذكور، وكان قد ولى عهده ابنه هارون، ولم يشرك معه في الولاية أحد.

أبو جعفر هارون الواثق 227 -232 هـ / 841 -847 م

التعريف به:

هو هارون بن المعتصم، ويكنى أبا جعفر، أمه أم ولد تدعى قراطيس،بويع له بالخلافة بعهد من والده المعتصم في اليوم الذي توفي فيه هذا الأخير، يوم الأربعاء لثماني ليالٍ مضت من شهر ربيع الأول.

اشتهر الواثق برجاحه العقل،وبحسن التصرف السياسي في عهد والده مما دفع أباه إلى الاعتماد عليه أثناء غيابه عن مقر الخلافة، ثم ولاه عهده، أولع بالعلم والأدب،كان شاعرا له شعر حسن وأجزل العطاء للشعراء الذين زخر بهم عصره، وقد أفرد في قصره مجلسا للمناقشات الفكرية مقتديًا في ذلك بالمأمون وكان يقال له: "المأمون الصغير "،واقتدى بأبيه فى الاعتماد على العنصر التركي؛ فأحَلَّ الأتراك في المناصب القيادية محل العرب.

الأوضاع الداخلية فى عهد الواثق:

يعتبر عهد الواثق فترة انتقال بين عصرين مختلفين من عصور دولة الخلافة العباسية، وشهد في كثير من مظاهره ما كان سائدا في عهد المأمون وعصر والده المعتصم.

تصدى الواثق، فى بداية عهده، لحركات الأعراب من بنى سليم وغيرهم من البدو الذين عاثوا فسادا في جهات المدينة، وفرض الأمن على الطرقات التجارية في شمالي الجزيرة العربية.

اعتنق الواثق عقيدة المعتزلة المتعلقة بخلق القرآن، وانتهج سياسة والده في الانتصار لها ومساندتها،وتشدد في فرض آرائه الدينية على الناس مما أدى إلى بروز حركة تذمر من قبل العامَّة والفقهاء، فتآمر عليه أهلُ بغداد، وتنادَوا إلى عزله، ويبدو أنه تراجع عن عقيدته قبل موته.

اعترى إدارة الواثق الضعف والتحكم من قِبَل الولاة والبطانة،وتفشَّت الرشوة فى عهده وكثر الفساد، انتهج هذا الخليفة سياسة التشدد تجاه عمال هو كُتَّابه مقتفيا أثر جده الرشيد، وتبنى قوله المشهور "...... إنما العاجز من لايستبد " فنكَّب بكُتَّابه، وانتزع الأموال منهم متهما إياهم بالإثراء على حساب الدولة .

تمتع ولاة الأقاليم في عهد الواثق بنفوذ كبير، فقد حكم عبد الله بن طاهر بن الحسين خراسان وطبرستان وكرمان حُكْمًا يكاد يكون مستقلا، وأسند الخليفة إلى قائده التركي أشناس حكم الجزيرة والشام والمغرب ومصر، كما ولى إيتاخ التركي خراسان والسند و كوردجلة.

وفاة الواثق:

دام اعتلاء الواثق لسُدَّة الخلافة العباسية أقل من ست سنوات وتوفي، بمرض الاستسقاء لست بقين من (شهر ذى الحجة عام 232هـ / شهر آب عام 847 م) دون أن يولي على العهد أحدا بعده، وسُئِلَ أثناءَ مرض هو دُنُوِّ أجله، أن يوصي بالخلافة لولده، فرفض وقال: " لا أتحمل أمركم حيًّا وميِّتًا " ويشكل عهده نهاية العصر العباسي الأول .

المراجع

(1)-الشيخ محمد الخضري: الدولة العباسية ص 34 - 42

(2)-د. طقوش: تاريخ الدولة العباسية ص 7

(3)-د. طقوش: تاريخ الدولة العباسية ص 9 – 11

(5) د. مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص 519 - 521

(6) المرجع السابق ص 522، 523

(7) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية ص 7.

(8) د. مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص 502 - 405.

(9) محمود شاكر: الدولة العباسية جـ 5 ص 5.

(10) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية ص 12 - 18.

(11) المرجع السابق ص 20.

(12) د. مؤيد فاضل ملّا رشيد: شبهات حول العصر العباسي الأول ص 47- 49.

(13) المرجع السابق ص 49 - 53.

(14) د. إبراهيم شعوط: أباطيل جبأن تُمحى من التاريخ ص 51، 52.

(15) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية ص 5، 6.

(16) ادعى أنه علي بن محمد بن حسن بن عبيد اللـه بن العباسبن علي بن أبي طالب.

(17) د. طقوش: تاريخ الدولة العباسية ص 172 - 175.

(18) السباخ: هو الطبقة الملحية المتسربة من مياه الخليج العربي.

(19) د. طقوش: تاريخ الدولة العباسية ص 175 - 178 وانظر له أيضًا: التاريخ الإسلامي الوجيز ص 177، 178.

(20) د. طقوش: تاريخ الدولة العباسية ص 179

(21) المرجع السابق ص 179 - 180.

(22) هو ميمون القداح بن ديصان وهو رجل فارسي ثنوي المذهب أظهر الإسلام.

(23) المرجع السابق ص 180 - 182.

(26) المرجع السابق ص 182 - 185.

(27) المرجع السابق ص 185.

(28) د. مؤيد فاضل ملا رشيد: شبهات حول العصر العباسي الأول ص 25 - 32.

(31) المرجع السابق ص 36 - 39.

(32) د. عبد العظيم محمود الديب: نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي ص 65 - 69.

(33) المرجع السابق ص 70، 71.

(34) المرجع السابق ص 71 - 73.

(35) المرجع السابق ص 74، 75.

(36) د. حامد محمد الخليفة: الموقف من التاريخ الإسلامي وتأصيل الهوية ص 318.

(37) المرجع السابق ص 328، 332، 333.

المحتويات

يبحث هذا الكتاب في تاريخ الدولة العباسية في عصرها الأول: شباب الدولة وصعودها، وصولاً إلى عصرها الذهبي وعصر قوتها. ثم ينتقل للبحث في عصرها الثاني: عصر الحرس التركي، والفتن والحروب الداخلية، ثم الضعف وظهور دول مستقلة عنها...

مـــركـــز الكـتـــاب الأكـاديـمـــي
عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري
ص . ب : 11732 عمّــــان (1061) الأردن
تلفاكس: 96264619511+ موبايل: 962799048009+
الموقع الإلكتروني :www.abcpub.net
A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net



